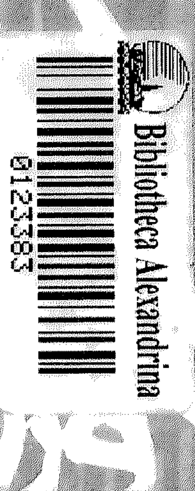
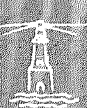
أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

عبد الحليم الجندي





دار المعارف





أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام



أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

المستشار

عبد الحليم الجندى

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى هذا الكتاب صورة لا سيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الإمام الأعظم لأهل الإسلام .

وإذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حدثاً ضخماً فى تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع الرأى وحده جحفلا لجباً . فليس كهذا الإمام مصداق لهذا الكلام .

فإلى الجيل الذى يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالى للحرية والشجاعة والكفاح .

إن أبصارنا فى أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه إلى المستقبل وإلى الماضى معاً ، لأن الماضى مركز الثقل الذى يحفظ توازننا ، فلا نقبل على المجهول إلا وفى أيدينا قدر كاف من المعلوم ، ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرنا وارتوينا . وإذا كنا إلى اليوم لم نغترف من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات ، فلنرجع البصر كرات إلى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج إذا تحققت المناعة بإنهاض القوى الذاتية للجسم الحى .

لنقل للمترددين مقالة البحارة فى سفينة بالمحيط الأطلسى للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل ، فرغ منها الماء العذب فصاحوا فى طلبه ، وأجابهم بحارة المحيط : « ألقوا دلوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء ، وكان الجواب دائماً : « ألقوا دلوكم حيث أنتم » ، حتى إذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذباً فراتاً لذة للشاربين ، إذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماءه العذب فى صميم المحيط وهم لا يشعرون .

لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزخر الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارئ فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها إلا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أو فتى كسيف الإسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الإسلام من ردّة المرتدين فكانت يده فى حروب الردة أندى وأجدى من كل غزوة غزاها .

إذا كان نابليون قد فاخر « بقانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقعه الستين التى أذهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ القانون منه أنه صدر فى عهده ، فكيف بأبى حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين فى الإسلام ، والإمام الأعظم للأئمة وللمشترعين . فى كل نبضة من نبضات قلبه هداية . بالعلم وبالقدوة ، إلى شجاعة نفس ، وكفاح متصل ، جلت للناس عمله فى بناية الحضارة الإسلامية وحياطتها بما أشاعه فى كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال ويصيبون من الخير فى الحياة الدنيا إذا ازّينت لهم بمصباح الفقيه .

ولما تعارض الفكر والسلطان . أو الفقيه والخليفة ، كانت كلمة الفكر هى العليا .

ألا إن لنا فى الإمام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسيًا فى التضحيات ، ونحن فى مفترق الطرق . فلنقتد بهداه . ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة . ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب الحضارة الغربية التى أوشكت أن تعلن إفلاسها فى الحربين الأخيرتين لخلوها من عنصر الروح .

لنتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا .

لقد اعتز الإسلام بأسبابه ، عندما استمسك أبناؤه بآدابه ، فلما ضيعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .

وبحسب القارئ هذا المثل للرجل العظيم الذى أجرينا ذكره على الصفحات التالية .

الباب الأول

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام
التى لم ينفرط عنها عقد الزمان بعد . أقبلوا
كالفجر الطالع واملأوا آفاق الورى بالنور »

اتريه



أقبل السيد فى تؤدة ورزانة ، طويل القامة ، معتدل السمت عظيم الهامة ، حسن الطلعة واللحية ، تعلوه سمرة، فى وجهه أثر من السجود ، لا يلتفت إذا مشى يمنة أو يسرة ، يضوع المسك من أردانه على القرب وعلى البعد حتى ليشيع الأرج إذا خرج من داره ، فتعرف أنه القادم إليك قبل أن تراه .

فإذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباسًا عليه بزة فاخرة تباهى بذوق صاحبها فى قماشها وطرازها ، كأن قماشًا تخير لنفسه أحسن ما لديه ، فاجتمع ذوق المشترى وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق ، تعلوه قلنسوة طويلة سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم ، فى زمن كانت فيه ثمانية أرطال سمن بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم ، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم . بل الكبش بدرهم . . !

ومن جبة سنجاب إلى جبة ثعلب يصلى فيها ، إلى جبة فنك (نوع من جراء الثعلب التركى) فى زمن لم يك يلبس الفنك فيه إلا الأقيال والدهاقين والسروات ، إذا ألفيت فيه أو فيما قبله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس أو من على شاكلة ابن عباس : ابن عم النبى ، ونائب أمير المؤمنين علىّ ، والجد الأعلى لهارون الرشيد .

هذا السيد الذى ينم مظهره عن المقام الرفيع ، ينبئك مخبره عن مقام فى قمة الملأ الأعلى من المخلصين ، مجلس هو الوقار بعينه ، وفؤاد جسور هو الشجاعة فى عنفوانها ، وجنان ثابت لا يطيش لدى القارعة . إذا سمع اللغو أعرض عنه ، هيوبًا لا يتكلم إلا جوابًا ، حتى إذا دعت إلى الحديث دواعيه افترت شفتاه عن ثنيتين ناتئتين ثم انبثق النبع سلسلا من سلسل ، كأن ملكًا من الملائكة يوحى إليه ! مضرب المثل فى وفائه ونداه ، وبسطه وإيناسه . وحدبه على أعدائه وأوليائه . لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة : رزقه ربه رزقًا حسنًا فجعله كله زلفى لله وقربى ، فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه ، فجعله للناس آية فى الدنيا وفى الدين .

فمن ذلك الذى هو كل ذلك . . ؟

إنه النعمان بن ثابت المكنى بأبى حنيفة . الذى يتبين عقله من منطقه ومشيته ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر . تتردد عباراته إلى جوار أساطين المسجد الجامع فى الكوفة ، فتتردد أصداؤها فى المسجد الحرام بالمدينة ، وفى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وفى البيت الحرام بمكة ، وفى جامع عمرو بالفسطاط . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظائم ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء ، فإذا ذهب إلى المسجد الجفل الحضور إليه يلتمسون وقع الدر من فيه . يطالعهم كل آن بجلائل العلم الذى ينحنى له الأفذاذ من العلماء . ولو أتيح للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا – بعد رسول الله و بضعة من صحبه – هو أخلد الرجال فى تاريخ الإسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار ، فظلت كما أنزلها الله عصرية فى كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعى فى أحدث الأمم الإسلامية حضارة يتحصل فى كلمة يسيرة المبنى كبيرة المعنى هى : « أرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة » ، الرجل الذى أعلن الحرية فى كل مكان وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فى التجارة وفى الملك ، وفى التصرفات وفى حقوق النساء ، وفى حقوق الرعية . حرية وتسامح فى كل شيء يسموان باسمه فى معارج الخلود : يقاوم صاحبهما طغيان الشرطى وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التقاليد وطغيان التعصب . ولا تنال منه الهزاهز ولا الفتن و ينشىء مدرسة الرأى فى الإسلام لتكون أم الفقه الإسلامى ومنبعه على مر الدهور .

* * *

كان فتى طوالا فيه سمرة منحدرة إليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده فى الأفغان – فلقد ولد فى سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بنى تيم . فهو باسمه سمى ملك من الملوك فى العراق «النعمان بن المنذر» وهو بمولده مولى من الموالى، لم يتلق العلم فى مدرسة ولا جامعة ، وإنما دخل المسجد الجامع ، وتخرج فى مدرسة الدنيا .

وكانت الدنيا فى ذلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة كأتون مستعر ، وكان أمير العراق فى طفولة النعمان الحجاج بن يوسف الثقفى ، رجلا ما يزال اسمه

يجرى فى التاريخ العربى بما يجرى به اسم نيرون فى التاريخ الغربى. فالنعمان لم يسلخ فى بواكير حياته ليلة واحدة ولانهاراً دون أن تصطك مسامعه بأحاديث هذا الطاغوت الناشبة براثنه فى أعناق جيرته وعشيرته . يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فى العراق عامة والكوفة خاصة — وحمل الطاغية فى عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل شهيداً فى سنة ٩٥ « مات . . ما على ظهر الأرض رجل إلا ويحتاج إلى علمه » هو سعيد بن جبير . ومن بعد ذلك بعام فى سنة ٩٦ مات أستاذ العراق إبراهيم النخعى مختفياً عن عيونه . . . !

ولما يفع الفتى الموهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قبضه إليه جبار السماء . فرحل إلى الدار الآخرة مخلفاً فى الدار الفانية أحاديث مآسيه .

لاحت على الحدث الناشئ مخائل النجابة وتعارفها الناس حتى بلغ حديثها قاضى الكوفة وزعيم محدثيها فى عصره الإمام الشعبى . فلما مر به يوماً دعاه قائلا : إلى من تختلف ! ؟ قال : « أختلف إلى السوق » وسمى له أستاذه فى السوق . قال الشعبى « لم أعن الاختلاف إلى السوق بل عنيت الاختلاف إلى العلماء » قال : « إنى قليل. الاختلاف إليهم » قال الشعبى : « عليك بالنظر فى العلم ، ومجالسة العلماء ، فإنى أرى فيك يقظة وحركة » .

ووقع فى قلبه من قوله وترك الاختلاف إلى السوق وأخذ فى العلم منذ حداثته الباكرة.

بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد والجدال فى العقائد والأمور الدينية كافة . كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه، والجبر والاختيار ، وإن شئت فقل إنه علم التشريح الفكرى للمسائل المسلمة لإنكارها أو إقرارها بالدليل العقلى .

وكان العراق إقليماً مستوفزاً يدفع كل شيء فيه إلى شبوب الخواطر . وفى الطبيعة البشرية اتجاه غريزى للدفاع عن النفس يدفعها إلى الثورة على العسف ، مواجهة إن استطاعت ، ومن حواليه إذا هى لم تستطع ، فتفرغ شحنتها من الحماسة فى اتجاهات يظهر بادى الرأى أنها لا تمت بسبب إلى الحرب المشبوبة على الطغيان ، لكنها فى الواقع كفروع النهر ، تتلاقى حيث المجرى العريض يحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار .

ولقد يظهر من ذلك أن الإقبال على الجدال إنما هو فى الواقع إقبال على النضال . إقبال المفكر بطبيعته ، المتزن بفطرته ، لم تمسه همزات الفتن ولم يفض فى الخلافات العصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلفى بأن يقارب السلطان ، وإنما نزل إلى معارك العلم واستقام على طريقته طيلة حياته فى بلد كانت السياسة فيه هى الخبز اليومى يطعمه كل كوفى .

وسنرى من بعد أثر هذا التعليم الأول حين راح فى كهولته يصدع برأيه فى شجاعة دونها شجاعة السيوف .

قالوا رأى النعمان فى حداثته من الصحابة ثمانية رجال وامرأة . وقيل خمسة وامرأة وقيل خمسة وامرأتين — منهم أنس بن مالك — وإنه سمع منه حديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وحديث : « الدال على الخير كفاعله » وحديث « إن الله تعالى يحب إغاثة اللهفان » . وقالوا إنه لم يسمع من الصحابة أحداً ، وإنما تمحضت حداثته لدراسة « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه إلى الأسفار فى سبيل العلم ، فكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ فى « الكلام » مبلغاً يشار إليه فيه بالبنان أو كما قال : « كنت أعطيت جدلا فى الكلام ، وأصحاب الأهواء فى البصرة كثير ، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظناً أن علم الكلام أجل العلوم » . لكن ما ركب فيه من عقل عملى كان حقيقاً أن يغير مجراه وأن يهديه إلى طريقته المثلى . وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة ، وخليق بمثله أن ينصرف إلى ما ينفع الناس فيهجر المتكلمين إلى الفقهاء أو كما قال : « فلما مضى مدة من عمرى تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا مجادلين . وخاضوا فى علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناظروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سيماء الصالحين قاسية قلوبهم غليظة أفئدتهم . . . » .

كان فتى ذواقة يختار من كل شىء أحسنه . وما دام قد تخير الدرس فقد كان عليه أن يختار المدرس . وليس إذن إلا الحلقة المجاورة لأنها أكبر الحلق ، وأستاذها أكبر الأساتذة : أبو إسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفى الأشعرى الذى يعقد جلساته فى المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال : « تعلم العلم » قال : « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط فى سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها فى الغداة فيخطئ الحفاظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح فى الجدل حتى ليحمر وجه حماد. لكن حماداً يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله. قام يوماً من مجلسه فقال حماد لجاره : « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه . . » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد : « كنت أكثر السؤال فربما تبرم منى . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبى وضاق صدرى » .

لم يلبث إلا قليلا حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بإزائه . وطفقا يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكفل زاخر من الرعاية ، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى إن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة إلى أى الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس إلى قلب الجد هو الحفيد . لكنه أجابه : إلى أبى حنيفة ولو أمكننى ألا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت التلميذ نفسه فى نحو الثلاثين من عمره أنه أوتى حظاً من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتى الناس مما فتح الله عليه . فخرج يوماً بالعشى تنازعه نفسه طلب الرياسة ، ويمم شطر المسجد وأوى إلى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى . فلم يكد يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد فى حلقته ، فهاجته الذكرى . ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ العظيم الذى قال عنه إبراهيم النخعى إذ سئل عمن خلف بعده للناس. إنه خلف حماداً للناس . فكيف يترك النعمان حماداً ؟

كان حماد آية فى الزهد والورع يفطر كل ليلة فى شهر رمضان خمسين إنساناً فإذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوباً ثوباً . .

وانصرف الفتى كاسف البال منكسراً ولكنه كان منتصراً . إذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته فى دأب وتعمق وحماسة زادته بسطة فى العلم وسعة فى الفهم . حتى إذا نعى إلى حماد بعض أهله بالبصرة عن مال لا وارث له دونه ، رحل إلى البصرة وأناب أبا حنيفة فى أن يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ — الصغير — يستفتونه فى أشياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير ، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب ، واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، وللإسلام : تلك أنه دوّن إجاباته ليعرضها على أستاذه إثر عودته . فلما راجعها حماد أقر منها أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين ، وبدأ فقه الجمهور الإسلامى يعرفه معه ، وآنس التلميذ من نفسه ضعفاً إذ منعه الحياء العلمى أن يعتد بأنه أصاب ضعفى ما أخطأ ، وتعاقب عليه الجديدان فى حلقة حماد ، وهو يأخذ نفسه بالاستبحار فى العلم وفى الدين ، واشتملت عليه عناية الله تتعهده تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر . ودار الفلك دورات وانسلخت سنوات ثمان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوماً ولا بعض يوم . بل إن كثيراً من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفاً من الليل .

كان يسهر مع جماعة من أصحابه فى دار حماد يتدارسون ، وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح الديك فإذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة : « يا لك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، إن شر الديكة ما صاح أول الليل » .

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه : وبلغ به استقلاله : ما بلغ بأستاذه جلاله ، أنه لم يكن يجد فى مخالفته له حرجاً . خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حماداً : إنى على دابة سيور وقد غابت الشمس ولست على الوضوء . قال له : تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال : سر وانتظر غيبوبة الشفق ، فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل ، وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ .

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيمم ما دام يغلب على الظن وجود الماء ، وفى الوقت سعة ، طلباً للكمال بالطهارة الأصلية .

وهى أول فتوى خالف فيها أستاذه .

اكتملت دراسات الفتى المكتمل، وبلغ نضجه العلمى، واستوى فى سن الأربعين — سن الرسل — فأضحى يستطيع أن يؤدى رسالته وهيأت له السماء كل الظروف .

فى سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد إلى بارئها واجتمع الناس إلى ابنه إسماعيل ، وكان أغلب علم إسماعيل فى التاريخ والأدب ، فلم يلق الناس عنده كبير غناء. فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحتملونه وإن لم يكن فارهاً فى الفقه، لأنه لقى المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجاً فجلس الناس إلى أبى بكر النهشلى فأبى فسألوا أبا بردة فأبى، وخلى بين المجلس وبين أبى حنيفة ، فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم فى كل الأبواب نفاذاً وعلماً بارعاً فلزموه وتركوا سواه .

وجاء إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد . ولم يزل الناس يختلفون إليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكم أمره واحتاج الولاة إليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علواً ، وغدت حلقته أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها فى الجواب وانصرفت وجوه الناس إليه وأكرا الحكام والأشراف . فقوى ذلك بالعلم الواسع والجدة ، وأسعدته المقادير، وكثر حساده .

وظلت فى نفسه ذكريات حماد يرددها مشيداً بنداه على الناس وجدواه عنده وتقواه لله حتى ليقول : « إنى لأدعو لحماد مع أبوى » . بل إنه ليخلد ذكراه فى نفسه وفى داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمى ابنه حماد ولده باسم إسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه إسماعيل .

ذلك حماد أستاذه فى الفقه ، وأبوه فى الفكر ، وأولئك آباء حماد الفكريون :

كان حماد تلميذاً لعلية الأستاذين . جرى اسمه فى التاريخ على أنه راوية إبراهيم النخعى . وناهيك بإبراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبى عندما نعى إليه : « هلك الرجل .. إنه نشأ فى أهل بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله . . » وقال : دفنتم أفقه الناس . قيل ومن الحسن (الحسن البصرى) ؟ قال : « أفقه من الحسن ومن أهل البصرة ومن أهل

الكوفة وأهل الحجاز» . فلقد كان فى الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين — أخذ عن خاله علقمة بن قيس الذى كان الصحابة يستفتونه والذى قال عنه ابن عباس إذ مات: «مات ربانى العلم» كما أخذ عن ابن أخى علقمة الأسود بن يزيد النخعى ، وهذان النخعيان أخذا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود ، سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين إلى الحبشة والمدينة ، وقرين أبى بكر وعثمان وعمر وعلى ، وصاحب النبى الذى قال فيه : «من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد» والذى كان أخا فى الفكر والرأى لعمر بن الخطاب.

قال عنه أبو موسى الأشعرى: «لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم». ولما أرسله عمر إلى أهل الكوفة بعث إليهم يقول : «إنى بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى» وقدر لعمار ومساعديه ٦٠٠ درهم فى الشهر! ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال .

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله . حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد أحفل أيام حياته وجرى فى خلده وفى مناهجه منهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفة ، إذا أبيح لنا أن نستعير هذا التعبير العربى عن أرسطو . وبهذا تستبين صلة أبى حنيفة بالصحابة المقربين وبالإسلام عندما نشأ الإسلام .

سأل الرشيد عن أبى حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له فى إحدى جوامع الكلم قال : «. . قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، كان علمى به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطق فى دين الله تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم ، طويل الصمت دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . . إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، وإلا قاس مستغنياً عن الناس ، لا يميل إلى طمع ، ولا يذكر الناس إلا بخير . .» قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها .

كانت قرة عينه فى الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلى ويبكى ويدعو ربه قائلا : «رب ارحمنى يوم يبعث عبادك ، وقنى عذابك ، واغفر ذنوبى يوم

يقوم الأشهاد » . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن فى رمضان ستين ختمة ، ختمة فى بياض النهار وختمة فى سواد الليل ، ولطالما ذاعت فى الناس أحاديث تقواه، فقيل كان يقرأ القرآن فى ركعة واحدة أو ركعتين فى الليل ، وقيل إنه كان يصلى العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاماً .

سئل عنه جار له شيعى فقال: « لا يمنعنى خلافى إياه أن أقول فيه الحق، إنه لجارى منذ أربعين سنة ما بينى وبينه إلا حائط، ما كان يصبح كل ليلة إلا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كثير » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمى الوتد . . روى مسعر بن كدام أنه أتاه فى مسجده ستة أشهر ، فما رآه صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة .

كان إذا أراد أن يصلى من الليل تزين حتى يسرح لحيته، مؤثراً أن يسجد لله وهو فى زينته ، ولو كان مستخفياً فى الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه فى بعض الأحايين إذ ينزع لباسه الذى يكون عليه والناس نيام ، ثم يتعطر ويقوم إلى الصلاة ، فقيل له إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطاناً أو اجتمعوا فى مجمع عظيم فقال: التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسمائة درهم ، أو ألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السخاء إذ هو لم يعلمه من الكتاب إلا فاتحة الكتاب فقال له : « لا تستحقر ما علمت ولدى . لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن » .

* * *

كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته يسهر الليل نشوان بذكر الله وفى جوار داره إسكاف يحيي الليل منتشياً بلذاذات الشراب ، يعمل طول النهار حتى إذا جن الليل حمل لحماً فطبخه أو سمكة فشواها ، فإذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه، بشعر الشاعر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليـوم كريهة وسـداد ثغر
كأنى لـم أكـن فيهم وسيطا ... ولم تك نسـبتى فى آل عمرو
أجـ ـر فى المجامع كـل يـوم ... فيـا لله مظلمـتى وصـبرى

وذات مساء فقد الجار المتعبد جاره المعربد وقيل له إن العسس اقتادوه إلى السجن منذ ليال ، فصلى الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد إلى دار الأمير — عيسى بن موسى — يسأله المغفرة للجار اللصق . فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة إلى ذلك اليوم . وقفل الرجلان راجعين ، هو إلى داره والإسكاف إلى جواره . قال لصاحبه وهو يحاوره : يا فتى : هل أضعناك ؟ فأجاب قائلا : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً .

كان ذلك الصنيع لفتة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلقة حتى صار فقيهاً من فقهاء الكوفة .

فلا تتساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة فى طلب العفو عن سكير . فالجواب فى السؤال : أنه رجل الفقه الذى لا يتحرك فى قوالب من الجبس ، أو فى مقامع من حديد، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحى الذى لا يضيع جاره، فهدى نفساً كانت ترتع فى الفساد . وحسبك هذه النهاية لتحتفل بها عن البداية.

وقديماً صنع مثله سعد بن أبى وقاص فاتح العراق فى صقع قريب من أصقاع العراق يوم القادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابى الخمر فحبسه سعد وجىء به ليقام عليه الحد . . فلما التقى الجمعان ناحت نفسه كنواح الحمائم :

كفى حزناً أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا

فقال لامرأة سعد أطلقينى ولك — والله — إن سلمنى الله أن أرجع حتى أضع رجلى فى القيد. فقبلت السيدة عهده وحلت قيده . فوثب على البلقاء، فرس الأمير، وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر الجيش ، وخلب لب القائد ، حتى خالوه ملكاً من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه . فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة بإسلامه نفسه فى سبيل الله. .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير : « كنت أشربها إذ يقام على الحد وأطهر منها فأما إذ بهرجتنى — أهدرتنى بإسقاط الحد — فوالله لا أشربها أبداً » .

كان أبو حنيفة إذا جمع المال تسابقت كفاه فى تفريقه .. ذلك تلميذ يسد خلته، وتلك امرأة ذات خصاصة، وهذا فقيه فى أسوأ حال . إن مال أبى حنيفة

إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال ، وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوباً جديداً فليكس بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء ..

أصابت رجلا من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها ، أن أجدب الفناء وصفر الإناء فمس كبده من ذلك كبد . وخرج على عزم السؤال . وقصد إلى مجلس أبي حنيفة حيث جلس ملياً تقيمه الحاجة ويقعده الحياء . ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما أخفى ، وعاد إلى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ فى وجهه أشياء تجرى دلائلها بين قسماته ، فاتبعه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة فى كمه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال : « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هو لك » . ورجع مسرعاً لئلا يرى ذل الأخذ فى وجهه ، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدتها خشية أن تكون صدقة ذمى — فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس فى تلك الأيام بالأعطيات — ولكن زوجته أهابت به « حل عقدتها لعل الله يحل عقدتنا » .. فلما حلها قرأ كلمة أبي حنيفة : « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال فليفرغ بالك . . »

وحبس إبراهيم بن عيينة — أخو سفيان بن عيينة المحدث — على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتتاباً . فلما صاروا إلى أبي حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاء رجل فقال إن على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر عنى ، ويؤخرنى بها فكلم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال : هى له أبرأته منها ، قال الذى عليه الدين ، لا حاجة لى فيها . قال أبو حنيفة : « ليست الحاجة لك ، وإنما الحاجة لى قضيت » .

تلك صدقات ونفحات فى المناسبات . لكن العطاء كان يجرى جريان الزمان فى كل الأيام ، إذ يأمر ولده حماداً بأن يشترى فى كل يوم بعشرة دراهم خبزاً يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف إلى بابه ، وكان يجرى على الكثير من أصحابه جراية فى كل شهر عدا ما كان يواسيهم به فى عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للمعوزين . لا يخاف

عيلة، ولا يستبقى لداره ولا لأهله إلا قدر نفقتهم، والباقى كله طعام البائس والمعتر .. وفى ذلك يقول : «ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلا أخرجته وإنما أمسكها لقول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فادونها نفقة ، ولولا أنى أخاف أن ألجأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً » .

وسترى كيف كان ثراؤه عريضاً لترى كيف كان سخاؤه عجيباً ، بل لترى كيف كان إدباره عن الدنيا مصدراً للقوة فى ذاته وأثراً لها فى نفس الوقت ، كالقوى تولد القوى فتتولد منها: وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم فى حياته وبعد مماته فبلغ فى الدنيا وفى الآخرة ما شاء بل ما شاءت له السماء .

ثم إنك لترى الأريحية كلها إذ يهدى إليه : أهدى إليه منديل قيمته ثلاثة دراهم فعوض المهدى قطعة خز قيمتها خمسون درهماً . وجاءته هدية من الفاكهة فبعث إلى المهدى متاعاً مرتفعاً كثير القيمة .

وأهدى إليه يوماً ألف نعل ففرقها على إخوانه، وروئى بعد ذلك بيومين يشترى لولده نعلا . . . فلما سئل فى ذلك قال : « إن مذهبى فى الهدايا تقويمها بالغة ما بلغت . والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفيها، وتفريق الهدية بين إخوانى . لما قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إذا أهدى إلى الرجل فجلساؤه شركاؤه ، وإخوانى جلسائى فلاأحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبى لهم » . . . وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى:(خُذ العَفْو وأمُر بالْعُرْف) ، ولما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويجيب الدعوة . وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى : (وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فَحَيوا بأحْسَن منْها) ،ولقوله تعالى : (ولا تَنْسَوُا الفَضْل بَيْنكم) .

وأهدى إليه مرة فكافأ المهدى بأضعاف ما أهدى إليه . قال الرجل : لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت إليك . قال : « لا تقل هذا فإن الفضل للسابق ، ألم تسمع إلى ما حدثنى به الهيثم عن أبى صالح يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال: من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فأثنوا عليه . . » .

بلى . . فليسعد النطق إن لم تسعد الحال . . !

رأى على أحد جلسائه سنجابًا فلما هم بالخروج قال له : ناولنى هذا السنجاب فتناوله وقال: ما أطرفه . وطلب من صاحبه بيعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب . لكن الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب : سبحان الله أبيعه لك ! هو لك هبة منى وتذكرة . قال الأستاذ إن بعته منى بقيمته وإلا فلا حاجة لى فى الهبة ، فإن بعته منى بقيمته كان أعجب إلى وأفعل. ذلك لأنى محتاج إليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدراً بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل إلى الظفر بجملة هذه الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم و بالصبر . كان فى المسجد فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه ، وقام إلى داره، فتبعه الرجل يشتم ويصيح حتى إذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلا : « هذه دارى أريد الدخول فإن كنت تستتم باقى كلامك فأتمه حتى لا يبقى شيء مما عندك حتى لا تخاف الفوت » فاستحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى حل . قال : أنت فى حل .

وقديمًا كان فتى مهين يسلق بركليس بألسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم فى عمله لا يلقى إليه بالا حتى أوت الشمس إلى الغروب فسار إلى منزله، والفتى على أثره يردد سبابه، فلما دخل بركليس بعث خادمًا يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته إلى داره .

وهذه أمه يبجلها و يدللها ،كانت كبعض الأمهات و بعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه ! لا تثق بالفتيا إلا إذا جاءتها واردة من الخارج . . !

حلفت يمينًا واستفتته فأفتاها، فلم ترض عما أفتى فتاها ، وأبت إلا أن يفتيها زرعة القاص « الواعظ » . فلم يضق ذرعًا ، وحملها إلى دار زرعة ، وهنالك قال لها صاحب الدار : أأفتيك ومعك فقيه الكوفة .. ! ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا .

وأسر أبو حنيفة لزرعة أفتها بكذا ، فأفتاها .

بل كان يحملها إلى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد الشقة « ثلاثة أميال » ليصليا التراويح خلفه وليستمعوا إلى وعظ هذا الزاهد الجليل . وليدعوا الله كما يدعوه «أتعذبنا يارب وفى جوفنا التوحيد.!لا أراك تفعل» وهو دعاء يوائم قاعدة أبى حنيفة فى الإيمان كما سترى بعد . فأى رقة تفيض من هذا القلب الكبير.! وأى دار كتلك الدار تشيع فى أجوائها الزهادة والتبتل والإيمان . وأى ذوق كذلك الذى يتلمس على هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود .

ولما أوجعته السياط وهو فى قمة المجد ، معنى بالنكال الذى يصبه عليه ملوك الأرض ، لم يكد يفتح فاه بالكلام إلى جاره إلا ليقول عن أمه : « والله ما أوجعتنى السياط قدر ما آلمتنى دموعها » وقالت له أمه : ما خير علم يضيعك هذا الضياع .

قال: يا أماه إنهم يريدوننى على الدنيا ، وإنى أريد الآخرة، وإنى أختار عذابهم على عذاب الله .

قال نابغة الأدب الدينى فى فرنسا « بوسويه » فى رثاء عبقرى الفن الحربى «كونديه » : « ألا بعداً لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم ! إنهم قد يستحقون احترامنا وإعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست معهم . . . » ؛

* * *

فى أى سلك من الرجال يسلك هذا السيد الرفيع الطراز ؟ لو كان فى الإسلام أرستقراطيات وطبقات لكان مكانه فى الذروة العليا من الطبقة العليا خلقاً وخُلقاً ، سمتاً ونطقاً . صلة بالناس وصلة بالله .

كل أولئك ثم هذا نسبه العلمى الذى يسمو به إلى السابقين من أصحاب النبى . ففيم إذن أجهد الأشياع والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسباً غير أنساب الموالى ، ويزيفوا له من مسميات الغرور أنه سليل الملوك ، وأن اسمه أو معناه ورد فى التوراة ، وأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بشر بقدومه ؟

إنما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسلمون سواسية كأسنان المشط وكالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وهم سواء فى الحج وفى الصلاة وفى الزكاة ، وفى الجنايات ، عين بعين وسن بسن ، والجروح قصاص .

سوى النبى بين نفسه وبين مولاه زيد ، وأمر أسامة بن زيد على الجيش وهو

حدث، وفى الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص وغيرهم . فلما بويع لأبى بكر قبل مسير الجيش كلم أبو بكر خليفة اليوم أسامة فى عمر خليفة الغد، ليأذن له فى التخلف ففعل. وظل عمر يناديه كلما لقيه : السلام عليك أيها الأمير. ويقول: « إنى لا أدعوك إلا به لأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وأنت علىّ أمير» .

ولما شرع عمر يستخلف قال : لو كان سالم مولى حذيفة حيًّا لوليته .

فى تلك الأمة التى لا تعرف شريفًا ومشروفًا نهض الموالى بأفدح الأعباء فى الحرب والسياسة وفى العلم والفقه .

فى عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة، وظل عكرمة رقيقًا حتى مات ابن عباس فباعه ولده علىّ بأربعة آلاف دينار . فقال لعلى : « بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار » ! فاستقال علىّ من بيعه وأعتقه !

وكان عبد الله بن عمر كثيراً ما يذكر ومعه مولاه نافع، وأنس بن مالك لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاه ابن سيرين ، وأبو هريرة لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز !

بل كانت دولة الفقه للموالى فى بعض الأمصار، كالبصرة حيث كان على رأسهم الحسن البصرى ، وفى مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالى .

وفى سوق الفخار هذه علا صوت السودان، فتولى الفتيا بمصر يزيد بن أبى حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقلة ، وهو الذى تعلم عليه إمام مصر العظيم الليث بن سعد .

ثم من هم الموالى؟ الموالى هم القوم المنتسبون إلى بيوت العرب بعقد ولاء ، ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا فى الأغلب الأعم من أهل البلاد المفتوحة كمصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن يتملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحراراً ، وجرت كلمة الموالى فى إطلاقها على أن تشمل من ليسوا عربًا من أهل هذه البلدان ، لأنهم كانوا يسلمون على أيدى المسلمين ، فمن أسلم على يد

مسلم كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا مواليهم . ولم يك بدعاً أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة : فيقال إن الفقه بعد موت العبادلة الأربعة — أبناء عباس وعمر وعمرو والزبير — قد انتقل إلى الموالى ، إذ كان الموالى أهل حضارة رفيعة لم يمسخها الغزو ، لأنه لم يك غزواً بربرياً ، وإنما كان غزواً فكرياً ، فتح الله به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المفتوحة ، فأنزل رحمته عليهم فى شريعته إليهم. وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الإيمان غدت من بعد تياراً من التفتح الذهنى أخرج للأمة ما أخرجت من الآيات: وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه فى الواقع هو الدين نفسه ، أو القدر الأوفى من الدين: وتلاقى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، فمنح العرب الشعوب المغزوة دينهم قيماً ، ولغتهم فصحى ، وقدم الموالى من جانبهم أسباب حضارات فاخرة ، وأصول تفكير عميقة : واشتاع الشريكان أبد الدهر ، فازدوجا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الإسلامية على الإنتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعاً قوية جديدة الطراز .

* * *

وإذا كان ثمة وقائع تشير إلى النفرة بين العرب والموالى فقد صارت حديثاً فى التاريخ بعد أن توج الازدواج بالاندماج .

سأل هشام بن عبد الملك جليسه فى فاتحة القرن الثانى : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟

قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .

قال : فمن فقيه أهل مكة ؟ قال : « عطاء بن أبى رباح » .

قال : مولى أم عربى : قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قال : « طاوس بن كيسان » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال : « يحيى بن أبى كثير » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قال : « مكحول » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال : « ميمون بن مهران » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال : « الضحاك بن مزاحم » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال : « الحسن وابن سيرين » .
قال : موليان أم عربيان ؟ قال : موليان !
قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال : « إبراهيم النخعى » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : لا بل عربى !
قال : كادت نفسى تخرج ولا تقول واحد عربى !

قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه ، لكن الخليفة الذى كان فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الإسلام قال غيره . . فلما سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالى صاح فيهم : (ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لا تسمون ؟) .

والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله : « لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب (إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ) » .

وقف رجلان مولى وعربى على مجلس لبنى العنبر . والعربى على حمار والمولى على ناقة ، وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا يكتب . فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا إلى العربى ، فقبض يده عنهم وقال : لا ولا كرامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمولى قبل العربى فاسكتوا ، فانبرى واحد منهم فقال له : بدأنا بالكاتب قبل الأمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار .

هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذى ينظر به الإسلام إلى عنصرى كيانه قد أنطق الله به فتى بنى العنبر .

كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمد الدولة العباسية حتى استقرت بها الأسباب . والأولى ترجموا ، وألفوا ، ولقحوا الحضارة العربية بلقاح الفرس ، واليونان ، والنبطيين والكلدانيين ، والآشوريين ، والبابليين ، والروم ، والهنود ، وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة إسلامية جامعة .

وفى العهد العباسى كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالى . كان عمارة بن حمزة بعيد الصوت فى بلاط المهدى ، فدخل عليه يوماً فأعظمه فقال رجال من القرشيين : من هذا الذى أعظمته الإعظام كله . قال عمارة بن حمزة مولاى . فسمعها عمارة فرجع يقول : يا أمير المؤمنين جعلتنى كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى ؟

وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك : كافور — الأسود الزنجى كما يقول المتنبى — وأبو المسك — كما يناديه أيضاً — كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبى كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان : هذان الموليان اللذان يقصر دون مجدهما كل مجد السادة ، هما اللذان منحا الإنسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفى التاريخ قديمه وحديثه . ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها زين أعلام التاريخ الإسلامى وحروف هجاء فى آيات فخاره .

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبى حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذى سعدت به الدنيا فوضعهم فى التاريخ حيث يوضع .

فلا تسل إذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما فخار ولدهما إذ يقال إنهما موليان ، وفتاهما فخار هذه الأمة الإسلامية على الزمان ، بل قل لثابت ولزوطى ولكل من حاول أن يغض من نسبهما مقاله المتنبى لجدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد   فإن أباك الضخم كونك لى أما

* * *

إن هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب . ولئن ساغ ذلك النبوغ فى السياسة أو فى القيادة أو فى الفن ، فإنه فى الفقه ، وللوهلة الأولى ، يستوقف النظر ، وبخاصة فى فجر الإسلام . فى الفقه نصوص القرآن والأحاديث والسنن . فكيف تتمثل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية فى سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبز الخلص من بنيها !

هؤلاء الموالى الذين أسلفنا المقالة فيهم . وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته

يقولون نحن من الفرس من أصبهان ، والطبرى من آمل بطبرستان ، وابن جريج رومى المنبت ، وربيعة الرأى فارسى الأصل ، والشعبى علامة التابعين كانت أمه من سبى جلولاء ، والحسن البصرى كان أبوه من سبى ميسان ، ولو عمدنا إلى الحصر لشمل الكثرة الغالبة من أئمة الفقه والعلم ، ولكنا نقتصر على بعض الأمثال . بل ان اللغة نفسها قد سعدت بالموالى مثلما سعدت بأربابها ، هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه : « ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » كان من الموالى ، وهذا سيبويه يضع قواعد النحو ! والكسائى وارث علماء البصرة ، وتلميذه الفراء كان ديلمياً كمهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والفارابى كانوا موالى أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع سيد النقلة إلى العربية . . وهو أول من أشار بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية إلى اليوم أمنية رجل القانون .

نزل الوحى فى شبه الجزيرة كالغيث ، وسال من قممها إلى الوديان الإسلامية طراً حيث قر قراره ، واحتمل السيل فى فيضانه تلك المدنية الرابية لا تقفها الحدود ولا السدود ، فشرقت فغمرت بطاح آسيا ، وغربت لتصب فى المحيط الأطلسى . بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتملت فيه نهضة الفقه بالكوفة ، ثم تلقى اللواء فى مصر جامع عمرو ، والأزهر الأغر ، فأبقى الجامع العظيم على حضارة الإسلام ألف عام ليؤديها إلينا فى القرن الرابع عشر وإلى كل القرون .

إن هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور ، فخلبت لبه قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والأخلاق العامة والزكاة ، والصلة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوى العام إلى جوار بيت الله الحرام ، والمؤتمر الأسبوعى الخاص فى يوم الجمعة فى كل مكان ، وحرمات البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما إليه من خصائص الإسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر إيمانه ، وكلما تغلغل فيه اختلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجباً .

بهذا تمثلت الشريعة الإسلامية الملل والنحل الشتى فصارت أمة واحدة هى الإسلام ، لا فضل فيها لعربى على أعجمى ، وإنما الفضل بالتقوى .

ولئن كانت النعرة العربية قد استبدت بهشام بن عبد الملك ، فإنما هى جاهلية ذمها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان بر تقى كريم على الله ، وفاسق شقى هين على الله ، والناس بنو آدم .. » ولقد فات أمير المؤمنين أن المؤمنين موال وعرب ، وأن الإسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها . وأن نبوغ النوابغ من أفنان الدولة إنما هو أفخر التحايا للدين الجديد فى مطلع سعده وفاتحة عهده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شيء ، ولم تكد تبقى للناس من دونها شيئاً .

فاته أنها أخرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحسبها هو . . . ولو أنه ليس لها وإنما هو للدنيا جميعاً . .

لقد اعتز الإسلام بأهل البلاد المفتوحة ، وتألقت فى سماواته حضارة دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز الثقل كان دائماً فى وسط الجزيرة . وحيثما كان المسلمون ولوا وجوههم شطره ، مبتهلين إلى صاحب البيت العتيق بمكة ، مصلين على صاحب القبر الشريف بالمدينة .

الباب الثانى

التاجر

« لا تشاور من ليس فى بيته دقيق فإنه موله العقل »

الشافعى



كان أبو حنيفة خزازاً يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف ، وقديماً كان نبي الله إدريس أول من خاط الثياب ، وكان الصديق أبو بكر بزازاً وكثيرون من جلة الصحابة كانوا تجاراً .

ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل فى التجارة ويقول : « أريد الثراء ولكنى لا أريده من الظلم » ، ويبيع الزيت فى مصر ليسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبي حنيفة بألف عام كان اسپنوزا يصنع العدسات .

كان أبو حنيفة تاجراً صناعته الفكر ، ومفكراً يعمل فى التجارة ، ومن ثم كان توفيقه التجارى ، الذى انحدرت إلينا أنباؤه مع التاريخ . ومرده قطعاً إلى دراية ذات شعب ،وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر الحديث يسمو عن الإعلان ، وهى ذرائع تكفى إحداها للنجاح ، فكيف إذا اجتمعت لدى رجل كله لباقة وأناقة ، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم ، وقدرلهم مع ذلك أن يجدوا فى الأرض مراغماً وسعة تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الأغنياء ، مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم فى معترك الحياة بالخروج إلى السوق العام ، فى صميم الميدان ، أو فى عرض الخضم ، بالكدح والدأب واللغوب .

بهذا حل أبو حنيفة العقدة التى يقف بإزائها المفكرون حزنى مبلسين ، عقدة الفقر الذى عود الناس أن يلازم الفكر ، والمفكر الذى يرتحل رحلة الحياة الدنيا جوعان تعساً نهدر المسغبة مزاياه : يقدح فكره ألمعية ولوذعية ، ولكنه لا يستطيع أن يحيل هذه القيم الهائلة إلى ثمن بخس ، دراهم معدودة ! ويتراءى له بريق النعماء ويعجز عن الدنو منه والدلف إليه فتتحالف عليه مركبات النقص ، وتضيق به المسالك المتنادحة ، فينوء بالحياة مثلما ناءت به الحياة .. ويخرج منها محروماً مقتراً عليه فى الرزق .

فى حالتنا كان فقيه الكوفة من أكبر تجار الكوفة ، فلم يك ممن يجلسون إلى الأرض ويرفعون أكف الضراعة إلى السماء ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، أو يمدونها إلى الأمراء فإن مال الأمير ثمن لنفس العالم ، أو يرقبون أن تنهض

حظوظهم العواثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ فى حلبة من الحلبات ليروا مبلغ ما تكبو ، أو تصلى ، أو تجلى .

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم إبراهيم بن الأغلب بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فمنّ ابن الأغلب عليهم بعطائه فقال أسد : « لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقى . . . » ولم يكن أسد ليقولها إلا وهو القاضى العامل فى القيروان ، والفاتح الغازى الذى مات على رأس الجيش فى حصاره لسراقوسة بصقلية سنة ٢١٣ .

عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله ، وكلما أغناه الخالق عن الخلق أدناه إلى الحق . . وإذا لم يكن الفقه أداة للطعام تداول الدنيا كلها بين أنامله .

وأدرك الشافعى ذلك من بعده بنصف قرن فقال : « لا تشاور من ليس فى بيته دقيق فإنه مولهُ العقل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه إلى البأساء والضراء بأمراس كتان من الرهبنة المضيعة ، والتبتل المؤذى ، فى حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وفى أمة يقول رسولها إن أفضل الكسب «بيع مبرور وعمل الرجل بيده» ، و « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

و « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد — إمام مصر — ذا ثراء عريض يضع الدنانير فى الفالوذج فمن أكل من صحبه أكثر نالته دنانير أكثر . . ! وكان صاحباً لمالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وكان مالك يقول عنه : « حدثنى من أرضى به من أهل العلم » ، ومع ذلك كتب إليه فى تثريب يقول : « بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشى فى الأسواق » :

وأدركت ضفاف النيل لذع الضربة الموجهة إليها من شمس الصحراء ، فاستحان الليث عليها بالله ، يدفع عن نفسه مذمة لبس الرقائق أو أكل الرقاق ، فكتب إليه

يقول : « قال تعالى : (قُلْ مَنْ حرَّم زِينةَ اللهِ الَّتى أخرَجَ لعبادِهِ والطيِّبَاتِ منَ الرزْق) » .

وعاش الليث فى جاهه وماله كأصحاب التيجان فلم يمنع ذلك أن يقول عنه الشافعى إنه « أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به » .

كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكان العراق أثمن جوهرة فى التاج ، فيه ست كور ، أولاها كورة الكوفة ، وكان له شأن أى شأن ، فيه النهران يجريان ، بالرخاء والعمران ، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس وحضارة الروم ، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضارة الدين الجديد ، كما تلاقى رجال الدين من كل رأى يجاهدون فى سبيل العلويين ، وفى سبيل الأمويين ، وفى سبيل ابن الزبير ، وفى سبيل بنى العباس ، وفى سبيل الأمة ، أو فى سبيل أنفسهم ، فأى جيشان بعناصر الحياة ، ولوازع النماء ، وأسباب القوة ، كانت تجيشه هذه الكورة ، وأى مضطرب للفتى المثقف والتاجر الحصيف ثمة ! وبخاصة إذا كان يبتغى النجاح بمعناه الإنسانى لا المالى ، وبمعناه الذى أراده الله لا معناه الذى يحصى ويعد بمقدار ما ينتج من النقد ، بل همه وكبر مناه أن يسلف لنفسه عند خالقه قدم صدق بما قدمت يداه .

بدأ أبو حنيفة حياته فى التجارة يطبعه الطابع العلمى ، فدخل السوق يدرس على أستاذ يعلمه التجارة سماه للإمام الشعبى يوم وجهه للدرس الفقهى كما مر بنا ، وهى ظاهرة تتراءى لك فى حياة أبى حنيفة فى غير موضع . مردها إلى ما فيه مزاج جامع بين العلم والعمل ، فيتذرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملى محض ، حتى إذا كان فى ريعان حياته قدم إليه رجل تاجر فقال له : « أراك تتجر ، التجارة إذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب » ولئن كان ما عناه هو العلم العام ، إن الطابع العلمى يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناه هو الفقه ، ولعل الفائدة التى يفيدها التاجر بالعلم العام خير وأبقى فى العمل التجارى .

وهكذا دخل إلى السوق مدخلا كريمًا فأضحى فيه من المجددين والمجدودين ، اختار لدكانه مكانًا من أبرز أمكنة الكوفة فى دار ليست هينة على التاريخ ، هى

دار عمرو بن حريث – الصحابى – يلتقى بها المؤرخ حيث يجد الجد فى حياة العراق، وحيث يكون للأماكن شأن .

ففى سنة ٨٢ سار ابن الأشعث من البصرة إلى الكوفة لقتال الحجاج ، وثار الكوفيون بواليهم ، ومالوا إلى ابن الأشعث وسبقت إليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث ، وفى سنة ١٢١ خرج زيد بن على وخرج أهل الكوفة معه فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث ، فهى لا مرية كانت من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفاتحون وتدور أرحاء المعارك . . وحيث سوق الحرير .

وإنك لتتصور مظاهر الذوق فى ترتيب دكانه مما كان عليه فى خاصة شأنه حسن هيئة ، وبزة ، وتفكير وتعبير ، بل إنك لتكاد بعد هذه القرون والمسافات تتنسم العطر يتأرج من أردانه وزوايا دكانه ، وتتصور النساء إذ أقبلن أو أدبرن ، بائعات أو مشتريات ، يغضضن من أبصارهن ولا يبدين زينتهن . يدلفن إلى الدكان كأنما يفدن إلى الدرس ، ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كن فى الدكان فى المحراب .

كان صاحب هذا الدكان يقول : « من وصف خف امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلا » ، ويقول : « إذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد» ، وكان رحمه الله إذا مشى فى الطريق ، لا يعرف الرجل من المرأة . قال فى وصية لأحد مريديه : « .. وإذا مشيت فى الطريق فلا تلتفت يمنة ويسرة بل داوم النظر إلى الأرض .. ولا تماكس بالحبات والدوانيق .. » فياله من رجل رفيع وتاجر رفيع .. يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه فلا يبخسها بإنفاقها فى المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحبات والدوانيق أم بغير الحبات والدوانيق .

جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوبا وتوسلت إليه بسنها أن يرفق بها ..

قال : دونك هذا الثوب يا أماه . .

قالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لا تسخر منى وأنا عجوز لا حيلة لى .. !

قال : إنه لكذلك . لقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله إلا أربعة دراهم . وهذه الدراهم الباقية ما أطلبه منك ثمنًا للثوب الباقى . .

أضف إلى هذه الصورة وإلى آداب التجارة، أن الحانوت ليس محلا للمدارسة، وإن تولى التلاميذ البيع فيه بين الفينة والفينة، وهكذا بقيت دار ابن حريث خالصة للتجارة . أما العلم فبقى دائمًا فى مكانه . لا فى السوق ، ولا فى الطريق .

فى ذلك الحانوت يجلس سيد مكيث غير عجل ، مخبور التجارب ، يتقبل الناس بقبول حسن ، وضاء المحيا ، منبسط الطبع ، ميمون النقيبة ، ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس ، لا يمايل ، ولا يتحيف ، ولا يستكبر ، ولا يستنكف . يقصده فظ القلب فيألفه ، ويمر به الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة ، فإذا قام سأل عنه فإن كانت به فاقة وصله، وإن كان به مرض عاده ، حتى يجره إلى مواصلته .

أما صدق المعاملة والنفرة من المماكسة ، فكانتا كلمة السر فى دكانه ، لكأنما كانت كل ألواح «الثمن محدد» مرسومة فى مخيلة حرفائه وعملائه قبل أن تشد إلى جدر الدار ، فلئن كان صاحب الدكان أستاذ الأساتيذ فى الجدال ، إن لكل مقام مقالا . . وليس هنا مقام الجدال .

وهو لا يهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الإنسان ، بل إنه ليقطع أبعد الأشواط فى مضمار النصفة ، فلا إعلان ، ولا شبهة إعلان ، لما قد يكون فى الإعلان من إيهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس فى ذلك العصر حديثى عهد برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تأسرهم الكلمة إذا سيقت ولو فى السوق ، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفى دكانه .

طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد أخرج ثوبًا ، فأخرج حماد ثوبًا ونشره قائلا : صلى الله على محمد . . !

قال أبوه : مه قد مدحته . .

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشترى فى السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد إلى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة إلى الثوب ، وأظهر ما يكون استعداداً لدفع الثمن ، ولكن الشيخ فى غير مخاشنة ولا مشاقة ، بل فى سماح وإسجاح ، رفض أن يبيع .

وعاد المشترى أدراجه .

وفى ذلك الحانوت بضاعة لا تعرضها الحوانيت الأخرى فى سوق الخزازين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة إلى الكوفة ليشترى لبنته جهازاً ، فينبهه الناس على الجهاز فى دكان « الفقيه الخزاز » . وإن الذين يعرفونه ليحذرون الذين لا يعرفونه من المماكسة ، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

وإذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشترياً فقبض منه ألف درهم واف ، وباهى التلميذ بين يدى أستاذه بما صنع رد الأستاذ مازاد على الثمن ، بعد إذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها .

وكما كان التفكير أداته فى الفقه ، كان الفكر أداته فى التجارة . كان الثمن فى دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف إليه نفقات الشراء والبيع مقيسة بمقياس العدل والعقل ، فكما كان القياس الأعظم فى تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان القياس المنصف فى ثياب الخز فى دار ابن حريث .

حقاً ، إنك لا تستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجارى قد جاءه عن الفقه أو أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده ، لكن ثمة قدراً متيقناً تستطيع أن تقرره بين الجوابين . هو أن الصدق والحزامة فى التجارة قد هيأ له من النجاح أسباباً مواتية للتفرغ لدين الله ، فى روحانية المتعبد ، يستقبل تلك اللمحات التى يبعثها الإلهام فى الكون كومضات النور ، والسعيد السعيد من رآها ، وكانت ملكاته متحفزة تتلقاها . كما تستطيع أن تقرر أن التجارة ربطت بين دنيا الفقه ودنيا الناس فى أفكاره ، فغدا فقهه فقه الحياة التى نحياها : ورحم قلبه ضعف الإنسان ، وكان التسامح كبرى قواعده ، وتحمل مسئولية المخاطرة ، فصدع بالرأى فى مزاج موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمنقول ، وامتد بصره فشمل المستقبل ووضع

لاحتمالاته ما يحكمها من الأصول متحرزاً — كما قال — من البلاء قبل نزول البلاء .

وكما أثرت فى الفقه التجارة ، أحدث الفقه فى التجارة آثاره . فلئن كانت فى الفقه العصرى مقولات مسلمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصح معها العقد وإن كانت تستزريها قواعد الآداب ، إن الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليتمم مكارم الأخلاق .

بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه فى التجارة وأعلمه أن فى ثوب منه عيباً فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واسترق ثمناً كاملا لثوب غير كامل — وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفاً أو خمسة وثلاثين ألفاً — فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشترى ، ولكنه لم يهتد إلى الرجل ، فأبى أبو حنيفة إلا فصالا من شريكه وتتاركا .

بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله وتصدق به كاملا .

ذلك مثله لإنصاف المشترى من نفسه ، وهذا مثله إذ ينصف من نفسه البائع . جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم ؟ قال بكذا . قال إنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف ! ! بل جاءته امرأة بثوب خز تبيعه بمائة . فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة ، مائة ، حتى قالت أربعمائة . قال هو خير من ذلك ، قالت تهزأ بى ؟ قال هاتى رجلا . فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم .

وصدقت المرأة أنه لم يتخذها سخريا ، وصدقت كذلك أنه لم يك يريد الإحسان إليها . . وإنما نفع الله به البائع والمشترى .

فهو ينصف المشترى منه ، والبائع له ، وينصف من لا يبيع له ولا يشترى منه . كل أولئك ونظائره فى لين وخفض جناح ، وسلاسة طبع وسلامة أسلوب ، فإذا راح يقتضى دينه من مدينه لم يجلس فى ظل جداره !! قالوا إنه لا يريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن يفىء إلى ظلاله إذ يجىء إلى داره ، وهو الورع الحق ، لكنه قبل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تضيف إلى عسر المدين إلحاح

الدائن ، إذ يترصده .. فلا يجزى المطال بالاحتلال وإن كان الاحتلال مجرد فىء إلى الظلال .

ترى هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزاز بمكة الذى وصفوه بأنه كان رجلا وسيماً : « . . . وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته . . . » !

ذلك أبو بكر الصديق ، وهذا أبو حنيفة ، وقد كان بينهما تواصل ذهنى يتراءى خلال ذلك التشابه : فى العمل وفى الطباع ، حتى إن أبا حنيفة كان يأخذ بأبى بكر وأفعاله وخصاله .

وذات يوم بعث إلى فتية يقول لهم : إن أباكم أودع عندى مائة وسبعين ألفاً فخذوها . . ! ولم يشهد عليهم فإنه لم يكن أشهد عليه ، وهو لا يريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال .

فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفاً ردت لذويها .

وازدهرت تجارة أبى حنيفة أيما ازدهار ، إن هذا الإنفاق الضخم لمحاربة الفقر ونشر العلم كما سترى بعد ، وهذا التصدق بعشرات الآلاف ، أو التجاوز عنها ، لا تسمح به إلا البيوت المالية الوطيدة الأركان والناجحة كل النجاح ، حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل إن بعض أعداء أبى حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبى حنيفة استعملت فى تقوية إبراهيم بن عبد الله (ابن الحسن بن الحسن ابن على) إذ خرج على أبى جعفر و إنه لهذا حبس أبا حنيفة .

إلى هذا القدر بلغت هذه الأموال .. أن تساعد فى إدالة دولة و إقامة دولة . . . !

بهذه القواعد التى بسطنا بعضها كانت دار ابن حريث تضرب الأمثال كريمة للناس .

إنك لا تستطيع أن تقنع الناس بالرأى ولا بالعلم ، فالدنيا مدرسة مكبرة ، والحقائق لا تفهم مصورة ، ولا مجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق . والناس فى الدنيا كالتلاميذ فى المدارس لن يفهموا شيئاً إلا إذا صنعوه بأنفسهم ، أو صنع على أعينهم بالرفق وحسن الأداء — والكلام لا يهدى قدر ما يهدى العمل ،

وما تهدى القدوة : والقدوة فى العلم هى أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد أو تصبه من قوالب :

أذن النبي لصحبه وهم على سفر فى الإفطار شهر رمضان وبقى هو صائماً : فلم يقطعوا صومهم حتى عمد إلى الفطر ، فخفوا إلى الاقتداء بفعله وأفطروا . . .

ونظر فتيان من أسباط الرسول عليه السلام — يجرى فى عروقهما دم الهدى والرسالة — إلى أعرابى على شاطئ الفرات يخفف الوضوء فقالا لنفسهما ، لو قلنا له غلطت ربما انتفخت أوداجه ، ولا ينقاد إلى الحق. فقاما إليه ، وقالا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بالوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلى عندك ، فإن كان عندنا قصور فعلمنا ، فتوضآ وصليا كما عرفا عن جدهما عليه الصلاة والسلام . فتاب الشيخ ورجع عن صنيعته .

إن قاعدة الإصلاح فى جيل هى أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث فى إصلاح سواه . فالنفس هى التى تسمح لا الأذن : وفى الناس لحاجة تنبعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم إلى الاستمساك بما هم عليه والاستسلام إليه .

خطب عمر بن الخطاب يوماً وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون ؟ قال سلمان : لا نسمع .

قال عمر : ولم — يا أبا عبد الله ؟

قال : إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً ، وعليك ثوبان .

قال : لا تعجل . ونادى : ياعبد الله ! فلم يجبه أحد . قال : ياعبد الله ابن عمر — ابنه .

قال : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : نشدتك الله ، الثوب الذى ائتزرت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم :

قال : سلمان : أما الآن فقل نسمع .

ذلك سلمان الفارسى أو الناس جميعاً . . ومع الخليفة الذى خطب ،

عندما تولى : ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم إن استغنيت عففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، تقرم البهمة الأعرابية القضم (الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الأكل بأقصى الأضراس) :

وقديماً قيل : خير من الخير فاعله . وشر من الشر فاعله .

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الآراء فقال : « إن الناس أحسنوا القول كلهم : فمن وافق فعله قوله فذلك الذى أصاب حظه ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه » ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام : « إن فى جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء ، فيشرف عليهم من كان يعرفهم فى الدنيا فيقول ما صيركم فى هذا وإنما كنا تتعلم منكم ؟ ! قالوا كنا نأمركم بالأمر ونخالفكم إلى غيره » .

وقال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا » .

من أجل ذلك كان الزعماء العالميون قوماً زاهدين ، وخاض القادة المبرزون معاركهم فى الصفوف الأولى وفى الطليعة : كخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وغاندى فى الشرق ، وكرومويل ، وسالازار وديفاليرا فى الغرب .

ومن ثمة تدرك أثر القدوة فى عمل التاجر الكريم النفس والكريم الفعال .

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفـــة ثلاثين عاماً وكان رجلا صالحاً روى عن شريكه الحديث والفقه . ولا ينبيك عن الشريك مثل الشريك ، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمير التجارى للزميل التاجر ، وما أدراك ما فى الضمير التجارى : المخالب المخضبة تقطر من دم الضحايا ، والمخارج ، والحيل ، والسعار المعذب المندفع نحو كل ما هو مادى ومالى . . . ! إلى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجارة .

فلنستمع إذن لحاصل التقرير الختامى عن الشركة حيث يقول حفص : « جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم ، فلم أر أحداً أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة » .

ولئن سمعت أحاديث الورع فى مجال الورع فمن العجب حقًّا أن يباهى الشريك التاجر بورع الشريك التاجر وبزهده ونسكه وعلمه ، مجتمعة ، كل أنواع الفقهاء والزهاد والنساك مجتمعين .

ولنستمع إليه مرة أخرى يقول بعد أن تتاركا : « فى طول ما صبحت أبا حنيفة وخالطته لم أره يعلن بخلاف ما يسر ، ولم أر أحداً يتوقى مما لا خطر له مثلما كان يتوقاه ، وكان إذا دخلت عليه شبهة من شئ أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله » .

ذلك رجل من أقوى الرجال ، يبطن مثل ما يعلن ، ولا يصنع فى السر إلا ما يصنعه فى الجهر ، فيرى الله أمامه ولا يرى البشر .

ولئن جاء فى الحديث أن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق ، أو كان من أصول فقه أبى حنيفة أن الشك لا يزيل اليقين فإن هذا الأصل للناس وليس له : ولو كلفه ذلك جميع ما له .

إن أبا حنيفة قدوة للناس فى علمه ، فليكن قدوة للناس فى عمله ، وليأخذ نفسه بالشدائد ، حتى إذا نقلوا عن الأصل ، وخف الأثر فى النقل ، وصل إليهم ما نقلوه وفيه كل الفضل .

قال لأبى يوسف : « ولا ترض من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها ، يعتقدون فيك السوء وقلة الرغبة فيها ، ويعتقدون أن علمك لا ينفعك ولا يفيدك إلا ما أفادهم الجهل الذى فيهم . . وكن من الناس على حذر ، وكن لله فى سرك كما أنت له فى علانيتك فلا يصلح أمر العلم إلا بأن تجعل سره كعلانيته » .

ولما نهاه الأمير عن الفتيا فانتهى ، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة فى داره فلم يجبه ، قال يا أبت مالك لا تجيبنى قال : « أخاف أن يسألنى السلطان هل أجبت أحداً فلا أستطيع أن أقول شيئاً » .

ولقد كانت لديه مندوحة فى أن يفتى ، لكن الرجل القدوة لا يرى لنفسه

الرخص ولا المنادح ، وإنما يؤثر فى حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون حرفىّ الوفاء .

على هذه القواعد وأشباهها قام ذلك البيت التجارى فى دار ابن حريث بضع عشرات من السنين ، تكفى للتمكين لتاجر صيّت زكى الأحدوثة نقب فى البلاد ذكره وذكر عروضه من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يحف به الحسن من كل جانب ، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة ، والوجه الصبوح خطاب توصية فيه القبول .

* * *

جاءت تكاليف الإسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين عما يسأل الناس عنه .

كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر ، ويأتى على أهله الليالى ما يجدون فيها عشاء ، ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهى مسندته إلى صدرها ياعائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هى عندى ، قال فأنفقيها ، ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها. فلما أفاق قال هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة ؟ قالت لا والله يا رسول الله . فدعا بها ، فوضعها فى كفة : فعدها فإذا هى ستة دنانير فقال : ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده : فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم .

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يومياً درهمين هما كل المخصصات العمرية ! بهذا استطاع أن يضرب ولاته بالدرة ! ويضرب عامله على البحرين (أبا هريرة) حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله ما بعثناكم لتتجروا فى أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص ، من أين آل إليه المال ويشاطره أمواله :

مر يوماً ببناء يبنى بآجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعامل من عمالك قال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها .. وشاطره ماله ! ولما أخذ يستخلف قالوا له لو أنك عهدت إلى عبد الله — ابنه — فقال : « بحسب أهل الخطاب

أن يحاسب منهم رجل واحد : : ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا على » .

لكن صاحب هذه النفس القوية يرى فى فحمة الحلك أطفالا جياعاً فيحمل إليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم والدخان يخرج من خلال لحيته !!

هذه العمريات التى تذر المفكر فى ذهلة المتحير ، وهذا التوفيق الذى سددت به العناية الإلهية خطى أبى بكر وعلى وأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم فى كل فن وضرب ، وما تبع هؤلاء جميعاً من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم التاريخ الإسلامى ، ليست إلا أصداء متفرقة لصوت واحد ، هو صوت المثل الأعلى من الرسول عليه الصلاة والسلام . ما يزال يدوى خلال القرون حتى يقف هذا الكوكب السيار عن أن يدور : : وإنما يتردد الصدى ذلك التردد البعيد المدى ، فتهتز له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة ، لأن الصوت الأصيل الذى يدوى فى الأرض هابط إليها من السماء : تصيب نفحاته من أحاطوا به ومن لم يحيطوا : فانتقلوا من الجاهلية إلى هدى الإسلام وغدوا حكاماً وحكماء وعلماء ومشرعين وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالا فى الوغى يجدلون الأبطال ، ليس ما أحدثوه إلا آثاراً مما أحدثه الصوت الأول فيهم . فلما صعدت روحه إلى بارئها كانت كوعاء العطر إذا فض فدامه فاض العطر فى كل مكان وانتشر !

ما عمر بن عبد العزيز ، ولا المأمون ، ولا أبو حنيفة ، ولا الشافعى ، ولا ابن سينا ، ولا ابن رشد ، ولا طارق بن زياد وأترابهم فى كل فن من فنون العلم أو السياسة أو الحرب ، إلا رجال تضرم جذوة الإيمان فيهم حرارة الرسالة التى كانت تغمر قلوبهم بالنور .

إنما هى الزعامة الصحيحة الملأى باليقين تخلق الناس خلقاً جديداً وتنعكس على أنفسهم شتى الانعكاسات ، فتحدث الأحداث متقاربة أو متباعدة ، فى العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلا تهم المسافة الزمنية والمكانية ، وإنما

يهم الإيمان الصحيح الذى يخلق القوى العارمة فتتخطى حدود الزمان والمكان .

وسترى بعد كيف كانت حياة أبى حنيفة قدوة للفحول والأبطال .

* * *

كان أبو حنيفة خزازاً ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجاراً وصناعاً .

هذا الإمام الخصاف أحمد بن عمر بن مهير ، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبي أبى حنيفة ، كان الخصاف يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ، ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه فى حين يعيش من خصف النعال . : وهذا الكرابيسى يبيع الكرابيس ، أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فإذا على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملى فى « صناعة الأقفال » ، وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطاً ، والجصاص شيخ زمانه ينتسب إلى العمل فى الجص. ثم هؤلاء الصفار من بيع الأوانى الصفرية (النحاسية) والصيدلانى (من بيع العطور) والحلوانى الذى كان أبوه يبيع الحلوى ، والدقاق ، والصابونى والنعّال ، والبقّال ، والقدورى وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الإسلامية ، أن هذه الأمة حققت العصور الأولى ما جاهد العالم الغربى عشرات القرون لتحقيقه ، ولما يكد يحققه ، أن ليس ثمة مهن رفيعة وأخرى وضيعة ، و إنما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم . ويشهدون . بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأوردت كل الناس سننه ، وبمبلغ ما أعزت الصناعة فجعلت لها سهمها المسلم فى أسمى الذرى ، فترى فيها ما لا تكاد تراه فى أى أمة أخرى الفقهاء الصناع : والصناع الفقهاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معاً ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوباً.

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز ، كان العلماء عنده تلامذة ، كما قال ميمون بن مهران ، وعبد الملك بن مروان الذى قال عنه ابن عمر : إن لمروان ابناً فقيهاً فاسألوه ، والمأمون عبقرى التاريخ الإسلامى ، وعيسى شرف الدين الأيوبى الذى يضع كتاب الرد على الخطيب

البغدادى سنة ٦٢١هـ ينضح به عن إمامه أبى حنيفة .

تلك شريعة أمية تتسع لجمهور الخلق فى كل الأمم وكل الأعصر فهماً وتطبيقاً . يفهمها الأميون ، كما يفهمها الأعلون من الخاصة لأنها (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) قوامها الصفاء والسهولة والصراحة ، فى حلبات البحث مضمار للأفذاذ وللأفراد وللملوك أيضاً . كل ميسر لما خلق له ، فلا غرو أن يرقى إلى الأوج العلى فيها أصحاب الحرف ، وأن يسود فيها الرجل بهمته لا بمهنته ، فى حضارة لحمتها وسداها الإخاء ، يحب المؤمن بها لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه ، والمؤمنون فيها كالجسد الواحد ، «إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

تلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التى نشهدها فى الحضارة الإسلامية تصدر عن أصل عميق يتبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الإسلامى وتاريخ الفقة فى سائر الأمم فهنالك يصدر فقه العبادات من الصوامع والبيع ، وهنا يصدره رجل الدنيا . . وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان . وهنالك بين المعاملات والعبادات خلافات أى خلافات ، فلا يتحدث عن العبادات فقهاء كفقهاء الإسلام يضطربون فى أسواق الحياة ولكن قسيسون ورهبان يستمرئون فى عزلتهم الفاخرة نعمة القداسة ويستنزلون فيوض الإلهام ، أما الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة حقًّا ولكنها لا تعرف الرهبنة ولا الطقوس ولا المراسيم ، وهى إذا كانت جهاداً ضد النفس وضد الكفر فهى أولا وبالذات دين اجتهاد .



الباب الثالث

فى المسجد

« الشعلة من الشرارة »
بوشين


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نحن الآن فى المسجد الجامع ، وإن شئت فقل جامعة الكوفة ، مسجد بنى فى أعلى مكان من المدينة ليسع أربعين ألفاً وبنيت له ظلة تبلغ مائتى ذراع من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة . مال ميزان النهار ، وأخذت الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة ، يدب عقرباها إلى يوم الساعة ، تحدد مواقيت الناس ، فيفدون للصلاة ويتطهرون بالضوء يرحضون أطرافهم ويغسلون وجوههم ، وينتعشون بعد ما عانوا فى سبيل المعاش إذ ينتقلون من الدنيا إلى حضرة الخالق فى ركعات معدودات ، هنالك تسمع زجلا للناس قد ألفوه بعد كل صلاة . إذ يأوون إلى ركن أو يلتفون حول واحدة من أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل فى خصوماتهم واستفتاء قضاتهم :

هنالك حلقات عدة على القرب وعلى البعد : : هذه حلقة مسعر بن كدام للقرآن والحديث ، وتلك لا بن شبرمة يقضى ويفتى ، وتلك لمحمد بن عبد الرحمن ابن أبى ليلى قاضى الكوفة ، وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعاً . . يكاد المسجد لا يخلو من درس ، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات فى المسجد الجامع .

وحتى فاتحة القرن الميلادى الحالى كانت لجامعات فى العالم الإسلامى هى المساجد الجامعة ، ففى الحرم النبوى كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفى الحرم المكى كان مجلس ابن عباس إلى جوار الكعبة أكرم المجالس ، أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم فى واد واحد : وفى البصرة وفى الكوفة والفسطاط ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التى خلع عليها الإسلام غلالات الحضارة ، كانت الفصول الدراسية هى حلقات الدرس فى صحون الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للعزاء فتشتغل مجالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء فى المسائل الفقهية والأدبية والقصصية وما إليها .

ولم يعرف نظام إنشاء المدارس لتدريس العلم خاصة إلا فى سنة ٢٨٣هـ فى بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفى سنة ٤٠٠ أنشئت مدرسة نيسابور ، وتلتها مدارس قليلة لم تتسع لطلاب العلم جميعاً ، وعلى هذا ظلت المساجد بيوتاً للعلم كما هى بيوت الله .

كانت إلى جوار تلك الحلق فى جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبى حنيفة النعمان ، لايقبل إليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث ، أو من داره ، أو من أسفاره ، أى من صميم الدنيا .

فى هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبى سليمان إلى أن وافته المنية فى سنة ١٢٠ للهجرة ، وعامر بن شراحيل الشعبى حتى اختاره الله إلى جواره سنة ١٠٤ ، ومن قبل ذلك جلس إبراهيم النخعى إلى سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد النخعى إلى نفس العام ، وجلس عبيد ابن عمر حتى سنة ٩٢ ، ومن قبلهم جلس علقمة النخعى عم الأسود وخال إبراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتى الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ ، كما جلس شريح بن الحارث الكندى نحو ثلثى قرن يقضى ويفقه الناس إلى أن مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأجدع يفتى الناس ويفتى شريحاً حتى سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعاً جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود إلى أخريات أيامه ، ثم ودع مجلسه إلى المدينة حيث صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى فى سنة ٣٢ .

لم تكن حلقة أبى حنيفة كسائر الحلق بل هى كانت تثير المشكلات فى الداخل والخارج ، وتأتى كل يوم بجديد . يتجلى فيها طابع التطهر فى الجسم وفى العقل معاً ، فلا يستعملون الماء إذا استعمله سواهم ، ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبى حنيفة للوضوء حياضاً ذات صنابير ، فنسبت هذه الصنابير إليه (الحنفيات) لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير للماء . والماء المستعمل غير طهور عند أبى حنيفة .

كان سفيان الثورى يفتى بجواز الوضوء بماء قد توضأ به الغير ، فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول إنه ماء مستعمل ، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لا يتوضأ به لأنه ماء مستعمل . فرجع فيه إلى قول أبى حنيفة .

(فالحنفية) التى تفتحها وتقفلها صباح مساء هى الذكرى المتجددة لهذه الحلقة المتأنقة فى طهارتها لا ترد الماء إلا صفواً من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء .

وإذا كان من المسلمات فى العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تنطق به عدادات المياه ، وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالا للماء ، وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هى كالصلة بين النظافة والماء ، فأى ذوق كان لأبى حنيفة من ألف ومائتى عام ! بل أى طهارة ، وأى حضارة .

وإذ كانت النظافة من الإيمان فمن كأبى حنيفة فى نظافته وفى إيمانه ! .

من أجل النظافة يقول أبو حنيفة إن السواك من سنن الدين ، وينصح الحنفية بالاستياك عند كل صلاة ، ووضوء ، وكل ما يغير الفم وعند اليقظة من النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود ليناً لا يابساً ، وأن يغسله المستاك قبل استعماله ، وألا يستاك وهو مضطجع .

ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » .

رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثياباً رثة فأهاب بصاحب الثوب ليبقى بعد أن ينفرط عقد الحضار ، حتى إذا صار الرجل وحده قال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم قال : « خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك » قال الرجل إنى لست أحتاج إليها . وأنا موسر . قال أبو حنيفة : « أما بلغك الحديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) فينبغى لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك) ! .

ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل إنها لتصور لنا الصورة الحقيقية لهذا السيد السمح وتلك الحلقة الجديرة بأن تسمى حلقة النظافة ، كما هى ولا مراء حلقة الثقافة :

بلى: إن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : والناس كخالق الناس — سبحانه — يحبون أن يروا أثر النعمة على من حباهم نعماءه : والثياب الرثة لا تطمئن ولا تسر ، وما لا يقبل شكله لا ينظر فى موضوعه ، فالنفس تخضع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع ، وأول ما يبدهك به الرجل منظره ومظهره : ففيم يفرض المتهاونون فى مظهرهم على الناس أن يفتحوا أعينهم على القذى !

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد لخادمه : احمل معنا ألف دينار فإنى أريد أن أمر بالأصمعى فإذا حدثنى وأضحكنى فضع الكيس فى حجره ، ثم صار إليه فحدثه الأصمعى بكل شىء فلم يضحك . فقال له صاحب كان معه : إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس من عادتك رد شىء قد أخرجته من بيت مالك : قال جعفر : قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم : ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدفعة ورأيت حبه (الجرة الضخمة) مكدراً وعليه برنكان (كساء أسود) متجرد وتحته مصلى وسخ ، وكل ما عنده رث ، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه ، فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه !

* * *

فرغ الشيخ من صلواته وتسبيحاته ، واحتبى بطيلسانه واستند إلى المحراب ، مشرق الديباجة طلق المحيا فى بزته التى عهدناها وأقبل إلى الناس فحياهم ، وإذا كان راجعاً من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله ، وإذا لم يك قافلا من سفره فهو بين ظهرانيهم يسهم فى أمورهم ويتعهدهم ويواسيهم ، فإذا شرع فى الكلام انجفل الناس إليه مخلفين حلقاتهم ، يتقصفون حوله صفوفاً صفوفاً ، فى زحمة لا تسمح للفتى الذى سيصير فى الغداة إماماً وبطلا (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلساً إلا فى الصف الرابع أو الخامس ،

أما فى الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيل الأول ، الزملاء القدماء : إسماعيل بن حماد ، وأبا بكر النهشلى ، وأبا بردة الضبى ، ومحمد بن جابر الحنفى يجلس معهم بين الفنية والفنية أساتذة الحلق المجاورة ، مسعر بن كدام — آية آية الكوفة فى ورعه وحفظه وزهده — والحسن بن عمارة — أستاذ الحلقة القريبة — يجلسان مع أترابهما إلى ذلك الذى لا ترب له . .

وهؤلاء فى الصفوف الأخرى . . أسماء لها جرس بديع فى الأذن : زفر ابن الهذيل ، كان أبوه والى البصرة وكانت أمه فارسية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لسانه . . ويعقوب — فتى من العامة سيعرف فيما بعد (بأبى يوسف) — والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكرى للكوفة عبد الله بن مسعود ، عالم فى اللغة والأدب والشعر والحديث ، وهذا أسد بن عمرو البجلى ، والوليد بن أبان : ثم هذا صف آخر ، فثمة وجوه جديدة : داود الطائى الذى سيرقى إلى الذروة فى العلم ثم يغرق كتبه فى الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاماً ، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من ربه ، وفضيل بن عياض ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، ويوسف بن خالد السمتى ، ووكيع بن الجراح ، ومالك بن مغول ، وحفص بن غياث ، وعافية الأودى ، وعلى بن مسهر ، والأخوان مندل وحبان ، ويحيى بن زكريا ، وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة ابن حمزة . وستأتيك أنباؤهم بعد حين . .

وأخيراً وفى نهاية العمر ، جاء فتى سمين وضاء المحيا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته بثلاثين ألفاً ، سينفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ، أبوا أن يقبلوه إلا أن يحفظ القرآن ، فغاب وعاد يقول إنى حفظته فى سبعة أيام ! لم يكد يجلس إلى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقها الشيخ إلى جوار ربه ، ذلك محمد بن الحسن الشيبانى . . .

وهؤلاء وهؤلاء : . يناهزون الأربعين عدداً : حلقة إسلامية بحق ، فيها الموالى والعرب ، وفيها أبناء الولاة وأبناء الشعب ، وفيها الخاطون لأب وأم مختلفين عروبة وولاء .

بدأ الدرس وتطارح المتدارسون المسائل ، فإذا كان فى الحلقة غريب حياه وبدأ به فقال له: هات ما عندك : ويتناظرون فلا يستبد بآرائه ، بل يطرح مسألة مسألة يسمعهم فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول : « لا يحل لمن يفتى من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت » ، ويقول : « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » : يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحراراً مع غيره ، فلن يتعلموا الحرية فى التفكير إلا إذا مارسوها فى التعبير : ولن يتعلموها مع الناس إلا إذا تعلموها مع الأستاذ ، وهو عندهم خير الناس :

ومن ألف عام قبل أبى حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون : أستاذى صديقى والحق صديقى فإذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة :

روى شاهد عيان : كنت عند أبى حنيفة وهو فى مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة ، فسكت ثم ألقى عليه أيضاً فأجاب فقال : أخطأت يا أبا حنيفة : فقلت لمن حوله من أصحابه : سبحان الله لا تعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجىء شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت إلىّ أبو حنيفة وقال « دعهم فإنى قد عودتهم هذا من نفسى » :

بلى ، وأية غضاضة على العالم أن يخطىء أو يخطّأ ؟ أليس علىّ رضى الله عنه يقول : « كنت لا أرى بيع أم الولد فى زمن عمر : : واليوم فقد رأيت ذلك » ! وأبدى ابن عباس رأيه فى مسألة من مسائل المواريث بعدم جوازها (العول) وقيل له : إنك كنت تراها فى زمن عمر قال : « هبته وكان رجلا مهيبا : : » :

ذلك صنيع العالم يتراجع أمام حجة العالم ، حتى إذا بدت له معايبها عاد يصدع برأيه من جديد ، والذى يرجع عن خطأ الأمس إلى صواب اليوم لا يصنعه إلا لأنه اليوم خير منه أمس ! ورجوع عمر نفسه عن

خطئه كان مضرب الأمثال : ففيم يشفق الشاهد على أبي حنيفة إذ يقول له الغلام مرة بعد مرة أخطأت !

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيراً أخف ففيم ذلك أيضاً ؟ والأشياء لا تسمى بغير أسمائها إلا فى معارض النفاق : والنفاق ليس من دروس أبي حنيفة . وإذا لم تسم الأشياء بأسمائها فى حلقات الفقه وحلبات الجدال فأين تسمى بأسمائها الأشياء ؟ إن الخطأ ليس إلا الخطأ : يسميه كذلك القائل الحر للسامح الحر ، وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته وافتعال يضيع الزمان سدى :

قال رجل لعمر بن الخطاب : « اتق الله » : فأنكر ذلك بعض الحاضرين فقال عمـــر : « دعه فيلقلها لى ، نعم ما قال ، لا خـــير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها » :

إن العظيم الحق لا تضيره كلمة الحق ، وإنه ليدرك أن عظمته إلى جوار عظمة الخالق كجناح بعوضة إلى الخلق العظيم الكواكب : فلعل الحق أن يجيئه من أى ذرة من ذرات هذا الوجود أو أى رجل مهما يكن من الخمول والقدامة . وهو لن يستطيع أداء رسالته إلا إذا وثق من قدرة الله على أن يصلح الدنيا على يد سواه :

قيل لأبي حنيفة : لا يزال هذا المصر بخير ما أبقاك الله فيه فأجاب :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن البلاء تفردى بالسؤدد

وفى أواخر القرن الرابع دعا أهل القيروان عـــلىّ بن خلف المعـــافرى المعروف بابن القابسى ، ليجلس فيهم معلماً فأبى ، فهدموا عليه بابه إذ أغلقه دونهم فلما رأى ذلك خرج ينشد :

لعمر أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفى الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم

ثم قال : وأنا والله ذلك الهشيم . . وبكى وأبكى .

فإذا نبت من المناظر كلمة ، فما أحلم أبى حنيفة ! وإذا تدهور صاحب السخيمة إلى الكلم الجارح فهو يقذف الهرم ، وينطح الطود الأشم . قال له الرجل يا مبتدع يا زنديق : فقال : غفر الله لك ، الله يعلم منى خلاف ما قلت ، وأنى ما عدلت به أحداً مذ عرفته : : قال الرجل : اجعلنى فى حل : قال الإمام : « كل من قال فى شيئاً من أهل الجهل فهو فى حل . . وكل من قال فى شيئاً من أهل العلم فهو فى حرج ، فإن غيبة العلماء تبقى شيئاً بعدهم » .

ولقد يطول البحث فى المسألة الواحدة أياماً وليالى أو شهراً أو أكثر من شهر . فيدأبون على الدرس ويكبون على التخريج : حتى إذا قتلوها بحثاً أثبتها أبو يوسف بعد أن يتولاها الفحول بالقبول . أو التفت الشيخ إلى من يكتب منهم فقال له : « ضعها فى الباب الفلانى » . ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ما تعلموه فإذا أحكموه أخذوا فى غيره ، وإذا استعصت مسألة أو غلوا فيها وتوفروا عليها حتى إذا قطعوا فيها برأى تهللوا بشراً وصاحوا صياح الفرج قائلين الله أكبر ! الله أكبر !

ابتدءوا فى مسألة الحيض فخاضوا فيها ثلاثة أيام متتابعة بالغداة والعشى ، فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعاً لله ، وكان ذلك إيذانا بأن مسألتهم قد خرجت .

وإذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال : « اللهم لا تؤاخذنى » ، ثم يفتى .

وفى ذات ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله فى يده ، فكلمه زفر فى مسألة ، فتجاريا يتقايسان ، حتى نودى لصلاة الفجر وهما قائمان ، فرجعا إلى داخل المسجد : ورجعا إلى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى استقرت المسألة على قول أبى حنيفة :

تـــرى لو لم يكن هـــؤلاء القـــوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا ينقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة فى شرع الله إنما هى سجدة من السجدات لذاته وتسبيحة بآلائه !

لقد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله — جل شأن الله — يولون وجوههم شطره فى المحراب أو فى حلقة أبى حنيفة .

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال : من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ، ولم يرسخ فى قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له فى علمه ورسخ فى قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه » .

أليس هو القائل لنابغتهم أبى يوسف : « . . . وإن بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم ، فإنك إذا أعرضت كانت معيشتك ضنكاً .» على ما قال الله تعالى : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً . » بلى لقد علمهم أن العلم توفيق وإلهام وعبادة إذ كانت تشكل عليه المشكلة فيقول : ما هذا إلا لذنب جنيته ، فيستغفر الله ، وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة . . . .

أجل وهو الذى طالما قال لهم : « إن لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا » .

وهذا الذى يقوله الشيخ لتلاميذه هو الذى قاله رسول الله من قبل : « أفضل العبادة الفقه » . خرج صلى الله عليه وسلم فإذا فى المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله . . فقال : « كلا المجلسين إلى خير ، أما هؤلاء فيدعون الله تعالى ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل . . هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت » ثم قعد معهم .

كان الطلاب فى الحلقة خشعاً قلوبهم ، عالقة أبصارهم بالشيخ ، يديرون المسائل فى عقولهم وألسنتهم ، فى حين تكاد آذانهم تشرب من عباراته ، وهو يتكلم كأن ليس فى المجلس أحـــد وكله فقهاء ورؤساء ولكنهم سكوت خاضعو الرقاب .

قال زفر : « إذا تكلم خيل إليك أن ملكاً يلقنه ما يقول » ، فمن فاته من

الدرس فكرة ، أو ضاع من وقته فترة ، فقد نصف عمره ، إن لم يكن كل عمره : مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عنه :

ضن أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليستبقى لنفسه ساعة من أبي حنيفة : ! فأية حكمة تلك التي كان ينهل منها القوم ، وأية نعمى هذه التي كانوا يؤثرونها : : ! إن المرء ليعجز عن فهم ذلك من أبي يوسف إلا إذا ذكر موقفاً آخر له عندما اجتمعت له أسباب المجد فكان أصح تقديراً إذ كان أبعد زماناً ومكاناً : : أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه ، حتى إذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين :

فى تلك الأيام سئل عما يوده فقال « وددت أن لى مجلساً من أبي حنيفة بنصف ما أملك » قيل ، ولم تتمنى هذا ! قال : « فى النفس حزازات كنت أسأله عنها » :

حقاً ، كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون . روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين : شيخنا ليس حاضرًا ونكره أن نتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدئ بالكلام .

وقيل لأبي يوسف وهو قاضى القضاة : هل وددت إلى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال « وددت إلى زهد مسعر بن كدام وفقه أبي حنيفة » . قال الرشيد : ما تمناه أكثر من الخلافة : ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء ، وأين الخلفاء من الأنبياء :

تلك الرهبنة العلمية ورثها تلاميذ أبي حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم وللدين معاً كمثل أبي جعفر النسفى ، يبيت ليلته مهموماً من ضيق البال ، وكثرة العيال ، فيقع فى خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويقوم ويرقص فى داره ويقول أين الملوك ! وأبناء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث فيخبرها فتعجب : : !

جاءت القزوينى زوجته وهو يلقى درسه فأسرت إليه خبر وفاة ولد له

شاب كان يحضر معه فى كل يوم ولم يحضر معه فى ذلك اليوم ، فأمرها بتجهيزه ولم يذكر للحاضرين شيئاً ، حتى فرغ من الدرس على عادته فقال : إن محمداً دعى فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر !

ومن قبل أبى حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقى دروسه وبين سامعيه أورلينوس أحد عظماء روما ، فدخل جندى برسالة من الإمبراطور إلى أورلينوس وجزع الحاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لكن العظيم الرومانى لم يفض الكتاب إلى أن انتهت المحاضرة .

أولئك رجال العلم خُشَّع فى محرابه ، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس ، فليس كل أستاذ أبا حنيفة أو بلوتارك ، والساعات التى تتيحها العناية الإلهية للناس إذ يجلسون إليهما ليست مما يسرف الفتى اللقن فى إنفاقه .

وفى بعض الأحايين يطول الجدال فى الحلقة ، ويحتدم وتتعالى الأصوات بلا ضابط ، حتى قال فيهم الشاعر :

قوم إذا اجتمعوا صاحوا كأنهمو ثعالب صيحت بين النواويس

فإذا تكلم خفضت الأصوات وتفتحت الآذان والأذهان ، فللحلقة قانون غير مدون ولكنه فى القلوب . إنه « إذا تكلم الشيخ فسمعاً وطاعة » . لقد جاءوا إليه وهم أحرص الناس على لقياه وسماعه ، عالمين أن الفقه أرفع العلوم وأولاها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له إن فى هذا المسجد حلقة ينظرون فى الفقه . فسأل : « هل لهم رأس ؟ قالوا : لا . قال : لا يفقه هؤلاء أبداً » . . .

بلى : كيف يفهم الناس بلا رؤوس ؟ . . وكيف تنتظم الحلقات بلا رئيس ؟

سمعهم مسعر بن كدام فى صخبهم ثم بصر بهم سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال : « إن رجلا تسكن عنده الأصوات لعظيم الشأن فى الإسلام . » لكن الأستاذ ينشرح صدره لجهارة تلاميذه وجلبتهم ،

فإذا نبههم الناس أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغى فى المسجد قال : « دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا » !!

إنهم لم يكونوا تلاميذ إلا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ ، فلسوف تراهم الدنيا غداً فحولا دونهم كل الفحول والأفذاذ . لو شهدتهم حول أساطين ، المسجد الجامع لحسبتهم فى مؤتمر دائم لا يكاد ينفض .

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام ملياً ثم قال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين . . ثم قرب إلى المسجد فقال لأصحابه : يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه مع ما هو فيه قد أقام عشر ليال متواليات شهدت الليلة التى مضت منها . .

كان محمد بن أبى ليلى قاضى الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد ، وكان كثير الشكاة من تلك الحلقة التى تشرح أقضيته ، لكنه كان يتلمس فى الخفاء رضاء الشيخ عن تلك الأقضية ، وإذا قدم ابن إسحق صاحب المغازى إلى الكوفة جاراه فى المسائل . أما مسعر بن كدام فيترك تلاميذه ويجلس فى حلقة أبى حنيفة ، فيقول له تلاميذه : نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس إلى أهل البدع ؟ فيجيب : « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علماً » .

وإذا سأل سائل عن العلم فإن للعلم مكانة ، وللمفتى وقاراً لازماً لاستجماع الفكر يمتنع معه أن يفتى فى عرض الطريق . قال لسائله مرة : « لا تسألنى عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو نائم أو متكئ فإن هذه الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجال » .

وللمرأة احترامها وحياطتها إذا جاءت إلى الحلقة تستفتيه ، فإنه ينهض إليها من وراء السارية فيفتيها ، ثم يعود إلى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع وبالفتوى ويقول عن الحجاب الذى ضربه بينها وبينهم : « إنما غرضى أن أحصنها من أحداق الرجال » .

وإذا قام من الحلقة عاد مريضاً أو شيع جنازة . بل إنه ليحمل سرير الميت

من تلاميذه أو أصدقائه — آية وفاء وتحية وداع — أما دار ابن حريث فالريح تجرى فيها رخاء وعلى يد الله .

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح ، فالرجل الذى يقسم حياته بين يدى الله فى داره طول الليل لاينقص منه لنومه إلا قليلا ، وبين يديه أكثر النهار فى بيته يؤدى فريضة العلم لعباده ، والذى يخرج عن ماله الضخم فىسبيل العلم وفى سبيل الله ، إنما هو رجل قد طبعه الجد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التى يحملها للناس . ولهذا لم ير مستجمعاً ضحكاً قط ، وإن كان يبتسم لما يقهقه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه . . والقهقهة ليستعلى كل حال من خلائق السادة .

لقد ضحك مرة فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوماً ! . . كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم : عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ ﻫ ، والذى كان يطبع الجد قسماته وحركاته حتى ليظنه الرائى قد أقبل من دفن والديه ، وإذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تخلقا إلا له ، ناظره أبو حنيفة فى فتوته ، فظفر به فازدهاه الظفر بأنه أفحم الزعيم العظيم فضحك ، فرشقه عمرو بقاصمة الظهر قال : يافتى تتكلم فى مسألة من الشرع وتضحك ! والله لا أكلمك بعد هذا أبداً . قال أبو حنيفة فانقطع الكلام بينى وبينه رحمه الله وقال إنه نادم على ما فرط منه أبداً . . وهكذا عاقبه الله على ما ازدهاه وما انساق إليه من المغالاة .

وإنه ليلقى درسه فى المسجد ذات يوم فإذا بحية تسقط فى حجره وهرب الناس ، فما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه ، واضطرب الدرس وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فراراً وملئوا منها رعباً . أما هو ، والحية قد سقطت فى حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستبقياً عنانه ، كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد : « فلا والله ما تخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير » . ثم قال : (لنْ يُصِيبَنَا إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ لَنَا) وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيداً عنه » .

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس . لكأنه إذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد فى المحراب بين يدى الله .

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شانه الارتياع للبغتات والفجاءات ، لكن

سموه على طيش الفجاءة قد زاده كرامة ، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ فى وقاره وضعًا مسرحيًّا ولا مدرسيًّا بل استمر فى درسه كأن لم يقع ما يريب .

اقتحم الخوارج مسجد الكوفة فى إحدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة وأصحابه جلوس فقال لأصحابه : لا تبرحوا .. فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم : ما أنتم ؟ قال الأستاذ من فوره : « نحن مستجيرون » ؟ قال أمير المغيرين دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرءوا عليهم القرآن . فقرءوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم .

وبهذه البديهة المسعفة ، سلمت المدرسة الحنفية من خبطة معسفة ، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعملوا فيهم السيوف ، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصبة لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصاير الفقه .

وهكذا جرت على لسان أبى حنيفة تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال ، وجرت فى خلد أمير الخوارج نسمة من نسمات التفتح الوحى ، وتذاكر المتحاوران فى صمت قوله تعالى : (وإن أحد مِنَ المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثُمَّ أبلغه مأمنهُ .) وسما الخوارج عن سفك الدماء ، وسما أبو حنيفة فى التعبير عن أن يقول: إنهم : « مشركون مستجيرون » كما قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء إذ هم الخوارج برأسه فعصم منهم رأسه ونفسه . لكن أباحنيفة يقف وما فى المرت شك لواقف ، فيصيب فى العبارة والإشارة ، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات .

كان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام ، وامتد الوقار من ذاته إلى عباراته ، فإذا حلف صادقًا فى عرض كلامه تصدق بدرهم ! ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين دينارًا .

قال جعفر بن ربيع : « أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتًا ، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى وسمعت له دويا وجهارة فى الكلام » . وليس يرجى غير ذلك من رجل وهب نفسه للعلم خمسين حجة كاملة أو يزيد ، يقرأ القرآن فى كل وقت ، ويبرز فى حلقات المتكلمين فى صدر حياته حتى إذ بلغ عنفوانها قضى عليه القدر أن ينهض

برسالة من الرسالات التى تدين لها الحضارة الإسلامية بأسباب البقاء .

* * *

والجهارة والدرى ، والسلاسة والتدفق ، وحسن الإلقاء – كانت وما زالت وسيلة المحدث النابغة إلى القلوب ، مثلما هى جواز المرور للكاتب والعالم والخطيب . وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد ، من « ديموستين» إلى « شيشرون » إلى « ابن أبى طالب » إلى « ميرابو » ، وفى « أثينا » و « روما » و« بيزنطة » ، وفى أسواق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى المجاز » و « مكة » و « المدينة » و « العراق » و « مصر » ، وفى قصور الأمراء ، وفى رمال الصحراء ، وفى محافل باريس ولندن وفى كل مكان

وسيبقى ذلك شأن البيان فى كل زمان ، والناس دائماً هم الناس وكلما غير الزمان وجهه أظهر للدنيا وجهه نفسه باعتباره وجهاً جديداً .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء. فالعلم لا ينبع من القلب إلا عند استجمام فضله واستجماع عفوه .

سئل الشافعى عن مسألة فسكت فقيل له : ألا تجيب رحمك الله ؟ قال : «لا ، حتى أدرى أين الفضل ، فى سكوتى أم فى الجواب » .

من أجل ذلك ، كان مجلس الشيخ مهيب الجانب «ورأيه لا يدفع بالهوينا » كما يقول الشافعى : «ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته » كما يقول مالك . كانت كلماته قطرات من البلور المذاب تهب عليها نفحة من منطق الرسول الذى قالت عنه أم معبد : « كأن منطقه خرزات ، نظم يتحدرن » .

والحضانة الفكرية لا يتيسر لها الجو الصالح إلا بالخلو إلى النفس بالسكوت ، أو كما قال ابن المقفع : « ربما كانت البلاغة بالاستماع » . والذى يتحدث حديثاً صالحاً لا يتحدث إلا لداع ، فالحديث كالماء يتخذ لون الوعاء فإذا ألقيت به فى غير مكانه أو فى غير أوانه أو أدليت به إلى ضمير جامد أو شعور بارد ، كان لا لون له ولا طعم فيه وهو السلسل العذب، بل إنه ليغص به الشارب وتقتحمه عين الرائى .

فإذا أدلى أبو حنيفة بذات نفسه فهو يدلى بها حيث يجمل الإدلاء ، ويجدر الإفتاء ، ويصدع برأيه حيث تعترك الآراء ، وعندئذ يسيل كالسيل إذا اجتاح جنبات الوادى .

قال : « لا تحدث بفقهك من لا يشتهيه فتؤذى جليساك . ومن قطع عليك حديثاً فلا تعده فإنه قليل المحبة للعلم » . وقال فى إحدى خطبه : « إن الكلام كثير ومحكمه يسير ، وإن الكلام لا ينتهى حتى ينتهى عنه ، وإن خير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبى يوسف وهو يرضه النصيحة « من جاءك يستفتيك فى المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله ولا تضم إليه غيره فإنه يتشوش عليه جواب سؤاله . . ومن فاقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك » . . . .

على هذا النحو ظلت حلقة أبى حنيفة ثلاثين عاماً تعمل فى مؤتمرها الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها ، يتلقون المسألة فيقسمونها أقساماً ويتولون كل قسم أياماً وليالى بالتحليل والتعليل ، حتى إذا قعدوا قواعدها راحوا يفترضون الفروض التى قد تقع فى المستقبل وتتداولها أدمغتهم كأنها تتناولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسة ، فتخرج أحكامها على أيديهم كالجنين الحى . واتنشرت موجة الافتراض والتفريع فإن مالا تكفى فيه النصوص تنفع فيه الأصول . ولئن صح قول ابن عجلان : « إذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مفاصله » فإن حلقة الكوفة كانت تعرف هذه القاعدة ولا تحتاج إليها ومع ذلك سلمت مفاصلها ، ذلك بأن الأسئلة لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعضاؤها كثر ، ولم يكن الجواب يصدر فور البديهة وإنما يصدر بعد البحث فى المؤتمر ، ولم يك وليد الفكرة وحدها وإنما كانت تطبق عليه قوانين وضعوها . فكيف لا توجد القوانين الموضوعة ، والعقول الدائبة على البحث ، حلولا للأشياء . . إن الضعف الإنسانى يجبره طول المران والإيمان والتعاون والإخلاص ، ولقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيِّنن العلم : وإنهم لفاعلون .

ذكر ذاكر أمام أبى حنيفة قول الشعبى : « لا أدرى نصف العلم » فرشقه بكلمة لاذعة قال : « فليقلها مرتين ليكون له كل العلم » .

وجرى حديث هذه الدروس فى شبه الجزيرة وفى العالم الإسلامى كافة ، وشاركت الخمس والخمسون حجة التى يمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة فى إذاعة أنبائها ، فالشيخ فى مكة والمدينة فى كل عام تقريباً يناظر ابن جريج فقيه مكة، والأوزاعى فقيه الشام ، والليث بن سعد فقيه الفسطاط، بل الليث يعمل على الخروج للحج إذا خرج أبو حنيفة ليناظره . . والشيخ يجلس فى المسجد الحرام يفتى أهل المشرق والمغرب ، وكبار الناس حضور ، لا يرى أصبر منه على الطواف والصلاة والفتيا بمكة ، وهو كل الليل والنهار فى طلب الآخرة حتى لقد شوهد عشر ليال لا يهدأ الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعليم والناس يزدحمون حوله فى المسجد الحرام من كل الآفاق ، فيجيبهم ويفتيهم كأن المسائل فى كمه يخرجها فيناولها إياهم فى أدب يأسر القلوب ! .

كان يفتى يوماً فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة — الذى قيل إنهم رووا له ٤٠٠ كتاب — ففطن أبو حنيفة له فقام وقال : « يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت مارآنى الله أقعد وأنت قائم» قال له : « اجلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائى » .

وفى مكة احتاج الوالى إلى شرط يكتب له فقال لابن شبرمة وابن أبى ليلى : اكتب . فكان إذا كتب هذا شيئاً أفسده هذا حتى إذا قدم أبو حنيفة على الأمير قال الأمير : احتجنا إلى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفة : قل لكاتبك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبى ليلى فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدرا أن يقولا شيئاً ، وقال أحدهما للآخر بعد أن خرجا : أما ترى هذا الحائك جاء فى ساعة فكتبه. قال له صاحبه : « لا تقل الحائك فإن الحائك عندى من لا يقدر أن يكتب هذا القدر ويستروح إلى سب العلماء » .

فإذا ذهب إلى المدينة لقى زعيمها الجليل مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة لايكلم أحداً إلا قطعه ولكنه يرفق إذ يكلم مالكاً : كانا يتدارسان بعد العشاء فى مسجد الرسول حتى إذا وقف أحدهما على القول الذى قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة . ولا يزالان كذلك حتى يصليا الغداة فى مجلسهما !

قصدا يوماً إلى الحرم النبوى معاً ومالك قابض على يده يمشيان ، فلما بلغا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله ، وكان مالك يجلس سفيان الثورى دون المجلس الذى يجلس فيه أبا حنيفة . ولا عجب فإن سفيان كان يقدم أبا حنيفة و يمشى خلفه ، و إذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذى يجيب .

ومع ذلك كان أبو حنيفة يرهق مالكاً بحجاجه . قال الإمام الليث : « لقيت مالكاً فى المدينة فقلت له : إنى أراك تمسح العرق عن جبينك . قال : عرقت مع أبى حنيفة . إنه لفقيه يامصرى . ثم لقيت أبا حنيفة فقلت ما أحسن قبول هذا الرجل منك . فقال أبو حنيفة : «ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام»:

ومع ذلك كان مالك يقول : « ما أحلمه » . ولولا حلم أبى حنيفة عليه لما تركه يتفصد عرقاً !

ترى أية لحظات فى تاريخ الإنسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة من سنا الفكر كانت تتبادلها هذه الكواكب فى جوار النجم الأكبر الذى ما يزال يبعث شعاعه إلى الوجود الإنسانى ! إمام مصر ، وإمام دار الهجرة ، والإمام الأعظم ، فى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم !

فأى رجال . . وأى خيال . .

هكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ فى اتساع الدائرة واشتهار المدرسة .

هذا ربيعة بن عبد الرحمن الذى تفقه به مالك ، والليث بن سعد إمام مصر ، ومالك ، والأوزاعى ، وابن جريج ، وجعفر الصادق ، وابن إسحاق صاحب المغازى ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، والحسن بن عمارة ، وحمزة المقرئ ، والجرجانى عبد الكريم ابن محمد ، وقتادة المحدث ، وحماد بن زيد إمام البصرة ، وأبو مقاتل السمرقندى ، وخارجة بن مصعب إمام سرخس ، والنضر بن محمد ، ومسعر ابن كدام ، وعمر بن ذر ، وعمرو بن عبيد ، هؤلاء الزعماء الفكريون وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الإسلامية بالنور ، وكانت لهم مع

أبى حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواؤهم وآراؤهم بأضواء الكوفة وعلومها بين الحين والحين ، فكانوا يرون فى بريق الشيخ وصفائه بشائر الفجر الطالع أو الفجر الطالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم فى الكوفة أو فى البصرة أو فى مكة أو فى المدينة خلاصات التفكير الإسلامى فى كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية إلى دراساته ، فيلقحها بلقاح جديد ليطبعها بالطابع العالمى الشامل . حتى إذا جادله سعيد بن أبى حجر ذات يوم قال : « يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفاريق من قوم شتى وجدناه عندك جملة » ! .

حقًّا لقد انتهى إليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبحسبك أن تقرأ ما فات من أسماء ، وأن تتصفح ما فى الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا عنهم من الفحول ، لتجتمع لديك القائمة الذهبية بمنابع الفقه الإسلامى وروافده لا تكاد تنقص شيئًا . تلتقى تياراتها فى مدرسة الكوفة منبعًا أو مصبًّا . .

لقد كان زمن الفتوح الفكرية وكان العراق بقعة الكنوز المباركة ، فيها أسلمت دولة بنى أمية روحها ، ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة المفكرين روحاً جديداً أمدها بأسباب الحياة ؟



البـاب الرابـع

المفكر

(يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ)
قرآن كريم



ارتفع الفكر الإسلامى فى هذه الحلقة إلى أسمى ذرى الإدراك ، فى حين كان العالم المعروف يسدر فى جهالات القرون الوسطى ، فجاء هذا الأستاذ الفرد، بما لم يجئ به العلماء الكثر من قبل ومن بعد ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، يشيع فى الناس مقولاته كما تشاع الأنوار معلناً آيات التسامح والتيسير والحرية . تسامح بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وتسامح بين المخلوق والخالق ، ثم حرية فى الآراء والأشياء لا يحدها إلا العقل والعدل وعمارة الدنيا .

حرية فى الدنيا ومغفرة فى الآخرة إذا تحققت أولاهما وقام الأمل فى أخراهما كانت الحياة جديرة بأن نحياها والآخرة حقيقة بأن نرجوها ولا نخشاها — فليست الحياة نكالا للأحياء ، ولا الآخرة جحيماً مروعاً ، وإنما الدين يسر ، وعلى الناس ألا يقنطوا من روح الله ، وألا ييأسوا من مغفرته للخطيئة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال : « رحمة مهداة » ما خير بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ما هو أيسر . وإن لنا فى رسولنا الأسوة الحسنة .

وهذا الأستاذ الشديد فى حق نفسه ، الرفيق فى حق الناس ، إذا خير بين التيسير عليهم والإعنات لهم فإن خياره فى اليسر بلا مراء .

فعقيدته فى الإيمان أنه يتم « بالتصديق بالقلب والإقرار باللسان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر» .

فإذا صدق قلبك بالله وأقررت بإيمانك بلسانك فليهنك أنك مؤمن . ولا بأس على إيمانك إذا لم تقم بالأعمال التى أوجبها الدين أو التى دعا إليها ، أو إذا ارتكبت وزراً غير الشرك بالله سواء أهملت الفروض كالصلاة والزكاة أو عمل الخير عامة أو ارتكبت المعاصى .

وإذا ارتكب الإنسان كبيرة من الكبائر — كالقتل أو الزنا أو السرقة — فلا يفقدن الأمل فى عفو الله . فهو إذا استغفره قد يغفر له ، ولا أحد يستطيع أن يتيقن أن الله معذبه عليها : بل هو ما زال من المؤمنين : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) :

بل إن الأجمل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة مادام قد أدى الشهادة فذلك كما يقول الأستاذ : « أفضل لخصلتين : أما واحدة لأنه مؤمن . والأخرى لا تستيقن أن الله معذبه عليها البتة . . والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفرة أفضل لحرمة هذه الشهادة . . وجميع ما أمر الله به من فرائضه فى جنب الإقرار بهذه الشهادة والتصديق بها أصغر من البيضة فى جنب السموات السبع والأرضين السبع . . » .

أما الشرك فظلم عظيم لا يغفره الله ، وفيما عداه يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان . . ومن قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه وحسابه على الله .

وعسى الله أن يتوب على الناس .

ولئن (خُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً) إن عليه أن يعمل صالحًا فى الدنيا و يتوب عن الخطايا مستبقيًا على نفسه نعمة الإيمان ، آملا فى الغفران يوم الحساب .

تلك مقولات أبى حنيفة وهذا تسامحه ، فى حين كان الخوارج يقولون حول الكوفة والبصرة وفى كل مكان إنه لا إيمان لمن لم يعمل ما أمر الله به ، فترك الصلاة كفر ، وعدم الصيام كفر ، ولا إيمان لمن صنع ما نهى الله عنه . فالقتل كفر ، والزنا كفر ،وأما المعتزلة فكانوا يقولون إن من لم يعمل بما أنزل الله فاسق : لا هو مؤمن ولا هو كافر ! فى حين كان هؤلاء عند المعتزلة والخوارج فسقة أو كفاراً ، كانوا عند أبى حنيفة مؤمنين يجمل الدعاء لهم ، والرجاء فيهم والأمل فى أن يتوب الله عليهم ويهديهم سواء السبيل — وهم جماهير المسلمين غير المعصومين — وعلى ذلك قال مقولته الجامعة : « أهل القبلة كلهم مؤمنون ولا يخرجهم من الإيمان ترك شىء من الفرائض » فلا كبيرة مع الاستغفار . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولم يذهب مذهب جهم بن صفوان فى القول بعدم وجوب الإقرار بالإيمان باللسان لما فيه من انعدام البيان وانتفاء الثقة . ولم يذهب مذهبه فى الجبر وهو قوله : إن الإنسان مسير لا مخير محكوم عليه بأعمال الطاعة أو المعصية بل كان يقول : « لا جبر ولا تفويض ولا تسليط ، والله لا يكلف عباده ما لا يطيقون ، ولا أراد

منهم ما لا يعلمون . والله أعلم بما نحن فيه . والصواب الذى عنده .. ونحن مجتهدون ولكل مجتهد نصيب » .

ذهب مالك والشافعى وابن حنبل مذهب أبى حنيفة فى أن ترك العمل بالأوامر الدينية لا يكفر المؤمن : فالناس يعاملون تارك الفرائض ويزوجونه ، ويرث فيهم ويرثونه ، لكن الأئمة المذكورين مع ذلك قالوا إن الإيمان يقوم على التصديق والإقرار والعمل أيضاً ! فإنه داخل فى الإيمان ! ثم قيل إن الإيمان باق مع فوات العمل ! مع أن العمل لوكان ركناً وانتقض ، انتقض الإيمان وزال !

ومن أجل ذلك راح البعض يفسر العمل فقال : إن من أجزاء الشيء ما لا ينعدم الشيء بانعدامه كالشعر واليد والرجل للإنسان ، والأغصان للشجر ؛ فإذا انعدمت بقى الجسم حياً ! وقيل إن العمل ثمرة الإيمان تتبعه وتوابع الشيء قد يطاق عليها اسمه على سبيل المجاز ! وراح بعض آخر يقول إن العمل المطلوب .. هو عدم العمل .. أى عدم ارتكاب المكفرات مثل السجود للأصنام .. ! أما ابن حنبل فقال بتكفير تارك الصلاة دون غيرها من الفرائض !

ويرى أبو حنيفة أنه لا تفاوت بين الناس فى الإيمان لأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ! لا يزيد بعد إذ كمل ، والزيادة ليست إتماماً للإيمان لأنه من دونها بلغ الكمال وهو يتم بمجرد أن صدق المؤمن بالله وأقر بإيمانه ، ولا يزيد إذا تكرر الإقرار .

فلا تخف إذن منافسة الناس فى ميدان الإيمان ، ولا تخف تثريبهم ، فكل مؤمن ككل مؤمن .

وما دام الدين لله ، والغفران مأمولا منه ، ففيم يقول الناس بتفكير الناس ؟ إن ذلك كله متروك له سبحانه ، وإذا كان اللازم فى الإيمان الإقرار والتصديق دون العمل ، فحساب الناس عن الأعمال مرجأ إلى يوم الحساب .

وعلى المسلمين أن ينظروا فى أمورهم وأن يذكروا الله فى حياتهم ولا يتعرضوا للفتن .

ولذلك فليس من رأى الأستاذ الخوض فى أمر قتلة علىّ وعثمان فتلك دماء

طهر الله منها يده — على حد تعبير الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز لما سئلا عن قتلى صفين — فليتطهر من الخوض فيها لسانه ، والله وحده يعلم أى الفريقين كان على صواب . أوكما قال أبو حنيفة عمن يخطئون من المسلمين عموما : «. . لكنا نرجو لهم ونخاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخر سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيهِمْ) حتى يكون الله سبحانه وتعالى يقضى بينهم ، وإنما نرجو الله لهم لأن الله عزوجل يقول « إنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ونخاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم » .

ومن أجل ذلك نسبوا إليه « الإرجاء » وهو ما يترجمه المستشرقون بالفرنسية « بالتأجيل » وفى الإنجليزية « ترك الأمر لله وحده » .

كان بالمسجد يوماً فدخل عليه طائفة من الخوارج شاهرين السيوف فقالوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت وإلا قتلناك . قال : اغمدوا سيوفكم فإن برؤيتها ينشغل قلبى . قالوا وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها فى رقبتك ! قال سلوا إذن . قالوا جنازتان بالباب إحداهما رجل شرب الخمر فمات سكران ، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت فى ولادتها قبل التوبة : أهما مؤمنان أم كافران ؟ فسألهم : من أى فرقة كانا ؟ أمن اليهود ؟ قالوا : لا . قال : من النصارى ؟ قالوا : لا . قال : من المجوس ؟ قالوا : لا . — قال ممن كانا ؟ ؟ قالوا من المسلمين . قال : قد أجبتم .

قالوا هما فى الجنة أم فى النار ؟ قال : أقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام فيمن هو شر منهما : (فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وأقول كما قال عيسى عليه السلام : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) .

فنكسوا الرءوس . . وانصرفوا .

انصرف الخوارج بعد أن راعهم برباطة جأشه وانتزع منهم بجداله القوى الاعتراف بأن مرتكبى هاتين المعصيتين مسلمان . وأضاف إن الله يغفر لمن يعصى

رسله ، فالعصاة عباد الله والله يغفر لمن يشاء .

وجرى جمهور المسلمين على هذه القواعد في جملتها وتفصيلها وما يزالون .

فأى ضمان للرقاب كان ذلك الضمان ، فى وقت كان الشك فيه فى الإيمان مهدراً للدماء .

أيًّا ما كان الرأى فإن لأبى حنيفة — وقد تبعه جمهور الأمة وأهل السنة — هذه اليد العليا على المسلمين إذ آمنهم من خوف ، ولم يقض مضاجع المتقين منهم ، ولم يقض على أمل غير المتقين فى يوم الحساب ، وبهذا حببت الحياة للأحياء ، ولم تحتوشهم زبانية العذاب فى الحياة الدنيا ، قبل أن تستقبلهم بالمغفرة ، ملائكة الرحمة فى الحياة الآخرة .

* * *

وبعد فما هو طابع فلسفة أبى حنيفة ؟ ما عنوان تلك الحياة الذى يتحصل فيه كتابها ؟ وما مفتاح هذه الشخصية الذى تديره فى بساطة فتتمكن من كل ما وراءه ؟ . . .

طابع تلك الفلسفة ، وعنوان تلك الحياة ومفتاح هذه الشخصية هو التيسير ، والتسامح والحرية .

حرية وتسامح وتيسير بين نفسه وبين تلاميذه ، وبين نفسه وبين الناس ، وفى الأقوال والأفعال والأموال ، والعبادات والآراء ، وفى البيع والشراء ، وفى كل الأشياء .

كان تلاميذه يخالفونه لمجرد أن يخرجوا ما عنده من كنوز ، سئل أبو يوسف يومًا لماذا قضى برأى أبى حنيفة وقد كان يخالفه فيه فقال : كنا نخالفه لنستخرج ما عنده .

وكما كانوا يحاولون أن يستخرجوا ما عنده من الكنوز ، كان يريدهم على أن يخرجوا ما عندهم لتقوى شخصياتهم وتنمو ملكاتهم وتفيد الحلقة من نبوغهم .

فى ذات يوم انتهى معهم إلى رأى فى مسألة — وكان تلميذه عافية الأودى غائبًا — فقال لا ترفعوها حتى يحضر عافية لنسمع رأيه فيها .

ولئن كان أفلاطون قد علق على باب مدرسته : « لا يدخل علينا من ليس له عقل هندسى » فإن أبا حنيفة طالما قال : « اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له » .

ولقد طالما قال : « علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه » .

افتتح أبو يوسف وزفر عنده مسألة من حين طلعت الشمس إلى أن نودى بالظهر ، فكان إذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر عند ما نودى بالظهر .. فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال : لا تطمعن بالرياسة فى بلد يكون هذا بها ..

وبهذه الحرية التى كانت لهم من أنفسهم ومع الأستاذ اختلطت ذواتهم بذاته ، فمكنت للمدرسة أسباب النجاح . قال رجل : أخطأ أبو حنيفة . فقال آخر : كيف يخطىء ومعه أبو يوسف وزفر ؟ ثم عدد بقية من التلاميذ ، وقال : من كان هؤلاء جلساؤه لم يكد يخطئ لأنه إن أخطأ ردوه .

وكثيراً ما تجد فى المسألة الواحدة أربعة أقوال لكل من أبى حنيفة وأصحابه أقوال فيها وقد ترجح آراؤهم رأيه .

فى هذه الحلقة كان الأستاذ يقول منذ أكثر من ألف ومائتى عام ما لم يقله الناس إلى اليوم فى إنجلترا وفرنسا ! وما يزال فقه المذاهب الباقية يعارضه : إن من حق المرأة أن تجلس على كرسى القضاء .. قاضية فيما تقبل فيها شهادتها ! ..

كان يقول إن من حق المرأة الحرة البالغة أن تزوج نفسها ممن ترغب . بكراً كانت أم ثيباً ، دون تدخل وليها ، لأن ذلك تصرف منها فى خالص حقها ، ولئن كان لوليها حق الاعتراض فى حالة عدم كفاءة الزوج ، إن أبا حنيفة يقيد هذا الحق بعد جواز استعماله إذا حملت الزوجة حملا ظاهراً أو ولدت .

وكان يقول إن البكر البالغة لا يجوز لأحد أن يجبرها على الزواج فى حين تجيزه المذاهب الأخرى .

فى هذه الحلقة كان الشيخ الجليل يقول ما ينفرد به الإنجليز اليوم فى شرائعهم من أن الحجر على السفيه أو ذى الغفلة غير جائز لأن فى الحجر عليهما إهداراً

لآدميتهما . بينما يرى غيره الحجر صيانة لأموالهما تحكيماً لقوله تعالى : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا) — أما أبو حنيفة فيشرح رأيه بأن مالك المال إنسان حر بالغ عاقل مكلف بكل التكاليف الشرعية ، ولم يسقط عنه شيء من الواجبات فكيف يمنع عنه ماله ! وإذن فالنص يريد أن يكون منع المال عنه تأديباً له ، والإنسان فى أول أحوال البلوغ قد يفارقه السفه لقربه من زمن الصبا . ولكن بعد تطاول الزمن به لابد من أن يستفيد رشداً . فحسبه حبس ماله عنه حتى تصل سنه إلى خمس وعشرين .

أما عن الحجر على السفيه بعد البلوغ رشيداً فيقول : لا أحجر عليه لأن النص إنما ورد بمنع ماله عنه لا بالحجر عليه فى التصرفات . وأما قياس الحجر على منع المال فهو قياس الأعلى على الأدنى . إذ غاية منع المال عنه إبطال نعمة زائدة وإلحاقه بالفقراء ، والفقر لا ينافى الأهلية ولا الإنسانية ، أما الحجر عليه فهو إلغاء عباراته بعدم ترتيب آثارها عليها ، وفى هذا إبطال ولايته وأهليته وإلحاقه بالبهائم ، وتجريده من نعمة أصلية من أكبر النعم وأجلها وهى البيان الذى يمتاز به الإنسان عن الحيوان .

وامتدت ظلال الحرية عنده فتعدت منطقة الفقه إلى عالم الاقتصاد . فلئن كان العلماء المحدثون قد دقوا الطبول لحرية التجارة فى العصر الحديث ، إن مبادئهم لم تكن خافية على أستاذ الكوفة ، الذى يأبى التدخل فى قانون العرض والطلب ، ولا يجيز التسعير الجبرى على الناس . ووجه قوله كما روى الشافعى هو : « سد باب التحكم على الناس فى أموالهم التى لهم حق التصرف فيها كيف شاءوا » . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تسعروا فإن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق » ، والثمن حق العاقد إليه تقديره . ولا ينبغى للإمام (الحاكم) أن يتعرض له إلا إذا تعلق به ضرر للعامة ، لكن الأستاذ إذ يعترض على أن يتحكم الحاكم فى أثمان العروض يعترض على أن يتحكم أصحاب العروض فى العروض ، فلا يبيح احتكار الأقوات ، إذا أضر هذا الاحتكار بالناس أو ضيق عليهم .

ولا ينفرد الناس بعطفه على أقواتهم بل يشمل عطفه قوت الحيوان ، فتلك

حالة دفاع عن المصلحة العامة يفضل فيها النظام على الحرية . كما يفضله فى حالة الفتنة فلا يسمح ببيع السلاح خشية الأذى .

وتناهت به الحرية إلى أن أصبح عدو القيد حيثما وجد القيد . وآية ذلك ما ذهب إليه فى نظام الوقف باعتباره قيداً لحرية الناس فى تداول المال .

فلقد ذهب إلى حد القول ببطلانه . ومن نسبوا إليه أنه يجيزه قرروا أنه يجيزه فى ثمرة العين الموقوفة لا فى العين نفسها ، فإنها لا تخرج من ملك صاحبها وتؤول إلى ورثته بعد مماته . وأن الواقف لا يلزمه الوقف فيجوز له أن يرجع فيه حال حياته . وأن لزومه فى شأن الثمرة كلزوم النذر ، يبتغى به من نذره ثواب الآخرة ، ولا يمكن إجباره عليه بحكم القضاء .

لكأنما كانت بصيرته تخترق العصور من خلال الحجب ، وترى الرأى الحى الذى تهوى إليه أفئدة الناس بعد قرون وقرون .

* * *

ويطول بنا السرد لو رحنا نتقصى وقائع التيسير فى تفكير أبى حنيفة فلنقتصر على بعض الأمثال .

بين الكتاب العزيز فرائض الوضوء حيث قال : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) .

فإذا طبق أبو حنيفة هذه الآية لم يحملها غير ما حملت من الفروض الأربعة وهى غسل الوجه وغسل الأيدى ومسح الرأس وغسل الأرجل .

أما غيره فقالوا إن على المتوضئ أن ينوى أنه سيتوضأ قبل أن يتوضأ . وإنه إذا غسل عضواً قبل أن ينوى ، وجب عليه أن يعود فيغسله بعد أن ينوى . أما هو فلا يجعل النية فرضاً ، وعنده أن الرجل إذا دخل الماء قصد النظافة فعم الماء أعضاء الوضوء صحت صلاته ، لأن الصلاة تتوقف على الطهارة وقد تمت له الطهارة .

وقالوا إن على المتوضئ أن يتبع ترتيب الآية : الوجه فاليدين فالرأس فالرجلين ، أما هو فلا يرى ذلك فرضاً .

وقال قائلون إن على المتوضئ أن يتابع غسل العضو بغسل العضو الذى يليه قبل أن يجف العضو الذى تم غسله ، لكنه لا يرى ذلك فرضًا ، ولا كراهة عنده إذا لم يتتابع الغسل فلربما ينسى المتوضئ . ولربما يفرغ الماء فيعمد إلى إحضار غيره ويجف فى إبان ذلك العضو المغسول .

وبينما ينتقض الوضوء فى المذاهب الأخرى بمجرد لمس النساء والأجنبيات ، بشهوة عند البعض ، وبغير شهوة أى لمجرد اللمس عند البعض الآخر ، يرى الحنفية أن الوضوء لا ينقضه اللمس وإنما تنقضه المباشرة الفاحشة . .

تلك نظرات الأستاذ المسماح ، يخفف على الناس أعباءهم ، ويكفيهم خطر إعادة الوضوء فى كل وقت ، وخطر فراغ الماء فى أزمنة وأمكنة لم يكن فيها ميسوراً كما نجده الآن .

وكما يسر الأستاذ على المتوضئين يسر على المصلين .

فهو لا يكلف من يصلى بأن يرفع يديه إذ يفتتح الصلاة ، وهو يجيز أن تفتتح الصلاة عنده بعبارة « الله أكبر » بلغة أجنبية وإن كان المصلى قادراً على النطق بها باللغة العربية . لأن المطلوب هو تعظيم الله . وهو سبحانه وتعالى يعظم بكل لسان . بل هو لا يشترط فى الافتتاح لفظ التكبير نفسه ، بل يصح بالتسبيح كقول المصلى « سبحان الله » أو بالتهليل كقوله : « لا إله إلا الله » .

وهو وحده من الأئمة الذى أباح قراءة القرآن فى الصلاة باللغة الأجنبية مع قدرة المصلى على قراءتها بالعربية — ولو أنه قيل إنه رجع عن ذلك الرأى .

وكما يسر على المصلين المقيمين ، يسر على المسافرين . فأوجب عليهم أن يقصروا الصلاة الرباعية (ذات الأربع ركعات) وأن يجعلوها ركعتين . ولم يكتف بتجويز ذلك لهم كغيره بل أوجب عليهم التيسير إيجاباً . . وحقيقة مذهبه فى ذلك أن الله لم يشرع فى السفر إلا ركعتين فلا يلزم المسلم أن يصلى أربعًا ، ولو نوى أن يصلى أربعًا لا يقع فرضًا إلا ركعتان والباقى نافلة .

وتجاوز التيسير عنده العبادات ليتجلى فى أبهى مجاليه فى المعاملات . لقد

انعكست أشعة الفكر العملى على كل فرع من فروع مذهبه وغدا « المعروف عرفاً كالمشروط شرعاً » وصارت « العادة محكمة » حتى إذا عمد تلميذه محمد إلى وضع أحكام الصباغة لم يقتصر على تطبيق قواعد الفقه ، بل قصد إلى الصباغين يدرس معاملاتهم بين ظهرانيهم .

وتوج الأستاذ سماحة الرأى وسماحة النفس بسماحة اليد البيضاء ، فجعل من ذاته ومن حياته ملتقى يتجمع عنده وتصدر منه المعانى الرفيعة فى النظم السياسية والاجتماعية المسيطرة فى القرن العشرين للميلاد . إذ كان — وهو التاجر العريض الثراء — يخرج عن أكثر ماله للفقراء . ولا يستبقى لنفسه منه إلا قدراً محدداً «أربعة آلاف درهم» هو مقدار نفقته . وما عداه لا يراه حقاً لنفسه بل يراه من حق الناس . وبهذا سبق الفيلسوف الروسى تولوستوى بأحد عشر قرناً . وأضاف إلى سماحة الفكر والنفس اشتراكية الأستاذ الذى لا يختص بماله تلاميذه ، بل يشرك فى أمواله الناس جميعاً، معلناً لهم أن ما يصيبونه منه ليس إلا حقاً لهم وإن كان الله يجريه على يديه.

* * *

كان أسلوب الأستاذ الفكرى هو الأسلوب العلمى الحديث وإليك بعض الأمثال :

فالنوايا فى فقهه كالبواعث فى الفقه ليست هى الأسباب ، والأحكام تبنى على الأسباب لا على النوايا لأنها ليست ظاهرة ، فإذا ساءت النية وظلت خافية ، وحسن السبب وبرز للأعين ، فإن التصرف يصح شرعاً فى أمور مدنية ، وبهذا تجرى الأحكام على المعلوم لا على المجهول وعلى اليقين لا على الريب ، وعلى الحرية لا على التحكم .

وإن من قواعده أن اليقين لا تزيله الشكوك :

فإذا كان زواج المتعة محرماً شرعاً لأن المقصود به استمتاع الرجل بالمرأة من الزمن على غير ما يرمى إليه الزواج الصحيح من ارتباط الزوجين رباطاً أبدياً ، فقد ذهب البعض إلى إبطال الزواج إذا كان قصد المتعة فيه مضمراً عند العقد لكن الأستاذ يرى البحث فى النوايا مخطرة يكتنفها من الأخطاء قدر ما يحدق بها من الأخطار ، فإذا كان قصد المتعة خافياً عند العقد فكيف يتأكد منه الناس ولهذا أباحه وإن نوى الرجل أن يبقى زواجه مدة نواها ما دام لم يذكرها فى العقد.

ومن الأحكام الشرعية أن المرأة إذا طلقت طلاقاً نهائياً (بائناً) لم تحل لزوجها حتى تتزوج من سواه ثم تطلق منه . يريد الله بذلك أن يهذب أنفس الناس ويبين لهم أن الطلاق أبغض الحلال إليه فلا يستعمل إلا عند انقطاع الأسباب ، وأن على من جازف بالطلاق أن يدفع مثلما اندفع فيرقب خيبة الزواج الثانى . والتسريح من الزوج ، وقبول الزوجة أن تعود إليه ، وهى احتمالات آخرها أعسر من أولها ، يتنقل فيها المطلق من مجهول إلى مجاهيل، تعذبه فكرة انتقال الزوجة على هذا النحو الذى تفزع منه الطبيعة البشرية .

ولكن ما القول إذا اتفق (الطرفان) والزوج الجديد على أن يكون الزواج الجديد طريقاً للوصول إلى الزواج القديم ، وأن الزوج الجديد ليس إلا « المحلل » الذى يعقد على المرأة فيتزوجها على أن يطلقها لتعود إلى الزوج القديم .

هل يتحقق فى هذا الزواج قصد الشارع ، أو هو غير مقصود لذاته ،وإنما مقصود به ذات السيد القديم ؟

فى هذه المسألة ذهب أئمة الفقه مذاهب شتى ، وبحسبنا أن نعرض بعضا منها :

قال أبو يوسف : إن زواج المحلل فاسد ولا يحل للزوجة أن تعود للزوج القديم . وقال محمد : إن زواج المحلل صحيح لكن الزوجة لا تعود للزوج الأول لأنه يستعجل ما أخره الشرع فيعامل بنقيض قصده .

وقال مالك : إن زواج المحلل فاسد ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب الشهود إن علموا .

وقال ابن حنبل : إن الزواج باطل .

أما الشافعى فله رأى وسط بين الآراء انتهى إليه بعد أن قدم إلى مصر قال : إذا ورد عقد زواج المحلل مطلقاً بلا شرط فيه وكانت نية الزوج ألا يمسكها إلا قدر ما يصيبها ليحللها لزوجها الأول فإن الزواج صحيح ولا تفسد النية شيئاً منه لأن النية حديث نفس ، وقد ينوى الشخص الشىء ولا يفعله . أما إن تزوج الرجل بشرط أن ينتهى الزواج بالدخول واللمس ليحلها من زوجها الأول فهذا العقد باطل

تلك آراء الأئمة فى التحليل مختلفة كما ترى ، وهى من قديم ليست محلا للاتفاق .

أرسلت امرأة إلى رجل فزوجته من نفسها ليحلها إلى زوجها فأمره عمر بن الخطاب أن يقيم معها ولا يطلقها وأوعده إن هو طلقها أن يعاقبه .

أما الإمام الشعبى فقال : لا بأس بالتحليل إن لم يأمر به الزوج .

وأما الليث بن سعد — إمام مصر — فرأى رأيًا رشيقًا قال : إن تزوجها ثم فارقها لترجع إلى الأول فإن بيّن الثانى ذلك للأول بعد دخوله بها لم يضره .

وهذا الإحسان الكريم الذى يشير به الليث قد روى مثله عن أبى الشهداء وشهيد كربلاء حتى ليخيل للباحث أن صنيعه قد ألهم الليث فكرته جملة وتفصيلا . قالوا : إن الحسين بن على لم يتزوج أرينب بنت إسحق رغبة فى مالها أو جمالها . فلقد كانت زوجة عبد الله بن سلام إذ خدعه معاوية فأنفذ إليه الرسل أن سيزوجه من بنته ، وأفهم عبد الله أن بنت أمير المؤمنين لا ترضى أن تكون لها ضرة ، فطلق أرينب فى انتظار بنت الخليفة ! ثم مضى رسول آخر إلى أرينب فى العراق يخطبها لولى العهد يزيد بن معاوية — وكانت قد شغفته حبا ، فلجأ إلى أبيه يستفتيه فدبر له الأمر على ما نرى — حتى إذا بلغ الرسول العراق لقى الحسين ، فقال له الحسين إذ عرف رسالته : إنى كنت عزمت على الزواج منها وأردت الإرسال إليها ولم يمنعنى من ذلك إلا سؤال مثلك . فاخطب رحمك الله على وعلى يزيد ولتختر من اختاره الله لها ، فلما عرض الرسول الأمر عليها قالت : « اختر لى أرضاهما لديك » ، قال : إنما عليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك وإنما أنا ابنة أخيك . فلما لم يجد بدًّا من القول قال : (ابن بنت رسول الله أحب إلىّ) .. فاختارته وساق الحسين إليها مهرًا عظيمًا . وبلغ معاوية ما كان من فعل رسوله قال : من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب من أمره خلاف ما يهوى ولقد كنا بالملامة منه أولى حين بعثناه .

وكان عبد الله قد استودعها قبل الطلاق بدرات مملوءة درًّا ، فاحتاج إليها بعد أن أهدره معاوية ، وقصد إلى الحسين يعلمه خبر ودائعه : فلما أخبرها الحسين

قالت : هى عندى بطابعه الذى طبعه عليها ، قال الحسن لعبد الله : ادخل عليها وتوف مالك . قال : أو تأمر بدفعه إلىّ جعلت فداك . قال : لا حتى تقبضه منها كما دفعته إليها ، فلما دخلا عليها أخرجت البدرات وقالت له : هذا مالك فشكر لها ، وخرج الحسين ففض عبد الله خاتم بدرة ، فحثا من الدر حثوات ، وقال خذى فهذا قليل منى إليك ، واستعبرا جميعاً أسفاً على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذى سمع منهما فقال : . . أشهد الله أنها طالق ثلاثاً . . اللهم إنك تعلم أنى لم أستنكحها رغبة منى فى مالها ولا جمالها ولكنى أردت إحلالها لبعلها . ولم يأخذ مما ساق إليها فى مهرها قليلا أو كثيراً . وحاولا أن يرداه إليه فلم يقبله وقال : الذى أرجو عليه من الثواب خير لى منه . فتزوجها عبد الله وعاشا متحابين حتى قبضهما الله إليه .

تلك آراء الأئمة ، لكن رأى أبى حنيفة أن العقد صحيح على الإطلاق ولو شرط فيه أنه «عقد للتحليل» أى صرح فيه بأن الزوج يتزوج المرأة ليحلها لزوجها الأول .

تنحصر مطاعن خصوم أبى حنيفة فى هذه المسألة فى أنه يستمسك بظاهر النص حيث تقول الآية : (فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ) ، ويقولون إن الآية يراد بها مؤدى العقد وهو الاستمرار لا حرفية العقد وهى مجرد عمله .

لكن ثمة أموراً متفقاً عليها تضيق بها شقة الخلاف ويبين منها ما يعمد إليه أبو حنيفة من التيسير والتعمير والإصلاح ما استطاع .

فالقبح الذى يستقبحه خصوم أبى حنيفة فى المحلل يستقبحه أبو حنيفة بقدر سواء ، والعقد عنده مكروه كراهة التحريم . ثم إن دخول الزوج الثانى بالزوجة واجب عنده لأن الرسول عليه السلام قد أفهم بذلك امرأة ترافعت إليه فى الموضوع . وذلك رأى الصحابة والتابعين ولم يذهب أبو حنيفة فى مسألة المباشرة — المس — مذهب شرذمة قليلين على رأسهم سعيد بن المسيب لم يوجبوها . فذلك مذهب لا يخفى أنه فى غاية المجانة والفضاحة ولو قضى به

قاض لا ينفذ لوقوعه باطلا ولا ينفذ بالتنفيذ .

فلم يبق إلا الشرط المقرون بالعقد وهو شرط فاسد عند أبى حنيفة ، والشروط الفاسدة عنده تفسد عقود المعاملات المالية ولا تفسد غيرها من العقود كعقد الزواج . وإنما لكل امرئ ما نوى وقد سلك الطريق المفضية إلى الزواج فى ظاهر الشرع .

ثم إن المحلل غايته أنه نوى الطلاق إذا وطىء المرأة وهو مما ملكه الشرع إياه ، كما لو نوى المشترى إخراج المبيع من ملكه إذا اشتراه ، أو نوى فى عقد الشراء إتلاف المبيع وإحراقه ، أو إغراقه ، فلا يقدح ذلك فى صحة البيع ، ولو اشترى عصيراً فى نيته أن يتخذه خمراً ، أو جارية وفى نيته أن يكرهها على البغاء . أو سلاحاً وفى نيته أن يقتل به معصوماً ، فكل ذلك لا أثر له فى صحة البيع .

فالتمسك بصريح النص ليس احتيالا ، والكراهة الدينية شىء وانعقاد العقد القانونى شىء آخر ، والدين لله ، والدنيا لنا .

وإذا طبق الفقيه النص تطبيقاً يتحمله ظاهر النص وصريح اللفظ ، فليس ذلك احتيالا كما يحتال أرباب الحيل الممقوتة ، مثل التحايل للربا ، أو لمنع الصدقات ، كمن يفتى الرجل بأن يهب ماله لآخر إذا أوشك العام على الانتهاء ثم يستوهبه إياه فلا يتم عام على المال فى يديه ولا تستحق عليه الزكاة ، وكالارتداد لفسخ الزواج ؛ أو ذلك الساخر الذى حلف ألا يأكل رغيفاً أو قطفاً من العنب أو قمحاً ، فأحل نفسه من اليمين بأن أكل الرغيف إلا لقمة ! والقطف إلا حبة . . ! وطحن القمح وأكله خبزاً ، فذلك هزل بارد لا يستساغ .

وبحسب أبى حنيفة فخراً أن التاريخ لم يرو عنه أنه سخر براعته فى التخريج والتكييف لخدمة سلطان أو نصرة ذى جاه .

قال الشعبى : « لا بأس فى الحيل فيما يحل ويجوز ، وإنما الحيل شىء يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج به إلى الحلال ؛ فما كان من هذا ونحوه

فلا بأس به . . » وحضر سفيان الثورى مجلساً فلما أراد الخروج منعوه فحلف أن يعود ، ثم خرج وترك نعله كالناسى لها فلما خرج عاد فأخذها وانصرف .

ورأت امرأة عبد الله بن رواحة زوجها على جارية له فذهبت وجاءت بسكين فصادفته وقد قضى حاجته فقالت : لو وجدتك على الحال التى كنت عليها لوجأتك ! فأنكر ، قالت : فاقرأ إن كنت صادقاً . قال :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا !

قالت الساذجة : آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى !!

وبلغ ذلك النبي فضحك ولم ينكر عليه هذا التحيل بإظهار القراءة لما أوهم به زوجته أنه قرآن تخلصاً من غضبها، لتفهم أنه ليس جنباً حيث لا يقرأ القرآن إلا المطهرون .

ولئن ثار البعض على الاحتيال ، فكم فى فقه أبى حنيفة من الأصول التى تثور فى وجه الاحتيال . وكم باهى الفقهاء بالحيل فى حل مشكلات الإيمان .

بحسبنا أن نستعرض أحد المخارج التى أدهش بها الليث بن سعد بلاط الرشيد : قالوا إن هارون الرشيد جرى بينه وبين زوجته كلام فقال لها : « أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة » ، ثم ندم واستحضر العلماء من شتى الأقطار فلما اجتمعوا سألهم فاختلفوا : : وكان فى آخر المجلس شيخ هو الليث بن سعد سأله فقال : إذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم ، وأمر بإحضار مصحف ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فلما انتهى إلى قوله تعالى : « ولِمَنْ خافَ مَقام ربِّه جنَّتان » قال : أمسك يا أمير المؤمنين . ثم استحلفه با الله قائلا : إنى أخاف مقام ربى فقال : يا أمير المؤمنين فهما جنتان لا جنة واحدة ! قالوا فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر — ولا جرم كان الستر يحجب كواكب القصر — ! — فقال له الرشيد : أحسنت ، وأمر له بالجوائز والسلع وأمر له بإقطاع الجيزة ، بل لا يتصرف أحد فى مصر إلا بأمره .

ورووا من حيل أبى حنيفة أن رجلا أتاه بالليل فقال : أدركنى قبل الفجر وإلا طلقت امرأتى . قال : وما ذاك ؟ قال : تركت الليلة كلامى فقلت لها إن طلع الفجر ولم تكلمينى فأنت طالق ثلاثاً . وقد توسلت إليها بكل أمر أن تكلمنى فلم تفعل — قال الشيخ : اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر فلعلها إذا سمعته أن تكلمك واذهب إليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن : ففعل الرجل وجلس يناشدها وأذن المؤذن فقالت : طلع الفجر وقد تخلصت منك ! قال : قد كلمتنى قبل الفجر وتخلصت من اليمين

أما مخارج أبى يوسف فكانت غذاء شهياً للرواة . وسنرى فيما بعد بعض ما قدموا إلينا منها .

فى فترة معاصرة وضع كتاب أسماه صاحبه (كتاب الحيل) نسبه خصوم أبى حنيفة إلى آبى حنيفة وقابله الرأى الفقهى فى كل مكان بالاستنكار لما فيه من مخارج تؤدى إلى الكفر الصراح .

ومن المقطوع به أن أبا حنيفة أو أحداً من صحبه لم يضعه فإن مذهبه ومذهب صحبه أن من يأمر بالكفر كافر .

ولم يذكر أحد من تلامذته أو رواة مؤلفاته كتاباً له من هذا القبيل ولا روى ذلك أحد من الثقات .

قالوا : « ما وضعه إلا إبليس » ، فقال عبد الله بن المبارك : « الذى وضعه أبلس من إبليس » . وابن المبارك — كما قد علمت — تلميذ أبى حنيفة .

* * *

كان الأسلوب التعليمى لأبى حنيفة يضاهى الأسلوب التعليمى فى أحدث الجامعات من حيث التحليل والتعليل ، وتأصيل الأصول ، وترتيب النتائج مع التجرد العلمى ، تجرى فيه التطبيقات على وقائع حية تنطبع فى الذهن وتنضبط فى الوصف ، لأن العمل وحده هو الذى يثبت العلم ويثبته ، ولهذا

أنشئت نظم « الأقسام » فى الجامعات لتدريس التطبيقات ، وهذه الدراسات العملية فى القانون تقابلها دراسة التشريح فى الطب . ودراسة المعامل فى العلوم وما إليها .

ولعلك لا تجد قضية كقضية « أم عمران » بين القضايا التى يتدارسها الطلاب فى معاهد القانون ، استعرضتها مدرسة أبى حنيفة أيما استعراض ! شهدت الواقعة ، وشهدت المحاكمة ، ثم تولتها بالبحث ، والنقد ، وتناولت الحكم الصادر فيها بالتعليق الدقيق :

كانت بأم عمران جنة وكانت بإزاء جامع الكوفة فمر بها رجل فتناوشا فقالت له : يا ابن الزانيين .

وكان القاضى فى المسجد قد سمع السباب . فأمر الرجل أن يدخل أم عمران عليه فى المسجد فأدخلها ، وأقام عليها حدين ، حداً لأبى الرجل وحداً لأمه :

وعرفت حلقة أبى حنيفة هذه الواقعة وهى على قيد أذرع من المحكمة فى المسجد الجامع فلم تهن فى انتقاد القاضى ، وقلب أستاذها له الأمور إذ رد قضاءه إلى الأصول ، أو إن شئت تعبيراً عصرياً فقل أخذ « يكيف الواقعة » و « يناقش التطبيق » وقال :

أخطأ ابن أبى ليلى فى ستة مواضع . . !

الأول : أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فى المساجد .

الثانى : وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً .

الثالث : وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ولو أن رجلا قذف جماعة كان عليه حد واحد .

الرابع : وجمع بن حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما :

الخامس : والمجنونة ليس عليها حد .

السادس : وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان .

فالجنون كمانع من موانع العقاب ، وتعدد العقوبات ، وتعدد الجرائم ،

وطريقة المحاكمة ، واختصاص المحكمة ، وقضاء القاضى بعلمه ، ومكان التنفيذ ، كل أولئك أمور تكاد تكون أم الكتاب فى الفقه الجنائى ، وثبت إلى خيال الشيخ فور البديهة فى مكان الحادث ، وفى وقت وقوعه ، فعلمها تلاميذه .

كان ذلك شأن أبى حنيفة فماذا كان شأن القاضى ؟

وهو من هو فى تاريخ الكوفة : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، صاحب الرأى والأستاذ الأول لأبى يوسف ، وثالث ثلاثة من جلة الفقهاء كانت تلمع أسماؤهم فى سماء العراق عامة وفى الكوفة خاصة ، شريك النخعى وسفيان الثورى وهو :

إنه لم يقرع الحجة بالحجة ولكنه راح يقرع باب الأمير .

وشكا للأمير فأمر الأمير أبا حنيفة بألا يتعرض لقضائه .

لكن أعداء العالم كأوليائه فى الحاجة إليه سواء ، فقد امتنع عن الفتيا أياماً حتى قدم عليه رسول من ولى العهد يستنبئه فى مسائل فقال : أنا محجور علىّ ، وعاد الرسول إلى الأمير وقال الأمير : قد أذنت له فقعد فأفتى .

سأل رجل أبا حنيفة عن فتح خوخة فى حائطه فقال : افتح ما شئت : ولا تطلع على جارك وشكاه إلى ابن أبى ليلى فمنعه فعاد إلى أبى حنيفة فقال : افتح فيه باباً ، فمنعه ابن أبى ليلى ، فعاد إلى أبى حنيفة فقال : كم قيمة حائطك ؟ قال : ثلاثة دنانير قال : اهدمه ولك على الثلاثة : فجاء ليهدمه فرفعه الجار إلى ابن أبى ليلى فقال ابن أبى ليلى : يريد هدم حائطه وتسألنى أن أمنعه ؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت فى جدارك . قال الجار : كان فتح الخوخة أهون على !!

وهكذا حاور القاضى والخصوم بين يديه حواراً عملياً أخضع الأشخاص كالأشياء والآراء لسلطانه .

وفى ذات يوم اجتمع الفقهاء لدى الأمير يستفتيهم ، فأدلى كل برأيه ،

وأدلى أبو حنيفة برأيه ، وأدلى الحسن بن عمارة برأيه ، فقال أبو حنيفة : أخطأنا وأصاب الحسن .

وقال الحسن : لوشاء أن يقيم قوله ويردنى من قولى لأمكنه ، فعلمت أنه ليس أورع منه .

بهذا وأمثاله كان الحسن يأخذ بركابه وهو يقول : « والله ما أدركنا أحداً تكلم فى الفقه أبلغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنك لسيد من تكلم فى الفقه فى وقتك غير مدافع ، وما يتكلمون فيك إلا حسداً » .



الباب الخامس

التلاميذ

« العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت إذ تعطيه كلك من إعطائه البعض على غرر » .
(أبو يوسف)



آلت إلى أبى حنيفة رياسة الحلقة وهو فى الأربعين بعد أن ظل عاكفاً على أستاذه قرابة عشرين عاماً سبقتها دراساته ورحلاته ، فإذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة : وإن أول ما يعظهم به هو ذاته ، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للإفتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهنى والاستعداد الروحى :

مرض أبو يوسف مرضاً أشفق عليه منه فكان يتعهده حيناً بعد حين ، وسار إليه آخر مرة فرآه مقبلا بعد أن أبل فرجع ثم قال : «كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير » . فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبى حنيفة ، وقصد إليه الناس يتحلقون حوله . وافتقده الشيخ فعلم جملة الخبر : فطوى السنين القهقرى واسترجع الذكرى . نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه فى نحو الثلاثين فى ضحوة العمر . والدهر صفو والزمان غلام ، يوم غره الغرور فتخيل ثم خال ، فعزم الفصال من أستاذه : وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم يتخل عن تلميذه ، ودعا إليه صديقاً سيره إليه يحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول فى رجل دفع إلى قصار (وهو الخياط الذى يقصر الثياب) ثوباً ليقصره بدرهم . فصار إليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره . ثم إن صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فرده إليه مقصوراً فهل له أجر ؟ فإن قال له أجر قل أخطأت : وإن قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب فى صباه يعمل عند قصار صبياً (وكان أبوه على ما قيل خياطاً) ولعل هذا سر اختيار السؤال . فإذا عجز الأستاذ الحدث عن

الجواب فى مسألة له بها من كل ناحية عهد ، فتعساً للعلم الذى يدعيه :

ومشى الرسول يحث الخطى إلى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ يجيب، قال له أجره : قال أخطأت . فأطرق ملياً ثم قال لا أجرة له : قال أخطأت. وعميت الأنباء على الفتى فأبلس ، وأسر الندامة لما رأى الخطأ : : وانطلق من مجلسه انطلاق السهم إلى الرمية إلى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة : أظن ما جاء بك إلا مسألة القصار .

قال أبو يوسف : بلى :

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتى ، وقعد مجلساً يتكلم فى دين الله وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب فى مسألة من مسائل الإجارات !!

أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمنى :

أبو حنيفة : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه ، وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه :

أبو يوسف : !!

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليبك على نفسه . . ؟ !

وبكى أبو يوسف على نفسه مدراراً وعاد إلى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره. ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة : « اعلم أن العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لا بد منه فى المفازة مع الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير » أو قوله : « من تكلم فى شىء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت فى دين فقد سهلت عليه نفسه ودينه » ، وقوله : « من طلب الرياسة فى غير حينه لم يزل فى ذل ما بقى » ولذكر قول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » :

ولما تقـدم حماد بن أبي حنيفة يوماً ليصلى بالناس أخـذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره ، وقدم غيره ، فقال حماد : يا أبت تفضحنى ! قال : « بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك إذ لو صليت فقال قائل أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسطر فى الكتب ويبقى عاره إلى يوم القيامة ! » .

ولما أخذ يعلمه وجهه إلى دراسة علم الكلام حيناً ثم صرفه عنه فجادله حماد بقوله : « ألست كنت تأمرنى به » . قال : « بلى وأنا اليوم أنهاك عنه » ، قال « ولم » ؟ قال « يا بنى إن هؤلاء المختلفين فى أبواب الكلام ممن ترى كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة والاختلاف » ، ثم قال : « كنا نجتمع وكأن الطير تخفق على رءوسنا . . وقد بلغنى أن قوماً يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام . . وإنما همة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه فإذا بلغ الكلام هذا الحد ، فتركه خير » . وفى عبارة أخرى من عباراته : « كنا نناظر وكأن على رءوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم » .

وإذا كانت هذه نظرة أبى حنيفة إلى العلم وأهل العلم وهذا إنصافه للعلم من نفسه ومن ولده ، فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم .

كلا : بل إنه ليضيف يداً إلى أياديه عليه فيهديه . ويجادله بالتى هى أحسن ، لا بقوارص الكلم ، ولا بمواجهة ثقته فى نفسه مواجهة المستزرى لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه . ليكون فى حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب :

ولقد كان هذا الصنيع الذى صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفتة الأستاذ الموفق يهدى فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ ، لكان محتملا أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدى ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظاً غليظ القلب ، ولم يمكر بتلميذه ذلك المكر الجميل :

وما أعظم ما يؤتى حسن التعبير من ثمرات : رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له

تكون أطول أهلك عمراً فأعطاه وكرمه وقربه . .

عاد أبو يوسف إلى الحلقة بعد أن تعلم فى هذا الدرس جماع علومه فأضحى يقول : « العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت إذ تعطيه كلك ، من إعطائه البعض على غرر » .

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم . ولو حاولنا أن نستقصى مظاهر هذا البر لكنا كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء .

* * *

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة ، وبفن آخر هو الطريقة المثلى للإقناع هو الذى يحدث الجرس الأخاذ ، والرنين النفاذ ، ويحيل الصعاب بسائط . . هو تقديم العلم فى وعاء من الحب ، وخروج الكلام من القلب إلى القلب ، واستيلاء المتحدث من فوره على الروح .

وليس يستطيع ذلك إلا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع فى طاقتها أن تبعث إلى أنفس الناس شعاعاً دافئاً دافقاً كأنه الكهرباء :

قال الحسن البصرى للواعظ الذى نفرت نفسه من كلامه : « يا هذا . . إن بقلبك لشرًّا أو بقلبى » :

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس . كما تجلت فى مناهج الدرس فسيطر على تلاميذه بالقصد والترفق ، والصبر والترفع ، فلم يكن يؤكل فى حلقته لحم الصديق ولا لحم الخصم . وسما عن مناوأة خصومه إلى الاستغفار لهم ، فملك ألباب تلاميذه وبهر أبصارهم ، وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان يسقيان من ماء التسامح ، وأن المؤاخاة فيهما أدنى إلى الهدى من الملاحاة ، وأن الغيبة قذف فى السامع قبل أن تكون قذفاً فى الغائب ، وأنها على كل حال لعنة على المغتاب .

وتواضع الأستاذ لله فرفعه فى أعين الناس وتلاميذه ، وبصروا منه بما يبصر به المقربون ، وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء . وأعزهم الله به وأعزه بقرباهم و « لا وحدة أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثورى يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة

عن الغيبة — ما سمعته يغتاب عدوًّا له ! قال : هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل : يتكلمون فيك ولا تتكلم فى أحد ! قال : « هو فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ومن بعد ذلك ببضع قرون قال الحكيم الفرنسى لا برويير : « إن التواضع بالنسبة للشخصية كالظلال بالنسبة للصورة توضحها وتظهرها وتجليها » .

ولما سئل الفارابى : « أنت أعلم أم أرسطو»؟ قال : « لو أدركته لكنت أحسن تلاميذه » وقال : « قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أنى أحتاج لمعاودته » .

قيل لأبى حنيفة اتق الله . فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال : « يا أخى جزاك الله خيراً ، ما أحوج الناس فى كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .

ولم يدخل عليه داخل وخاض فى حديث الناس إلا قطع عليه خوضه . . وكان يقول : « إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس ، عفا الله عمن قال فينا مكروهاً ورحم الله من قال فينا جميلا . تفقهوا فى دين الله . وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم » .

قيل له هذا الذى تفتينا به هو الصواب بعينه . قال : « ما أدرى عسى أن يكون الخطأ بعينه » .

وقال يهذب تلميذه يوسف السمتى قبل خروج يوسف إلى البصرة : « . . . ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك . . ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن الجميل . . وأفش السلام ولو على قوم لئام » ثم كشف له عن السحر الذى يسحر به الفقيه مناظريه قال : « ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس ، أو ضمك وإياهم مسجد ، وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافاً ، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا ، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ، فإن قالوا هذا قول من ؟ قل بعض الفقهاء ، فإذا استمروا على ذلك

وألفوه ، عرفوا مقدارك وعظموا محلك : وإياك والحقد وإن غدروا بك ، وأد الأمانة وإن خانوك » :

قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه : ويقول اشكر الله تعالى فإنما هو رزق ساقه الله إليك .

كان هذا الخميص الصائم الذى لا تجد فى داره إلا البوارى يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ، ويبعث البضائع إلى بغداد فيشترى الأمتعة ويجمع الأرباح ليشترى بها حوائج المتعلمين ، يقوتهم ويمونهم ، ثم يدفع إليهم الدنانير قائلا : « أنفقوا فى حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فإنها أرباح بضائعكم ، مما يجريه الله لكم على يدى . . »

* * *

فلنختصر فى السرد ولندع عنان الحديث لأبى يوسف حيث يقول :

« كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال ، فجاءنى أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال لى : يا بنى لا تمدد رجلك مع أبى حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش : فقصرت عنه كثيراً فى الطلب وآثرت طاعة أبى . فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدى : فجلست . ولما انصرف الناس دفع إلى صرة وقال : استمتع بها فإذا فيها مائة درهم . وقال لى : الزم الحلقة فإذا فرغت هذه فأعلمنى : فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت » .

كان أبو يوسف فى نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع . جاء إلى الحلقة تاركاً حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى . وقد قصصنا من قبل بعض آثاره .

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب المجد جميعاً : **العلم الدينى** ، والعلم الدنيوى ، وأموال تكاد لا تحصى ، ووظيفة

دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هارون الرشيد .

فلنرجع البصر إلى روايته مستقرئين : فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله : « لا حسد إلا فى اثنتين ، رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » وبهذين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد ، فيمنح المال فى سبيل الخير ويقضى بالحكمة ويعلمها ، منحاً ليس له أول ولا آخر ، وتعليماً يكاد تضيق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء ، أريحيا مرهف الحس ، يدرك وحى العين ودخائل النفس . يعطى من فوره ، ويعطى فى الميعاد ، وقديماً قال الحكيم العربى : « خير الخير أوحاه » . وأقدم منه قول الرومان : « إن من يعطى فوراً يعطى مرتين » . والبدار فى ذاته فضل . ثم هو يعطى فى غيبة الناس فلا يشهد على العطاء إلا نفس صاحبه ، فى أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه عن مهانة الابتذال .

وأى رشاقة كرشاقة اليد العليا وهى تدفع المال إلى اليد الأخرى دون رنين أو التماع . فتقدمه فى صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب ، فى إسماح يسكر البصر . كل أولئك وهو مع تلميذ له لا بأس عليه إن هو خلع ثياب التحرج من شأنه . لكن القريب عنده كالغريب ، وكذلك الذى ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها ! وكذلك الجليس صاحب الثوب الخلق ، وذلك المدين الذى لا يجلس فى ظلاله ! يصنع الصنيع دائماً فى استخفاء وعلى استحياء ، وفى تلطف كتلطف الملتمس . يقطع بأنها السليقة المطبوعة لا السجية المصنوعة ، فإذا شكر أنكر الشكر ونقله إلى شيخه حماد .

قال أبو يوسف : « وكان يعولنى وعيالى عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيت أجود منك ، يقول : كيف لو رأيت حماداً ، وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه » .

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصي بين الأستاذ ورواده .

قال لأبي يوسف ينصحه : « وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً لتزيدهم رغبة في العلم » وتلك النصيحة هي الصنيع الذي طفق يصنعه طوال حياته ؛ لا ينفك يسأل عن المريض من تلاميذه حتى يبرأ ، وعن الغائب حتى يرجع . وعن غير المريض وغير الغائب ؛ لم يعرف عنه أنه اختص ولده حماداً بعطف كما اختص تلاميذه ؛ قال عصام : « لم يكن لأحد من الحق كما لأبي حنيفة على أصحابه ، وكان الذباب إذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه » .

والذي صنعه مع أبي يوسف في مرضه والذي صنعه معه لما جلس للفتيا ، لم يك إلا أمثالا ميمونة العواقب : ففي واحدة شد أزر فتى كان يومه يبشر بغده . وفي الأخرى دعاه إلى الاستزادة من العلم ، فأوتي منه بسطة سمت به إلى أرفع الذرى بين أئمة الفقه عامة . ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه اليد بقوله : « إني لأدعو له قبل أبوي وسمعته يقول إني لأدعو لحماد مع أبوي » :

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه في حين يسوي أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه . وكلاهما على الإنصاف : لأن أبا حنيفة علمه على رغم أبويه . . وعلى النحو الذي كان يدركه أبو يوسف بقوله : « تغمد الله أبا حنيفة برحمته . وجازاه خيراً ، فإنه أطعمني الدنيا والآخرة إطعاماً » .

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطائه إن الحديث نفسه ليشي بمقدار ما كان يتوخاه من إخفاء — والوقائع التي سردنا من قبل تنم عنه وتقرره — فكم من التلاميذ لم يعلنوا أياديه . . لقد أعلنها الحسن بن زياد إذ كان يلازم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن ؛ وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم ، وأعلنها يوسف ابن خالد السمتي . واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه وإن كان فقيراً أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صيباً من العطاء حتى يتعلم ، فإذا تعلم قال له : قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام . وأجمعوا

أنه كان معروفاً بالإفضال على كل من جمعتهم به الأسباب . ورواية أبى يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مراراً ، ويسره إسراراً . غير ممنون ولا مجذوذ ، ولا مصرد ، مما لا ينقع الغلة .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده أو من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل ، ولوقع أجره على الله . لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء . ويزيده سمواً أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها فى ثواب الآخرة ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالإنفاق ، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم . فالإنسانية العليا هى المبدأ والمنتهى. والأمل المشتهى . لا حسن ثواب الدنيا . ولا حسن مآب الآخرة .

ويرتفع الفضل إلى سماء ما طاولتها سماء إذ يصنعه صاحبه ليمكن الذين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى . نعنى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ .

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى فى حياة أبى حنيفة . وهى قيام مدرسة كبيرة منظمة ، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده فى الإنفاق وفى التهذيب ، فى إخلاص للعلم كأنه العبادة .

جاء إليه رجل بكتاب شفاعة ليحدثه فقال : « ما هكذا يطلب العلم ، قد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيّننّه للناس ولا يكتمونه . لا يكون العالم له خواص . لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه » .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العليم بأن ثروة المفكر هى الفكر ، فإذا خلف المفكرون من بعدهم أفكاراً فقد أنجبوا ، أما ما يخلفون من عروض وأموال فهى كسائر ما يخلف الموتى من العروض . تتناهى فى النقصان قدر ما تتناهى فى التداول والتعامل . وأما الفكرة فهى النور تتناهى فى الانتشار كلما تداولتها الأنفس ، وتتناهى فى الازدهار كلما أرهقتها الأذى ، فلا على صاحب الفكر

إذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الأنبياء لا يورثون ، وأن ما يتركونه صدقة للعالمين ، فإذا سألت عمن تجيء مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشذوذ في السؤال .

إنما يبقى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لا يفنيان كما يفنى المال ويزول ، وإن حفل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى ، إلا كما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد إذ تطبق عليهم أجفان الثرى ،

إنما الفكرة شيء إلهي فهي كائن حي لا يموت . وهي الجوهر الحر الذي يورث . ويدفع الضريبة عنه الموتى والأحياء على السواء — ولا يخلد المفكر إلا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع والأتباع ، ولهذا كان تلاميذ أبي حنيفة قطعاً من نفسه ، ربط بينها وبينهم كماربط بينهاوبين أستاذه في شجرة النسب العلمي يذكرهم مع أصوله وأستاذه كلما مثل بين يدى ربه . قال : « ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدى وإنى لأستغفر لمن تعلمت عليه علماً ، ومن علمته علماً » .

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان إلا من البوارى . وهو هو الذى يوزع الدنانير آلافاً مؤلفة . وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عيال ؟ قال : الله تعالى للعيال . . وإنما قوتي أنا في الشهر درهمان . . ثم قرأ : (وفى السَّماء رِزْقُكُم وما تُوعَدُونَ) .

* * *

أما الظاهرة الثانية فهي أن الرجل الكبير يعنى ، أول ما يعنى ، بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب . وفى تاريخ الحقبة الحديثة خلد جمال الدين الأفغاني بغير مؤلفاته ، وبتلاميذ سموا إلى أرفع ذرى المجد في ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبي . كما كان محمد عبده في الإصلاح الديني ، وسعد زغلول في الإصلاح السياسي ، وإبراهيم الهلباوى في المحاماة ؛ مع قليل من الرجال والمؤلفات ، هي السجل الذين حصر

التاريخ فيه تركة الزعيم الفكرى العظيم الوارد من الأفغان أو من إيران ، وورود آباء الإمام الأعظم .

ولأن يبنى الرجل الكبير رجلا كبيراً خير على الوجود البشرى من كل آثاره ، فكيف إذا بنى رجالا كباراً عظماء .

فلعل النفس الإنسانية خير ما عبرت به يد القدرة الإلهية عن الله سبحانه . والرجل الصالح يبنى الممالك ويقيم المذاهب ويشرع الشرائع ويبنى الرجال من جديد . .

إن من الرجال من كان أجدى على الإنسانية من إحدى القارات الخمس .

لقد كان أبو حنيفة ملهماً عندما احتضن أبا يوسف ومحمداً وزفر والحسن وباقى الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم ، فى جهد يومى متصل ، يهدف إلى غاية كبرى ، تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف، كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع فى النهر الجارى ، فيربو الوشل ، وتصبح الحفنات من الماء فيضاناً زاخراً كالسيل العرم ، تزحم البحر وتعان وجودها فى أجلى مجاليه !

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده ، وأن يجعل من الضعف الإنسانى قوة عارمة ، ومن العمل الفردى عمل فيلق ، ومن الجهد اليومى جهد زمان ، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طنيناً فى سمع التاريخ وأنغاماً فى فم الزمان .

بهذا بلغت مدرسة أبى حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة ، فإذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة ، فيضعون أيديهم على مصاير التشريع الإسلامى فى شتى بقاع الدولة . وغدت الأسماء التى تلوناها قبل ، يتحلق أصحابها حول الشيخ ، سجلا بأسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول . وبدأت حركة التدوين على طراز الإنتاج الضخم الذى بدأه محمد فى كتبه وجرى على غراره الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة فى الزمان كله ، وإذا بالمدرسة تخرج نساكاً وزهاداً إلى جوار الحكام . فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويا لها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلا إلى السعادة فى الدنيا ، لا تبتلا محضاً أو رهبانية خالصة ! وبهذا أقبل الناس

على ارتياده فى سبيل الله ، ومن أجل الحياة ، مدفوعين بالدافع الربانى والدافع الإنسانى معاً .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدولة الإسلامية فى أزهى عصورها حضارة ، أعظم رجالاتها جدارة . نعنى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا فى عين الدولة وأعين الناس . اتجاهاً فكريًّا جديداً هو الاتجاه المفرد الجدير بالإسلام .

* * *

كأن العناية الإلهية قد كشفت لأبى حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف فى قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة : « لكأنى بك قاضيًا » ! وهى النبوءة التى قال عنها الرشيد فيما بعد : « لعمرى إن العلم يرفع دنيا وديناً » وترحم على أبى حنيفة ثم قال : « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف فى السابعة والثلاثين عندما توفى أستاذه كما كان أرسطو فى فى السابعة والثلاثين إذ مات أفلاطون ، ولم يرأس أبو يوسف الحلقة كما لم يرأس أرسطو مدرسة أفلاطون ، وإذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك .فإن رياسة زفر للحلقة بعد أبى حنيفة لم تغضب أبا يوسف ، لما كان عليه زفرَ من العبادة والورع والتكريم فى حلقة أبى حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدى والهادى والرشيد ، وبلغ مجده أوجه فى عهد الرشيد إذ نقلت له عن النظام الفارسى وظيفة قاضى القضاة أو عالم العلماء (موبذان موبذ) . كان هو الذى يوصى الخليفة بتعيين القضاة فى شتى أرجاء الدولة ، وكان يؤاكله ويحج معه — عدلا له على بعير — ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكباً بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد « جاءت به معتجرا ببرده » وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر .

كان معه كأرسطو مع الإسكندر ، تلميذين فى عمر الورود لأستاذين فى خريف العمر . كتب له فى كتاب الخراج يقول : « وقد كتبت لك ما أمرت وشرحته لك وبينته فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإنى قد اجتهدت

لك فى ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً . . . »

وبلغ من الثراء أن قدرت تركته بمليونين . وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه فى مقابر قريش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زبيدة أم الأمين .

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق فى فراشه . سمعه سامع فقال : لو شاء الله أن يجعل العلم فى جوف طير لفعل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثاً فى السماع الواحد ثم يقوم فيمليها على الناس ! . . .

أتيح لفقه أبى حنيفة على يد أبى يوسف ما يتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح إذ يهيىء لها القدر رجالا فى دست الأحكام . وهى ظاهرة تولاها المؤلفون الغربيون فى السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض .

وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقهاً رسمياً بالقضاء وبالإفتاء ، وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه فى كراسى القضاء . حتى صار الناس فى بغداد يسمون مذهب أبى حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبى حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة — كما عبر أحد خصوم أبى حنيفة — (لأن العلم والسلطنة حصلا معاً) :

أو كما قال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بداية أمرهما بالرياسة والسلطان ، الحنفى بالعراق والمالكى بالأندلس .

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفى لقاحاً جدد شبابه وأكسبه المناعة ، هو اللقاح العملى الذى يتجاوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة ، وبفقهاء الأمصار ، وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها فى الحضارة .

وفرض أبو يوسف سلطانه فى كل مكان حتى إنه ليجعل ابنه يوسف قاضياً على الجانب الغربى من بغداد وإماماً للحجيج عندما حج الرشيد وفى صحبته أبو يوسف .

كان شريك خصم أبى حنيفة يحج فى نفس العام وسأل عمن يصلى بالناس ، فقالوا له يوسف بن أبى يوسف قال : الآن طاب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه ويا له من سلطان على صاحب السلطان !

كان إذا حزبت الأمور فزعوا إليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات.

زعموا أن زبيدة غاضبت هارون الرشيد — فحلف الرشيد يميناً بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى بلد يدخل فى ولايته ، فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله فى نفسه ، والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حبًّا وشغفها ، فأظلمت الدنيا فى عينيه ، والظلام فى عين الرشيد هو العمى فى أعين البلاط . . ! فاشتد الخطب وفدح الأمر ، وكلما مالت الشمس فى الأفق ، ودنت حمرة الشفق ، سرت فى أبهاء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . ودارت أعين الحاشية كالذى يغشى عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر الله ؟ . .

ألا إن نصر الله قريب . إن فقيه البلاط بين رجال البلاط ! يا أبا يوسف أفتنا فى أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين !

فليأت أبو يوسف بالخوارق . قال . . فلتبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد فإنه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد . .

والله سبحانه وتعالى يقول : (وأنَّ المساجِدَ لِلهِ فلا تَدْعوا مَعَ اللهِ أحَداً) .

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لإمامة المسلمين فصلى الرشيد ركعتين وسلم ، ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهله مكة : يا أبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت فى صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبهت الرجل . لكنه استمر يقول : نحن مهبط الوحى وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت إلينا فى الشعاب والأودية فاستقرت عندنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف فى حضرة الخليفة . . !

أفلم يكن الرشيد على حق إذ يقول : « هاتوا لى مثله » !

خوصم إليه أمير المؤمنين الهادى فى بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له ، لكن الحق كان لخصمه ، قال الهادى لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر الذى نتنازع إليك فيه ؟

قال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده على حق ، قال الهادى : وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبى ليلى يراه : قال الخليفة أرد البستان عليه . . . !

لكنه إذ يحتال ليرد الهادى بستان الرجل إليه لا يحتال من أجل من دونه : شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوماً فرد شهادته فعاتبه الخليفة قائلا : لم رددت شهادته ؟ قال : سمعته يقول أنا عبدك ، فإن كان ، صادقاً فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً لكذلك .

بل إنه ليحلف الرشيد فى قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد ! مع ما كان من تسامى السروات ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات إليهم .

جلس الهادى يوماً للمظالم وبجواره عمارة بن حمزة ، فوثب رجل وتظلم من عمارة فى شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم — ادعى أنه غصبها منه . قال الخليفة لعمارة ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال : إن كانت الضيعة لى فهى له ، وإن كانت له فهى له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا : كتبت أم جعفر إلى أبى يوسف تقول ما ترى فى كذا ؟ وأحب الأشياء إلىّ أن يكون الحق فيه كذا . فأفتاها بما صادف هواها ، فبعث إليه بحق فيه فضة ، فيه حقاق مطبقات ، فى كل واحدة منها لون من الطيب ، وفى جام دراهم وسطها جام فيه دنانير : فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » ، قال أبو يوسف : « ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن » .

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتحرج عن قبولها أو لكافأ المهدى بأضعافها .

وفى سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : « اللهم إنك تعلم أنى لم أجر فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً ، وقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم . كلما أشكل علىّ جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه » وعرف الناس وصيته ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لأهل مكة ، و ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لأهل المدينة ، و١٠٠,٠٠٠ لأهل بغداد و١٠٠,٠٠٠ للبلد الذى جعل صبى القصار أستاذاً للرشيد يهب مئات الآلاف ! نعنى به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيبانى فلم يكن من الخلفاء كأبى يوسف ومع أنه تتلمذ على أبى يوسف بعد وفاة أستاذهما ، فقد كانت بينه وبينه وحشة فى آخر أيام أبى يوسف حتى وفاته . ولى قضاء الرقة للرشيد ثم عزل ثم عاد الرشيد فاستقصاه واستقضاه .

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبى حنيفة وأبى يوسف وفقهه هو فى كتب هى السجل التاريخى للمذهب ، أما الكتب المنسوبة إلى أبى حنيفة « العالم والمتعلم » وكتابه لعثمان البتى عن الإرجاء « والفقه الأكبر » ووصية أبى حنيفة إن صحت ، فهى تدور حول العقيدة .

أما كتب أبى يوسف فقد قيل إنها بلغت أربعين كتاباً لم يصل أكثرها إلينا ، وبحسبه شاهداً على عبقرينه كتابه « الخراج » الذى كتبه للرشيد يبصره بالحكم جواباً لطلبه .

وأما كتب محمد فهى المعروفة بظاهر الرواية «السير الكبير والسير الصغير» فى فقه الحرب « والجامع الكبير » وهو فى التفسير والأصول « والجامع الصغير » ، وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة ، والمبسوط أو « الأصل » وسمى كذلك لسبقه الكتب الأخرى فى التصنيف والزيادات وزيادة الزيادات والكيسانيات والرد على أهل المدينة « وهو كتاب رواه الشافعى » وقد قرئ أكثرها على أبى يوسف .

وإذا كان الفقه الحنفى قد دان به الثلثان من أهل الإسلام ، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقى أوربا وبقاعاً من روسيا وأصبح مذهباً رسمياً

فى مصر ، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دبت فيها الحياة ، فإن لهذه الكتب الصغرى فى عددها تلك اليد الكبرى فى آثارها .

إن المبسوط وحده يقع فى ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من ذوات القطع الكبير . . ! كان الفقه بحاجة إلى الصون فحماه محمد بذلك السور المنيع الذى تتألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق :

كان عمل أبى يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازماً للفقه عند النشأة الأولى ليأتلف العلم مع العصر ، ومع الواقع ، ولتحمله إلى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لازماً ليوجه الفقه فى طريق الخلود فتراه العصور جميعاً .

ولما عين محمد فى القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضى القضاة » أن يكون فى الرقة بعيداً عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان . إذ هيأ له نجاة من زحمة العاصمة ولجاجة الحكام ، فتفرغ للعلم حتى عهد فى أعماله الشخصية إلى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف ، وكان يحيل أهله على الوكيل ويقول : « لا تسألونى عن حاجة من الحوائج فإن فيها شغل قلبى وخذوا ما بدالكم عن وكيلى فإنه أفرغ لقلبى » .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهرى بجمع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجته عن مؤلفاته : « هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر » .

رحل محمد إلى المدينة فى حكم المهدى (سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٩) ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطأ » وتعتبر روايته للموطأ من أجود رواياته . واختلط بالكسائى فى عهد الرشيد فعلمه الكسائى اللغة وعلم الكسائى الفقه .

قالوا : جلس الكسائى يوماً يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضى القضاة فقال للرشيد هذا الكوفى قد استفرغك وغلب عليك : فقال الرشيد : يا أبا يوسف إنه ليأتينى بأشياء يشتمل عليها قلبى : لكن جواب الرشيد عن الكسائى لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبى يوسف يقول : يا أبا يوسف هل لك

فى مسألة ؟ فقال : « نحو أم فقه » ؟ فقال : بل فقه ! فضحك الرشيد حتى فحص برجله وقال للكسائى : تلقى على أبى يوسف فقهاً !! قال الكسائى : نعم . يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق أن فتحت الدار (وفتح الهمزة فى أن) قال أبو يوسف إذا دخلت طلقت : قال أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال : الكسائى : إن قال أن وجب الفعل ووقع الطلاق وإن قال إن فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتى الكسائى إلى الرشيد .

ولما حشر الشافعى إلى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمل محمد فى إنقاذه . وتوثقت بينهما عرى الود فبهر لبه .

وقف رجل على الشافعى فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء قال : « وهل رأيت فقيهاً قط إلا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فإنه كان يملأ العين والقلب : وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسن) وقال فيه : « كان محمد إذا أخذ فى المسألة، كأنه قرآن ينزل . لا يقدم حرفاً ولا يؤخر » وقال : « ليس لأحد على منة فى العلم ما لمحمد على » .

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد إلى منزله ويخلو به إلى آخر الليل .

قرأ الشافعى كتب محمد ، بل حمل منها وقر بعير كما قال . فتعلم منها فقه أبى حنيفة وفقه الأقدمين. فها هو ذا محمد تلميذ أبى حنيفة ينهل من مالك وينهل منه الشافعى الذى علم ابن حنبل، فتتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة، ويروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفقهة والناس جميعاً .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الأيوبى أن عالماً يهودياً كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد ، فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبى أشهد أنه على حق . فأسلم .

قال الملك : إن هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه. ومسائله معروفة . فإن من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالماً بارعاً بستة علوم : أولها الكتاب

العزيز ، والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب ، ومن لم يكن مجيداً لهذه العلوم لم يعرفه إلا تقليداً .

أقبل الرشيد يوماً على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمداً ، ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآذن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب ، فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال : «كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها . إنك أهلتنى للعلم فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه ، وإن ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال : (من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) وإنه إنما أراد بذلك العلماء . . . » قال الرشيد صدقت يامحمد .

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويا لها من عقيدة ! لكن الأسمى من العقيدة هوالعمل بها ولا سيما فى حضرة الرشيد وضد الرشيد . . وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء . . . !

لقد كان الرشيد حفيًّا بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العالم .

بلى : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعدم رهوبه كفرد من رعاياه ، يعدل تماماً موقف محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم .

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه «السير» بعث الأمراء — أولاده — لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل بن يحيى البرمكى من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به يحيى من معقله ، وتوشجت المودة بين يحيى والرشيد زماناً حتى رفع السعاة عن يحيى ما يريب ، فسيء به وضاق به ذرعاً ثم حبسه وهم به يريد قتله ، لكن العهد كان مسئولا ، و «المسلمون عند شروطهم» كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ، فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجاً ، ودعا محمداً وأقرأه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد يجادله وهو لا يتحول !

بل قال محمد : ما تصنع بالأمان ، لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً !

وطلب الرشيد فقيهاً آخر هو أبو البختري فقرأ الرجل العهد ، وأفتى بنقض العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وإن شئت فقل غاية فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضي القضاة !

ذلك أبو البختري الذي اختصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب » .

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئاً ؟ قال : حدثني . . عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام . . !

وقف محمد هنا فى وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد . . !

ولم يقف هناك إذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء . . وهناك رضى الرشيد لأنه آثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا ، وهنا لم يرض لأن مصلحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد ، وكان هارون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته ما رأى .

صنع الرشيد ذلك مع أنه كان يبعث إلى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع إلى الفقهاء ، وكان إنفاقه على العلماء إغداقاً ، يعهد بأولاده إليهم ، بل كان يخدمهم: وفد عليه أبو معاوية الضرير وجيء بالطعام فأكل بين يديه . وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال: لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : « أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين فى الآخرة » .

وفى سنة ١٨٩ مات محمد بالري وهو فى صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائي فى نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد : « دفنت اليوم اللغة والفقه » .

* * *

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة يجري اسمهما فى التاريخ على أنهما « الصاحبان » .

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدماً فى مجلس الإمام وبقى طيلة عمره مشتغلا بالعلم ، ولما عرض القضاء عليه أبى فأكره على القضاء واختفى ، وهدمت داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل . ولم يخض الغمرات إلى الدنيا فلم يتعرض إلى ما تعرض له الصاحبان « أبو يوسف ومحمد » .

كان أقيس الحنفية ، وكان أكبر التلاميذ سنًّا فرأس الحلقة لما هوى النجم ولما مات فى الثامنة والأربعين من عمره خلفه فى رياسة الحلقة أبو يوسف .

شك رجل فى طلاق زوجته فسأل شريكًا القاضى فقال : طلقها ثم راجعها . وسأل الثورى فقال : إن كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، ثم جاء إلى زفر فقال : هى امرأتك حتى تتيقن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أستاذه أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ ثم شك فى الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال : أما الثورى فقد أتاك بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل . قلت : لا أدرى أصاب ثوبى بول أم لا . فقال : بل على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبى حنيفة حتى بعد أن مات . .

شهد النضر بن إسماعيل وحماد بن أبى حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر . فقال : لأنه يبيع الصلاة « إذ كان إمامًا فى المسجد يتقاضى فى الشهر دينارين » فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء : « إذ كان قاضيًا بأجر » فأجابه شريك فإذا شهدت عندك فلا تقبل شهادتى ! !

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكًا فلما بصر بهم قال : وراءك يا حماد . . لست كالنضر . أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل السماء . .

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة ، ويأتى بالدليل من غير حشو فإذا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يناظره مرة وهو مستند إلى أسطوانة المسجد منتصبًا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب كثيرة اركض فى أيها شئت. وانتهى الأمر بأبى يوسف إلى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة إلى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الإمام الأعظم : « هذا الإمام من أئمة المسلمين فى حسبه وشرفه وعلمه » .

وفى سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه إلى لقاء إمامهم فى الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤى فقد تتلمذ بعد وفاة الإمام على أبى يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب : « المجرد لأبى حنيفة ، وأدب القاضى . والنفقات والفرائض والوصايا . والخصال » وعمل فى القضاء . وفتحت عليه أبواب السماء برزق منهمر فأضحى — وهو الذى كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبى حنيفة ليمير بناته — أضحى له مماليك يكسوهم مما يكسو به نفسه .

كان يخشى الله فى فتواه . أفتى رجلا فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفاً لديه فاكترى متادياً يقول : إن الحسن أخطأ فى تلك المسألة حتى عاد إليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل إلى الحق .

وكان إذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فإذا قام من مجلس القضاء عاد إلى ما كان عليه من الحفظ ! ! فاستعفى من القضاء .

وفى سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبى حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة فبغداد كلها فالبصرة ، وتخرج ابنه إسماعيل عليه وعلى أبى يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقى ببغداد وبالبصرة والرقة .

وتخلى يوسف بن خالد السمتى للعبادة .

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدى إليه من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيكما مندل — وكان أصغر وأشهر — قال مندل موجهاً نظر الخليفة : هذا حبان .

ويحيى بن زكريا مات قاضياً على المدائن للرشيد .

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ، ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة : أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى . .

وتولى حفص بن غياث للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاماً وقضاء بغداد عامين فحبس المرزبان وكيل زبيدة فى دين !

كان جالساً للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ الخصوم . فلما فرغوا لبى دعوته .

ولما عينه أبو يوسف فى قضاء الكوفة بعث إلى أهلها يقول : يا أهل الكوفة انشروا دفتراً لتكتبوا نوادر قضاياه .

وأما عبد الله بن المبارك فكان إماماً فى الفقه وبطلا فى المعارك . كانت أمه خوارزمية ، وأبوه تركياً ، وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ . ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلى : يروى عنه الإمام أحمد بن حنبل . تولى القضاء للرشيد ببغداد وواسط . . وقيل تزوج ببنت الرشيد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائى أرفع الناس صوتاً فى الحلقة . ينقطع إلى العبادة ويخرج من الدنيا فى حياته ! . . أرسلت إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فأعادها لمصدرها ، وردها المرسل مع بدرة تماثلها وغلامين قال لهما : إن قبل البدرتين فأنتما حران . فذهبا إليه قالا : إن فى قبولك عتق رقابنا . قال : إنى أخاف أن يكون فى قبولها وهق رقبتى فى النار . رداها إليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطينى أنا . . .

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده إسماعيل بن حماد : «أصحابنا ستة وثلاثون رجلا . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبى يوسف وزفر» .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة فى مذهبهم ! وفى سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير فقيل وقيل :

وقيـــل بالتخيـــير فى فتـــواه   إن خالف الإمـــام صاحباه

وقيل من دليله أقوى رجح . .   وذا لمفت ذى اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة وتلاميذه . جاءوا إلى الحلقة غفلا مغمورين . منهم الحفاة والعراة : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمداً للفقه الإسلامى ، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التى نقلها إليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حملوه منها عنصراً أساسيًّا فى نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بما فيه من طابع عملى وعمق فكرى . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو يتحدث عن اعتزاز المتعلمين بالعلم : « . . قال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا ، وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عامًا وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيًا وما هو إلا أن ينظر فى كتب أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين ، حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال . وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكمًا على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان . . »

كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالنور الذى سيجيء . . يدركون وهم بحذاء أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسون وهم معه ما نحسه نحن الآن معهم وما كان يستشعره (ميشيل أنجلو) عندما كان يقرأ هوميروس فيقول : « كلما قرأت هوميروس نظرت إلى نفسى لأتحقق مما إذا كنت قد ارتفعت عشرين قدمًا فوق الثرى . . ! » .

الباب السادس

فى العراق

« الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل
لعربى على عجمى إنما الفضل بالتقوى »
حديث شريف



وبعد فإننا لا نفهم حياة أبي حنيفة إذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة ، فالإنسان ابن آبائه وأقربائه . وأرضه وسمائه وأشيائه: ليست أعصابه التي يحس بها أجزاء نفسه فحسب ، ولكنه يفكر بما في حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

إن هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها . . ! وما أصغر ذلك الشيء البديع المسمى بالإنسان إلى جوار تلك الأشياء الجليلة التي تسمى بالدنيا . وإن كانت من دونه ليست هي الدنيا .

ذر قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول في التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايع الناس عليًّا . واندلع لهيب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحة والزبير ومعهما أهل البصرة ، وأظفر الله عليًّا في واقعة الجمل فنازلت جيوشه في صفين جند الشام إذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه، حتى إذا افتر له ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف محكمًا كتاب الله ، وقبل على التحكيم فخذله الحكمان ، وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسائله : «لم حكمت فيما هو حق لك ؟» وهزمهم بالنهروان: وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة. وأخفقت المؤامرة في عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فوق أعناق الزعماء «الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر» ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار إلى معاوية .

ثم قال : فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد .

ثم قال : فمن أبي فهذا وأشار إلى السيف .

قال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فتلك لغة السيف ، والسيف أصدق أنباء .
ولما تولى يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرماح ، وبعثت الشيعة (أنصار على بن أبى طالب) من أهل الكوفة إلى الحسين يبايعونه فسار إليهم مع أهله ، فقتل هو ، وإخوته ، وأبناء عمه فى كربلاء .

وفى سنة ٦٤ سارت جنود الشام إلى مكة تقاتل عبد الله بن الزبير . إذ بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن ، أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك بن مروان . وولى عبد الله بن الزبير على الكوفة المختار بن عبيد ثم عزله بأخيه مصعب بن الزبير ، ودعا المختار بن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل . وسار عبد الملك بن مروان بجيشه إلى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفى ، فما هو إلا أن التقوا فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت إلى عبد الملك ، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبد الملك !

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبد الله بن الزبير بمكة فأخذ يبرى الرقاب حتى سالت الدماء إلى أبواب المسجد والسكك ، وخرج عليه ابن الأشعث ومعه العلماء ، ومنهم الشعبى فقيه الكوفة ، وسعيد بن جبير فقيه البصرة ، وعبد الرحمن ابن أبى ليلى . وتزاحف الجمعان فى دير الجماجم . وانتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعفا عمن عفا عنه كالشعبى وأهدر دم من أهدر دمه كابن جبير فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك إلى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما وسع من رقعة الإسلام فى أفريقية .

وفى سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفى سنة ٨٩ فتحت صقلية وفى سنة ٩٣ خفقت أعلام الإسلام على سواحل الأطلسى فى الأندلس ، ووقف موسى بن نصير فى ربوعها يفكر فى فتح أوربة . . فأشاروا عليه بالتلبث : فمكث يقول : أما والله لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية !

وفى الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفى ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن على بن الحسين فقتل . وفى سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل فى خراسان .

وفى سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارت الثائرة بين بنى أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكد يهزم الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم فى خراسان ودخل مروق سنة ١٣٠ ونيسابور سنة ١٣١ . وجاء رسله إلى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة ١٣٢ ، وكان التيار فى الكوفة يجرى نحو أولاد على بن أبى طالب فحوله أنصار العباسيين إلى بنى العباس . وهرب مروان إلى مصر حيث قتل .

وفى سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبى حنيفة بثمانى سنوات .

* * *

فى هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الإسلامى وبلدانه : أما المدينة فغنية بتاريخها عن التعريف ، وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عند ملتقى دجلة والفرات (سنة ١٤ — ١٧) لتكون معسكراً تلتجىء إليه الجيوش من برد الشتاء ، فبنى أبو موسى الأشعرى مسجدها من اللبن وسرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها الحضارة ، وفى سنة ٣٦ وقعت فى ضواحيها وقعة الجمل ، وفى سنة ٥٠ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفى (سنة ١٧ — ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبى وقاص بعد موقعة القادسية أن يبنى الكوفة فأقيمت فى موقع صحى على الفرع الغربى للفرات لا ينفصل بينه وبين المدينة جسر ولا بحر ، وصارت ملتقى الطرق ومفترقها بين الشرق والغرب ، وبنى سعد مسجدها فى وسط المدينة وبنيت إلى جواره دار الإمارة . فلم يكد ينتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياماً وأكواخاً . وعمرها أقوام من كل جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكد تبنى حتى سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولاتها فى السنوات الأخيرة لحكمه ثلاث مرات .

كانوا أول أنصار على ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحواً من عشرين عاماً (سنة ٧٥ — ٩٥) ولم تذق الطمأنينة بعد ذلك . حتى إذا

ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيدين عن الكوفة وشغبها وشقاقها ، وهى قصبة الإقليم فى عهد بنى أمية ، وفى عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد .

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشيعوا الحضارة الإسلامية العربية فى الإقليم . لكن العراق صنع بالوافدين إليه وبمن أنسلوهم ما يصنع الإقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عربًا وإن كانت تحمل حضارتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم . طابع الإسلام .

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبى وقاص إلى عمر قائلة إنه لا يحسن أن يصلى ! ! وشكت البصرة أبا موسى الأشعرى لأن له غلامًا ختاراً (غادراً) هو كاتبه زياد بن أبيه إذ كان له مائدة وبرذون . وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله .

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم واليًا .

وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محاربًا فى صفين وهو فى التسعين . وشكوا المغيرة ابن شعبة . وطردوا سعيد بن العاص .

لما قدموا على عمر يشكون سعداً — قال : « من يعذرنى من أهل الكوفة — إن وليتهم التقى ضعفوه وإن وليتهم القوى فجروه » . قال رجل : « أنا أدلك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » ، قال : « من هو » قال : « عبد الله بن عمر » (ابنه) قال : « قاتلك الله : فمنذ اليوم لا أسميك إلا المنافق » ، وقال : « المغيرة يا أمير المؤمنين إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه . والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره » — قال : صدقت فأنت القوى الفاجر . فاخرج إليهم » . وفى فتنة ابن الأشعث بذل رجال الشورى نصحهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيراً فكتب إلى الخليفة : « والله إن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك . ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان

فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ إن الحديد بالحديد يفلح » .

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم الغليان ، قرناً وربع قرن من الزمان ، واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظلوا يرون خلافة الأمويين غصباً وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة على فاتخذوا فى الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية . وما يزال لهم للآن عشرات من الملايين فى العالم الإسلامى. كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون إنه وصى النبى على المسلمين . وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول إنه معصوم ، وغلا البعض فألهوه ، وانشعبت الشيعة شيعاً وأفراقاً حاربها بنو أمية حرباً ضروساً ، فقتلوا أولاد على وأسباطه كل قتلة . حتى كان الأمير الأموى يقول : لأن يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل على !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول .

وفى عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة فى الانحسار . وشرعت الريح تجرى رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بنى العباس . فألف على بن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبى ، وكانت الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشعبة الثانية خراسان . فلما دخلت جيوش أبى مسلم إقليم العراق كانت الكوفة قصبة المدافعين كما كانت مخبأ الثوار .

بويع لأبى العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولوية المظفرة لقواده . فأخذ يعمل فى ظمأ لا يرتوى ليكون جديراً فى التاريخ باسمه (السفاح) . وراحت سيوف العباسيين تحصد الرءوس وتقذف الجماجم ، ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور .

بدءوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، وانثنوا إلى قبر عبد الملك ، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثلة . ثم وجدوا ضالتهم فى قبر ابنه هشام . فألفى السفاح جثته لم تبل بعد فضربها بالسياط . . وصلبها . . وحرقها . ثم ذراها فى الهواء .

وفى هذه المجزرة التى ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر سباحة إلى أفريقية فتى لم يكد يطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

عبر البرزخ إلى أسبانيا سنة ١٣٩ ليمكن فى اثنين وثلاثين عاماً لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد . فأنشأ — على التعبير الحزبى — رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب وأن ينقل خلال البحار ، والأجيال ، تلك المدنيّة التى ازدهرت فى فجر التاريخ فى أثينا وإسبارطة وفارس وروما وبيزنطة ، فانبعثت حركة الإحياء العلمى RENAISSANCE من مرقدها بعد أن مرت فى طريقها — كالرسالات وكالبرد المائية والهوائية — بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما إليها .

ولقد يخيل إلى الناظر أن هذه القلاقل كادت تنزف دم الأمة ، لكنها فى الواقع كانت اهتزازات الجسم الذى يحاول أن يستقر ، ليستمر ، وامتحاناً لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر ، فثبتت على الامتحان ، وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما فى ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة .

كان القرن الأول استجماعاً لقوى الأمة ، واستعداداً لعهدها الجديد ، فلقد أدت الإمبراطورية السياسية التى وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هى حسبها ، وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجئ وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التى ألفها كيان الأمة إلا كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الإسلام نفسها فى الوجود ، بأسلوب جديد .

وإذا كانت دولة بنى أمية قد نشرت ألوية الإسلام بالغزو ، فقد كان على الدولة الجديدة فى وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الإسلامية بفتوحات الفكر ، وأن تبعث بآثارها فى مهاب الرياح الأربع .

* * *

فتعالوا إذن أيها المفكرون ، واحذوا إثر واحد ، واسكبوا فى تيار الحضارة الذى لا يتوقف إلا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من النور . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب إلى الابتكار . وليكن منكم الغواصون فى أعماق الحكمة والعلم . . . لقد دنت فترة انتقال وأنتم همزة الوصل ، فصلوا الماضى بالحاضر ، وقولوا كلمة الفكر ، إن كلمة الفكر هى العليا .

انطلقت العقول الإسلامية ظمآى تكاد تموت من الصدى . بدأت بالترجمة ، فنقلت إلى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والنبطية والهندية ، ولئن صح أن إسطفان وماريانوس وابن أبجر قد ذكروا العرب فى أواخر أيام بنى أمية بالعلم اليونانى حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن أبجر رئيساً للمصلحة الطبية ، وأن خالد ابن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ، إن هؤلاء لم يكونوا إلا طلائع الركب الضخم ، الذى بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم إلى العالم الجديد فى عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيباً للمنصور ولبيمارستان جند يسابور . . ثم توالت الأسماء تترى : قسطا بن لوقا وسيد النقلة روزبة (ابن المقفع) ينقل كليلة ودمنة وخداينامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذرى ، ينقلون من الفارسية ، ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية ، وابن وحشية ينقل من النبطية كتباً فى الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل فى كل مكان ليجيئوه بالكتب ليعربوها ، وجاء المأمون بعده يصنع أكثر مما صنع ، وانتقل الروح العلمى إلى وجوه الدولة وإذا ببيت كبيت بنى هاشم المنجم فى منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن إسحاق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة ، يُدفع لهم شهرياً خمسمائة دينار للترجمة والتعريب ، كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسى (الكتب الفارسية) ، وابن ماسويه من جامعة جنديسابور للقسم اليونانى (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ولنشر ما تتضمنه المترجمات من علوم ، وأنفذ إلى بلاد الروم سلماً صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهما ليبحثا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف إلى ثروة الأمة التى كان ينحصر تراثها العلمى — فى الجاهلية — فى علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب إلى فيثاغورس و إقليدس وجالينوس و بطليموس وأفلاطون وسقراط

وأرسطو ، وإلى النظم السياسية والإدارية . وانطلق الفكر الإسلامى فى حريته إلى أبعد الحدود حتى لترى بيتاً كبيت (أبى الجعد) فيه ستة إخوة . اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب ، عنى الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة ، وأضيفت إلى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبى بشر متى بن يونس ويحيى بن عدى وإسطفان بن باسيلى ينقلون من السريانية إلى العربية . وعلى بن زياد اليمنى وإسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية . ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق إلى المغرب . فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم ، ولم تبق الترجمة سبيلا للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فإذا بابن الهيثم يبيع فى كل عام نسخاً ثلاثاً من نسخه هى (إقليدس) و (المتوسطات) و (المجسطى) بمائة وخمسين ديناراً يعيش منها طول العام .

ولم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التى وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التى يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها فى جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد فى سنة ١٤٨ مرضاً ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه (جورج أو جرجس) من جامعة جنديسابور وأبل على يده فأنزله وعلماء جنديسابور أرفع المنازل فى بلاطه ، وورث حفيده جبريل هذه المنزلة فى بلاط الرشيد حفيد أبى جعفر . وإذا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فإن أبا حنيفة قد أنهى رسالته فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمه للعقول .

فالفقه الإسلامى الذى دوى صوت إمامه فى النصف الأول من القرن الثانى كان أثراً للوثبة الإسلامية الخالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وإن المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كل العلوم ؟

والجواب عن ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتاً أو تصويراً كما

صنع الرومان والمصريون واليونان . فتلك كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الإسلامية التى يحويها كتابها من شريعة وعقيدة ، فكان طبيعياً أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الإسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكرى الذى قدرته العناية الإلهية لنصرة الدين ، وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التى عاصرت فى تحضيرها وظهورها حياة أبى حنيفة العلمية ، وهى قيام الدولة العباسية ، ثم انبعاث تلك الفكرة التى خلدت بها الحضارة العباسية نفسها بإنشاء المدينة التى لم ير مثلها الزمان إلى ذلك الزمان (بغداد) :

ليست مصادفة تلك التى جعلت بالعراق حلقة أبى حنيفة كالجامعة فى النصف الأول من القرن الثانى بالكوفة حيث كان محمد بن على بن عبدالله بن عباس وابنه إبراهيم الإمام من بعده يمهدان للدولة الجديدة فى الكوفة وفى خراسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس :

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ، وأن يعمد أبو جعفر إلى الانتفاع به فى المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ، ويتناهى الرشيد فى الإعجاب به فيكلل بالمجد هامات تلاميذه :

ليست هذه كلها مصادفة ، ولكنها رواية الزمن متصلة الحلقات والظواهر بسطرها بالوقائع ، ويترك للوقائع الكلام . وإنها يد العناية تحرك الإنسانية نحو مصايرها المحتومة ، تريد لرسالة الإسلام أن تصل بين عهدى الحضارة .

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثاً فى التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضى فى ظلام الليل المتكاثف ، فحملت الحضارة الإسلامية إلى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى . ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق فى الغرب سنة ١٤٩٣ إلا بعد أن كانت دولة إسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية فى الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٥٣ : وإذا كان فتح المسلمين للقسطنطينية يؤرخ بدء عصر النهضة والإحياء RENAISSANCE

فى العصور الحديثة ، فأى مجد للإسلام ذلك المجد ! وأين منه أى مجد سياسى وفتح حربى !

هذه النصرة التى نصرت بها الدولة العلم فى المائة الأولى من حكم بنى العباس، لم تكن لها مشابه فى العهد الذى كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .

كان السفاح وأبو جعفر فى العهد الذى عاشه أبو حنيفة فى حكميهما ، فى شغل بالحرب مع خصومهما .

فالنهضة التى نهضها أبو حنيفة نهضها وحده . ولحساب الله لا لحساب أحد ، وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم فى عهد المنصور أو تولته أيدى الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ، إن الفقـــه الإسلامى كان له من أصالته ونظم شريعته ومميزاتها الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، وخصوبة تربته ووفرة منابعه ، مافاق ألواح الرومان الاثنى عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت إلى ألواحهم أو شرائعهم أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقى الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص الديباجة . تجمعه العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب الكريم وسنة الرسول .

زعم بعض المستشرقين أن هناك «آثاراً لا تنكر Indéniable » من تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الإسلامى ! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبى حنيفة خاصة ، والفقه عامة ، وإذا كان لأبى حنيفة بصر بالفارسية ، أو كانت تحيط به ثقافة منحدرة من المحيط الجغرافى والاجتماعى الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فإنه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات فى حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه فى حلقته وفى سائر الحلق بالمسجد الجامع إسلامياً صراحاً فى منابعه وسواقيه ، لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشىء أجنبى أو عالج أثراً أجنبياً .

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام : فلا أثر للفرس ولا للرومان فى الشريعة . ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثر إلا بعد أن تقدم الخصوصيات المتشابهة التى يستند إليها الزاعمون فى الأصول والفروع ، وفى اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه إلينا القائلون بوجود هذه الآثار « التى لا تنكر » : كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتناقش موضوعاً ، كما يقول رجال القانون .

وليس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة فى مظاهر التفكير ، ليقال من جرائها بتشابه الفقه فى الشرائع . فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشرى توافق العقل . وإذا تشابه العرف فى البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات .

ومن المسلم أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر فى عهد أبى جعفر أى بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبى حنيفة قد بلغت أوجها فى مسجد الكوفة ، وكان أستاذها فى أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاماً .

أما الشافعى فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة ، حتى إذا انتقل إلى بغداد ومصر فى خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التى ادعاها المستشرقون : والذين تتبعوه فى دراساته ومقولاته يدركون كيف كانت كلها إسلامية خالصة .

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة .

وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة .

وفى سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاى ما قرره مؤتمر واشنطن أخيراً فى سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الإسلامية مصدر للقانون مستقل عن مصادر اليونان والرومان .

* * *

لم يكد المنصور يلى الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حرباً ضروساً فى العراق وفى كل مكان ، كأنما كتب القلق على هذا الإقليم حتى ولو صارت إليه مقاليد الأمور . . وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على ذاته !

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !

وما لكفة الخير فيها ترى غالباً أرجح ! إنها قد تكون ثورة جهال فيظهر فيها العلم ، أوثورة على الحق فيخرج الحق منها أبلج وضاح الجبين كالشمس بعد السحاب ! ! ولقد تكون ثورة دهماء فتكشف عن انتصار المعانى الرفيعة فى الحرية أو فى الدين أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك . . !

إن الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائماً . أو كما يقول الشاعر :

* وحسبك داء أن تصح وتسلما *

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شىء ، من الكفر والإيمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم . ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح . ولا عجب أن تنجلى تلك المتناقضات عن تحرير أوربا ، فأنشأت الثورة إيطاليا وألمانيا ، وأطلقت الفكر الإنسانى من عقاله ، وجمعت بين الدين والتقدم . وأعلنت حقوق الإنسان ومكنت للتقدم الصناعى والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل » .

فإذا رجعت إلى العراق رأت عيناك مصداق ذلك . بلداً يثور قرناً من الزمان ، على نفسه حيناً وعلى غيره دائماً ، دون أن ينضب معينه ، بل إن الثورة لتقويه ، وتزكى أنفس الناس فيه ، فى رقعة منبسطة من الخصب والحضارة وامتزاج العناصر . تبدأ من الجنوب الشرقى للصحراء السورية عند الحدود الفارسية إلى جبال حلوان ، من عبدان إلى الخليج الفارسى . فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ، حيث ترتبط فى نشاط تجارى بآسيا الوسطى وبالهند وشرق أفريقيا وشواطئ البحر الأحمر . يعمرها مع المسلمين فرس يدينون

بالزارادشتية أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزارادشتية والهندية والمسيحية ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية إلى الإقليم منذ غزوات الإسكندر : وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جنديسابور فى كوزستان استمرت المدرسة ثلمثائة عام برغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الإسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا فى نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لأبوقراط وجالينوس ودسقوريدس وإقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم إلى السريانية . كما ساعد أهل حران على التوسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحى وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كانت مدرسة جنديسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التى وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

فى هذه البقاع ترعرت حضارة يانعة تكتنفها ديانات متتابعة : الزارادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون : واليهودية فى الشمال تسبق الزارادشتية بنحو تسعة قرون : ثم المسيحية تنزل قبل الإسلام فى شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى : كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا فى تلك القرون العشرين :

وكان العراق محسوباً على فارس وموصولا بها على الوجه الذى بينا ، بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة إقليمه ، فتجمعت فيه أخلاط من المدنيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب : وأرهف حس بنيه ذلك الانفعال المستمر فى حدة وعرام لم يشهدهما بلد إسلامى ، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن إلا أن تسكن النفس سكونها الأبدى :

وإذا عاشت الجماعة فى انفعال وانبعاث مستمرين برزت — كالفرد — ملكاتها إلى الوجود فاستثمرت كل ما فى كيانها من قوة وفتوة :

ومكن لتلك النزعات فى نفوس أهل العراق دين يحبب الجهاد فى سبيل الاعتقاد .

احتفظ العراق دائماً بشخصيته حتى إن عمر لما دون الدواوين كانت لغة ديوان العراق هى الفارسية إلى أن نقله الحجاج فى سنة ٧٨ إلى العربية ، ومع ذلك ظلت الحسبانات بالفارسية ، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوساً : أما فى خراسان — وكانت تحكم من العراق — فقد كان نصر بن سيار أول من نقل الكتابة إلى العربية من الفارسية فى أواخر أيام بنى أمية . ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيها بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها إلى العربية . كما غدت مركز حركة علمية تجلت فى علم الكلام وفى الاعتزال . على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصرى ، وقد قيل إن الحكمة التى رزقها جاءته منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبى فكانت أم سلمة تناوله ثديها إذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا بعهد جديد وبقى العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء ، حتى إن المأمون بعد نحو قرن من خلافة بنى العباس ليباهى به عجائب الكنانة !

جلس فى تواضع العالم بين إخوانه العلماء — وكان يسميهم إخوته — إذ قدم إلى مصر فى أول سنة ٢١٧ وقال : لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر . فلو رأى العراق وخصبها ؟ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فإن الله عز وجل قال : (ودمَّرنا ما كان يصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ وما كانُوا يَعْرِشُونَ) ، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته ! !

الباب السابع

فى الكوفة

« يخرج الحديث من عندنا شبراً
فيعود فى العـــراق ذراعـــاً »
ابن شهاب الزهرى



اعتزت الكوفة بذاتها كما اعتزت برجالاتها : كانت لا تزال تذكر أيام جعلها أمير المؤمنين على قصبة الخلافة ، وتذكر عبد الله بن مسعود : وناهيك بابن أبي طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعوني : فيذهب إلى عليّ : فإذا قال له على : ألا أرسلت إلى ؟ قال عمر : « إني أحق بإتيانك » . ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة : « أنت أعلمهم وأفضلهم » : بل كان عمر يتعوذ من معضلة ليس أبو حسن لها (على) :

وكان ابن مسعود أقرب الناس هدياً ودلا وسمتاً برسول الله : كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفاً دونه حتى ذاع المصحف العثماني :

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا : يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا ؟ قال : « يأهل الكوفة : أجزعتم أن فضلت عليكم أهل الشام : وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » : ولما قدم عليّ الكوفة قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلقاً ولا أرق منه ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعاً : قال عليّ « ناشدتكم الله : إنه الصدق من قلوبكم » ؟ قالوا : « نعم » : قال : « : « أشهدك اللهم أنى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه : فقيه الدنيا عالم فى السنة » :

وترسم خطى ابن مسعود فحول يتصدرهم علقمة النخعي وكان أشبه الناس به : وتلاهم أفذاذ فى طليعتهم إبراهيم النخعي فكان يفتى وينبسط للفتوى ولا يخاف إبداء الرأى : ثم جاء حماد بن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة وراوية إبراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج وبين الأمويين والعلويين قد خلفت فى الفقه آثاراً كالجراح ، إذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصرة عليّ ، وأخذ خصومهم يختلقونها لنصرة مخالفيه : أبى بكر مرة ، وطلحة والزبير مرة ، وبنى أمية مرات :

كما أخذ أنصار بنى أمية يختلقونها ضد العباسيين ، وأنصار بنى العباس يختلقونها ضد العلويين وضد الأمويين ، حتى قيل فى زمن متأخر إن الجاحظ أوتى عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث فى مقتل علىّ ، وتدخلت أطراف أخرى فى النزاع : المعتزلة وغيرهم يختلقون ضد الخوارج ويختلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعاً ؛ كما دس خصوم الإسلام أحاديث كثيرة على النبى ، ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسى أو الدينى ، بل نجم المال والملق بين الأسباب ، فأصبحت الأحاديث تختلق للخلفاء وللأفراد ولكل شىء : فتسمع أحاديث عن تطيير الحمام وعن التمر والعجوة !

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين إلى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب ! فى المدح والقدح ، والترغيب والترهيب ، وفى صياغة الفلسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع فى زمن لاحق أن يقول إنه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله تعالى » ! فلما سئل أبو عصمة نوح بن مريم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال : « رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحق فوضعتها حسبة » !

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث فى الحجاز ، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا إلى نهاية القرن ، كما ساعدت شدة الحاجة إلى النصوص لحل المشاكل ، على هذا التفريخ العجيب للأحاديث . حتى ليروى عن الزهرى أحد مفاخر المدينة أنه قال عن أهل العراق : « يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود إلى فى العراق ذراعاً » .

حدث ابن ماجه عن رسول الله : « ما قيل من قول حسن فأنا قلته » ، فلينسب الوضاعون إذن كل الأقوال الحسنة إلى الرسول ! ذلك ما عبر عنه أحد المستشرقين تعبيراً غريباً بقوله : « إنهم يضعون أوراقهم على المائدة ولسان حالهم يقول : هذا حق ، ولا مأخذ عليه من ناحية الدين ، بل هو مستحب والنبى كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة فى الأمصار بعد وفاة النبي ، واشتجرت الآراء بينهم فى الفتاوى تبعاً لمبلغ علمهم بالأحاديث والسنن وإقبالهم على إبداء الرأى وتأثير البلدان التى استوطنوها فى آرائهم وتقليدهم ، ومن ثم جاءت خلافات المدينة من ناحية وسائر الأمصار فى النواحى الأخرى وبخاصة الكوفة . إذ لم يكن مستطاعاً أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل المدينة ، وقد شاهدوها وشاركوا فى تطبيقها جيلا بعد جيل .

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافاً :

ولم تصل السنة إلى الأمصار إلا على مهل ، فلم تظهر فى الحياة العامة فى العراق إلا فى سنة ١٦٠ : بل فى سجستان — فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع — كان الزواج يعقد فى أوضاع تخالف السنة حتى طبقها الإصطخرى قاضى « قم » . وفى خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوى هو النضر بن شميل ضيعه قومه فخرج من البصرة يلتمس الرزق فشيعه ثلاثة آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين ، فلما اجتمعوا قال : « يعزّ علىّ فراقكم ، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى (مكيال فول) ما فارقتكم » ، فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعيه ومودعيه ! ! وسار حتى وصل إلى مرو فى خراسان حيث جالس المأمون فى إقامته بمرو وعليه خلقان ، فأجيز بثمانين ألف درهم لتصحيحه حديثاً واحداً فى مجلسه .

ولم تكن السنن فى كتاب ذى مناهج يعرف الناس نصوصه ومدى تطبيقه ، ولا كان الولاة يعنون بتعليمهم : بل إن الولاة كانوا فى شغل بالدنيا عن الدين .

كان بنو أمية ملوكاً دنيويين لا خلفاء دينيين . اعترض أبو الدرداء على رأس البيت الأموى معاوية ، لبيعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ذهباً . قال : سمعت رسول الله ينهى عن مثل ذلك . قال معاوية : « ما أرى بهذا بأساً » . قال أبو الدرداء : « من يعذرنى من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويخبرنى عن رأيه . لا أساكنك أرضاً » .

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المخربة دون أن يخترقوا ظلامها بسهام من

النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعاً للنظر فى المصالح وتعقل النصوص يزدرى الإمعات الطائعة ويقول : « اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة فيما بين ذلك » : فالاستقلال والاجتهاد فى الفقه ميراث أهل الكوفة يتوارثونه كابراً عن كابر :

ففيم الخضوع للمسلمات إذا لم يؤيدها الدليل الناهض ؟ وإذا سيقت الفكرة ففيم ينحنى المفكر أمام المفكر ! وإذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ وإذا سيق الحديث فمن رواة الحديث ؟ وإذا انفتح الباب للبحث عن الرواة ، كان لزاماً أن يسير الباحث إلى النهاية ، فيدرس الراوية مثلما يدرس الرواية :

وهذا الفقيه الذى أتيحت له حقبة نادرة من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولتين الأموية والعباسية الكبرى ، وتجرى بين يديه التيارات الفكرية الخطيرة فى تاريخ الحضارة الإسلامية وهو عاكف على تلاميذه يسبح سبحاته معهم فى آفاق هذا الكون الحافل ، حيث كل شىء حائل ومتنقل إلا هؤلاء ، الثابتين الصادفين عن أسباب الشحناء والسخائم ، يجودون بنشاط جسمى وفكرى عجيب ، تشحذ عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة : فليستجب هو وتلاميذه إلى الصوت الذى لا يخفت فى ضجة المذابح وفوضى التخليط ، والذى يهيب بالمؤمنين أن ضعوا حداً للفوضى : وأرسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام : والخطوط التفصيلية للقواعد التى يتطلبها عالم تترامى أطرافه بين الصين والمحيط الأطلسى ، فلم تعد جزيرة العرب إلا نواة أو مركزاً للدائرة :

وإذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة فى عالم السياسة هو الحضارة الفكرية ، فلقد كان جواب المدرسة الجديدة فى عالم التشريع هو فقه أبى حنيفة القائم على الاجتهاد وعلى التحرى الدقيق للروايات : فليناقش كل شىء حتى لا تذيع الأراء الزائفة وتذهب قواعد البنيان التشريعى الذى تأوى إليه الحضارة :

* * *

أفترى كانت المدينة المنورة فى وسط الجزيرة ، وهى قلب العالم الإسلامى ، تصبر على هذه الحركة الثورية ؟

إن للمدينة سلطانها الدينى والتاريخى الذى تعنو له الجباه : فهنالك أقام النبى وهنالك يثوى جثمانه . وهنالك عاشت الكثرة الغالبة من الصحابة وأمهات المؤمنين تتصدرهن الراوية النابغة عائشة بنت أبى بكر . وهنالك الرواة من هؤلاء والرواة عنهم ، يقتفون آثار زعيمى الحجاز عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس . فمن مثل هؤلاء زكانة ومكانة وإلماماً بعهد الرسول وغزواته وفعاله وكلماته ، وبأحاديث الخلفاء الراشدين والصحابة الأقربين . وأى بلدة طيبة كالمدينة تعيش فى أجواء من البركة والكرامة ، تضفى على كل شىء فيها فيوضاً من التجلة والإكبار .

كانت المدينة كعبة القصاد لمن شاء أن يتفقه الدين والتاريخ والتفسير وما إليها ، وكان عبد الملك بن مروان أحد فقهائها الاثنى عشر المعدودين — بارحها إلى الشام ليكون خليفة المسلمين ومعه زميله فى الدرس قبيصة بن ذؤيب ليجعله على خاتمه .

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به إلى المدينة ليعود ثانى العمرين اللذين يهز الإسلام بمفاخرهما أعطافه .

وكان فى عهد أبى حنيفة إمامها العظيم مالك بن أنس ، الذى لا يفتى وهو فى المدينة ، حفيد أبى عامر الأصبحى صاحب رسول الله ، ولم يكن من طراز رجل الكوفة يتصايح التلاميذ من حوله أو يخطئونه وجاهاً ، بل كان رجل تقاليد بحق ، يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ، ولا يرفع أحد صوته فى مجلسه ، وبلغت مكانته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور معه المهدى فى سنة ١٦٠ فى بناء البيت الحرام ، ولما هم أبو جعفر أن يبنى البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاوره فقال : « أنشدك يا أمير المؤمنين لأتجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس » فصرفه عن رأيه .

وفى سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك : ناقش أبا يوسف . فأنف مالك وتنزه عنه ، وهو

العليم بمكانة أبى يوسف من العلم . بل قال للرشيد : « ها هنا فتيان من قريش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين . ! »

كان للمدينة من السلطان الروحى ما عبر عنه مالك لليث بن سعد بقوله : « إن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » .

وكانت حضارتها بسيطة غير معقدة ولا مشوبة بتخليط ، المشاكل فيها تلائل ، والوقائع تتشابه وتتشاكل . فإذا عرضت مسألة فإن لها أشباهـًا فى السوابق وحكماً فى النصوص . يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصنعوا خيراً مما صنع آباؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبوعون ، ومن عقيدة التابع أنه ليس كالمتبوع ، وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أى جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة فى ذلك الإقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تك مادة الفقه والأحاديث والسنن هى الهواء الذى يتنفس الناس فيه فى كل مكان كالمدينة ، فإذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا فى تسامح المحيط الواسع الذى ينادى بالاجتهاد وبالرأى ، حيث الناس من كل الأجناس ، يقبلون على الدين الجديد تؤنسهم مدنية كبيرة ، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج فى كل وقت إلى الرأى الجديد ، لا تغنى عنه النصوص القليلة المتداولة . جاءوا يدلون بدلوهم فى الدلاء ، يتحرون ويتقرون لم تكد تهدأ رحلتهم بعد ، ولم تكن لتهدأ إلا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادى والفكرى أو يعتورها الكلال والهرم .

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد فى تاريخ الإسلام ، وتحالف الركود الفكرى والركود العسكرى النسبى من ألف عام :

قامت مدرسة الكوفة تقول بالخلق والابتكار ، واستعصم أبو حنيفة فيها مستمسكًا بالرأى وبالتشدد فى قبول الأحاديث ورواتها وعارض فقهاء المدينة وأشياعهم . ثم تطاول الخلاف الفقهى فتحول إلى خصام ، وأعلنت حرب المذاهب ، بين كلمات قارصة كقول القائل : « وضع أبو حنيفة أشياء فى العلم ، مضغ الماء أحسن منها . » ومستشنعات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد : وغدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المعقد ...

غرب الوالى إلى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرم على الناس أن نلقاه: فكانت تأتيه على حمير يكترونها على الرغم من أمر الأمير . فجاءوا به فقال له الأمير « أى عدو الله . طردتك من حرم الله فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق » . فقال : « أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدوننى » . قالوا : « بيننا وبينه واحدة » . قال : « ما هى » قالوا : « نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات.فإن لم تقصد إلى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء ، فالقول ما قال ». قال الأمير : « إن فى هذا لدليلا » . وأتى بالحمير . فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله . قال الأمير : ما بعدها شىء جردوه . فلما نظر إلى السياط . قال اضرب فوالله ما فى هذا شىء أشد على من أن يسخر منا أهل العراق فيقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير ! ! فضحك الأمير وقال : « والله ما أضربك اليوم » وأمر بتخلية سبيله .

وفى أواخر القرن الثانى كان بمصر قاض حنفى هو إسماعيل بن اليسع الكندى يقضى برأى أبى حنيفة فى إبطال الوقف فذهب إليه الليث بن سعد يقول : « جئت مخاصمًا لك فى إبطالك أحباس المسلمين (أوقافهم) » . ثم بعث إلى الخليفة يطلب عزله وهو يقول : « إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . على أننا ما علمناه فى الدرهم والدينار إلا خيرًا » . وعزل الخليفة قاضيًا كل جريرته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب فى الوقف مذهب أبى حنيفة .

وشارك الشعر بأوزانه فى الملحمة . قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية) :

كنا من الدين قبل اليوم فى سعة ... حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس
قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم ... فاستعملوا الرأى عند الفقر والبوس

وكان شرشير المدنى يعيب أبا حنيفة . فقال شاعر الكوفة :

عندى مسائل لا شرشير يعلمها ... عند السؤال ولا أصحاب شرشير
ولا يصيب فصوص الحق يعلمها ... إلا حنيفية كوفية الدور

بلى : كانت هناك حنيفية وكوفية فى جانب ومدنيون فى الجانب الآخر ، بل

كان ثمة مدينتان تتباريان ، وإن شئت فقل مدنيتين أو فكرتين : الجديدة المستوفزة الراغبة فى الخلق والاندفاع ، والقديمة الهادئة الراغبة عن الابتداع ، وبذلك بدأت المعركة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد وتأرجح المفكرون بين الآراء ، فرأينا رجلا كالنضر بن شميل كان يقدح فى أبى حنيفة فى مجلس المأمون بعد أن يمدحه يعود مرة أخرى فيقول : لا تروِ عنا كل ما نقول فى أبى حنيفة فإنا نقول عند الغضب أشياء ليس لها حقيقة » ، وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروى الطحاوى — وهو من أئمة الحنفية — أنه كان يذاكر فى بعض المسائل أبا عبد الله بن الحسين بن حرب المشهور « بحربويه » قاضى مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه : ما هذا قول أبى حنيفة . فقال : « أيها القاضى أوكلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » قال : « ما ظننتك إلا مقلداً » ، فقال الطحاوى : « وهل يقلد إلا عصبى ؟ » قال : « أوغبى » ، وطارت الكلمة فصارت مثلا .

ولما قامت مدرسة الشافعى بعد نصف قرن من موت أبى حنيفة ، برز خصم شديد ، وتطاحنت المذاهب أيما تطاحن ، وإذا بملكين : بل والد وولده هما العادل سيف الدين بن أيوب صاحب دمشق يقول لابنه عيسى شرف الدين : « يا بنى كيف اتخذت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شافعية ؟ » فيجيبه ابنه قائلا « أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد ! » وانزلق القوم إلى هوة الحقد فتدهور المبتدعون إلى حيث تعمى القلوب ، وإذا برجلين من « الخطابية » يستفتى أحدهما الآخر فى أن يشهد على شافعى بالكذب فيفتيه بقوله : ألست تعتقد أن دمه حلال ؟ فما دون ذلك دمه فاشهد ! وادفع فساده عن المسلمين .. ! !

وذات يوم أمر قاضى مصر الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبى حنيفة وأصحاب الشافعى جميعاً من المسجد

وفى الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوماً بين يدى السلطان فسألهم فى بساطة : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟ قالوا : من المدينة . قال : « عالم دار الهجرة يكفينا » وأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : « لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان » .

وأخيراً ذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس فى الأرض وأنزل الله على قلوب الحزبين سكينة وأمنًا فكانت نار الخلاف بردًا وسلامًا ، وغدت وجوه النزاع سباقًا لنصرة الدين ، وكنوزًا نقلبها بين أيدينا لنأخذ منها مثلما نأخذ من وهج الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب ، قوى خالقه جبارة تأتى بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق : « اختلاف أصحاب محمد رحمة » ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : « ما سرنى باختلاف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حمر النعم » ، وأنه قال : « ما سرنى أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » .

ولما قال الرشيد لمالك ليكتب : « الموطأ » ويفرقه فى الآفاق . ليحمل الناس عليه كقانون مدون . قال : « يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة . كل يتبع ما صح عنده : وكل على هدى : وكل يريد الله تعالى » .

وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا ، ولا ينجم العداء الفكرى إلا بين الحمقى والمتنطعين : ألا هلك المتنطعون .



الباب الثامن

فى الفقه

« إنى أرى ، لا أكثر . وأومن لا أقل »
« أما مستقبل فلا أضعه نصب عينى »
فيكتور هيجو



«إنى أرى وأومن . لا أكثر ولا أقل» . تلك قواعد تفكير أبى حنيفة فى كلمة جامعة مانعة : أما الناس أو التقاليد ، أما السخط أو الرضا ، فإنها أمور تجىء فى المحل الثانى أو لا تجىء أبداً .

مصدر التشريع الإسلامى هو القرآن ، غير أن آيات الأحكام فيه نحو مائتى آية من ستة آلاف كانت تنزل على النبى فى المناسبات ، فتعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلى لا جزئى ، وهو مما شرف الله به هذه الأمة ، إذ لم يهمل عقولها ولم يلقنها الجزئيات تفصيلا ، وكان الرسول يتولى تطبيق هذه الآيات على الحوادث والأشخاص مع بيان وجوه العمل بها ، بالقول أو بالفعل أو بالإجازة ، وهو ما اصطلحوا على تسميته بالسنة وصار بطبيعته مصدراً ثانياً للتشريع .

فى عهد الخلفاء الراشدين ، كانت تقع حوادث لم يعلم للنبى فى نظائرها آراء ، فكانت سياستهم فيها تتحصل فيما أثر عن الفاروق ، وهو يولى شريحاً قضاء الكوفة ، إذ قال : «انظر ما تبين لك فى كتاب الله ولا تسأل أحداً ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنن رسول الله وما لم يتبين لك فى السنة ، فاجتهد فيه رأيك» ، وفيما كتبه إلى أبى موسى الأشعرى من أن : «القضاء فريضة محكمة أو سنة . . الفهم الفهم فيما تلجلج فيه صدرك مما ليس فى كتاب أو سنة ، اعرف الأشباه والنظائر . وقس الأمور عند ذلك» .

ولم يكن ثمة اجتهاد بالرأى إلا لضرورة ملجئة . كتب كاتب لعمر : «هذا رأى الله ورأى عمر» فصاح به : «بئسما قلت . هذا رأى عمر . فإن يك صواباً فمن الله وإن يك خطأ فمن عمر ...»

ولما أفتى ابن مسعود فى صداق امرأة مات زوجها قبل أن يدخل بها ولم يفرض لها صداقاً ، قضى بأن يكون لها مهر مثلها من نسائها ، وأضاف : «فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان ...»

إلى هذا الحد بلغ تحرج الرجلين اللذين هما زعيما الرأى فى الإسلام ... !

كان الخلفاء الراشدون يستشيرون زعماء الفكر من الصحابة إذا استغلقت وجوه الأمور ، وكان عددهم محصوراً ، فكان الإجماع ميسوراً ، وكان لأبى بكر ما يشبه مجلس الشورى يدعو إليه رجالا من المهاجرين والأنصار منهم عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ؛ فلما خلفه عمر كانوا فى طليعة مستشاريه .

ولم يكن عمر يتردد فى الرجوع عن أخطائه ، قضى فى عام من الأعوام بحرمان الإخوة الأشقاء مع الإخوة لأم والزوج فى الميراث ، وفى عام آخر أشركهم جميعاً فى ثلث المال ، وقال : ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى ... ولم ينقض حجه « الشيء المحكوم فيه » كما يسمونها فى الفقه الحديث .

ورفعت إليه جارية سوداء متهمة بالزنا فخفقها بالدرة خفقات وقال : أى لكاع زنيت .. قالت مرعوش بدرهمين « تريد صاحبها الذى صنع بها والمهر الذى أعطاها » قال عمر : ما ترون ؟ . وكان عنده عثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، قال علىّ : أرى أن ترجمها ، قال عبد الرحمن : أرى مثل ما رأى أحوط . فقال لعثمان : ما ترى ؟ فقال إنما حد الله عز وجل على من علم أمر الله . قال : صدقت ورد على الجماعة ، وأسقط الحد وبين أنها تجهل ما صنعت فلا يجب عليها الحد .

ورفعت إليه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليلها فتردد ... هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال علىّ : أرأيت لو أن نفراً اشتركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال : فكذلك . فكتب عمر إلى عامله أن اقتلهما فوالله لو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم .

ولما فتح المسلمون الأمصار طالب الفاتحون أربعة أخماس الغنيمة مستندين إلى ظاهر النص فى الآية ، ومؤداه أن يأخذوا أربعة أخماس البلد الذى يفتحونه ويبقى الخمس للمنفعة العامة ، لكن عمر تساءل : كيف آخذ أرض الناس منهم ؟ قال مندوبو الفاتحين : هذا ما أفاء الله علينا بأسيافنا ، قال عمر : هذا رأيى . قالوا : استشر : فأشار عبد الرحمن بن عوف برأيهم وأشار عثمان وعلى وطلحة وابن عمر برأى عمر . فدعى عشرة من الأنصار قال فيما قال : « قد سمعتم قول هؤلاء القوم

الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ... أرأيتم هذه الثغور التى لا بد من رجال يلزمونها ... لا بد لها أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء . . ؟ » وأشار برأيه المستشارون .

وفى ذلك يقول أبو يوسف : « والذى رأى عمر رضى الله عنه من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم » — ذلك بأن الخراج إنما يصرف فى شئون الدولة ، فيعم به النفع المسلمين كافة بطريق غير مباشر .

هذه السياسة العمرية هى التى نشرت الإسلام فى الأمصار ، فلو استولى الغزاة على الأرض من ذويها لجرد الناس من أموالهم ومتاعهم ، ولقابلت أسماعهم بالصمم صوت الحق ، مروعين بما يصاحبه من عنف مخرب يطغى على الهداية التى تبسطها الحنيفية السمحة بجناحيها على العالمين .

وفى عام المجاعة لم يثبت العمر حد السرقة ، ولم يقطع يد الغلمان الذين سرقوا الناقة بل غرم وليهم ثمنها مضاعفاً لأنه يجيع غلمانه .

وفى الصدقات أسقط حق المؤلفة قلوبهم لأن الإسلام بلغ عزه فلم يعد بحاجة إلى تأليف القلوب بالعطاء .

وفيما لا نص فيه كم كانت لابن الخطاب اجتهادات .. فهو يعهد بالخلافة على غير عهد أبى بكر ، ويوصى بانتخاب الخليفة من ستة عينهم ، ويفرض العشور على الصادر والوارد ، ويفرق بين المهاجرين والأنصار فى العطاء .

واجتهد عثمان فجدد أذاناً ثانياً لفريضة الجمعة لما اتسعت رقاع المدن ، وجمع الناس على قراءة مصحف واحد ، هو المصحف الإمام ، مع ما هو معلوم من أن القرآن نزل على سبعة أحرف . وإنما خشى عثمان الفتنة لتفريق الحفاظ واستشهادهم وتباعد أطراف البلاد .

واجتهد على كاجتهاده فى حد قتل الزنادقة فجعله بالحريق فى الأخاديد إذ رأى المصلحة فى الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشديد : واجتهد فى قضائه الذى كان مضرب الأمثال .

وفى عهد بنى أمية تفرق الصحابة فى الأمصار فكان بكل مصر من الصحابة والتابعين رجال يتولون الفتيا ويعلمون الناس القراءة والأحاديث والمغازى . فلما نجمت الخلافات السياسية التى ألممنا بها فى الباب السابق نجم معها شر مستطير ، فإذا بالخوارج ولهم فتاوى ، والشيعة ولهم فتاوى ، ولسائر الأمة فتاوى — وإذا بقبس من النور يترآى فى اجتهادات بعض الفقهاء ، لكن الغلبة كانت للقائلين بعدم الاجتهاد التزاماً لظاهر النص فى الآية ، وظاهر اللفظ فى الحديث ، خشية الزلل . بل ذهب البعض إلى القول بأنه لا فتوى لديه إذا لم يكن النص بين يديه .

قالوا : أدرك عبد الرحمن بن أبى ليلى عشرين ومائة صحابى ما منهم رجل يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه .

ومن الفقهاء من كان يمتنع أن يفتى فى مسائل بذاتها كسفيان بن عيينة لم يك يفتى فى الطلاق ويقول : « من يحسن هذا ... ؟ » ولما أعجب به ابن حنبل قال فيه : « ما رأيت مثل ابن عيينة فى الفتوى أحسن فتيا منه: كان أهون عليه أن يقول لا أدرى » .

ولم يكن سعيد بن المسيب يكاد يفتى إلا وهو يقول : « اللهم سلمنى وسلم منى » ، بل هؤلاء بعض أهل العلم يقولون : تعلم لا أدرى فإنك إن قلت لا أدرى علموك حتى تدرى ، ولو قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى .. !

سأل رجل من الغرب مالك بن أنس فقال : لا أدرى . قال السائل تقول : لا أدرى . قال : نعم . فأبلغ من وراءك أنى لا أدرى ... !

وذات يوم سئل فقال : لا أدرى . فقال السائل : إنها مسألة خفيفة سهلة وإنما أريد أن أعلم بها الأمير — وكان السائل ذا قدر — فغضب مالك وقال : « مسألة خفيفة سهلة ! ليس فى العلم شيء خفيف : أما سمعت قول الله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلا) .. »

وقال مالك يوماً : إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى إلى الآن .

وسئل أربعين سؤالا فقال عن ستة وثلاثين سؤالا منها : لا أدرى .

وكان علامة التابعين الشعبي يقول : « لا أدرى نصف العلم » قال : لا أدرى . يومًا ، فقال له السائل : ألا تستحى من قولك لا أدرى وأنت فقيه العراق ؟ قال : لكن الملائكة لم تستح أن تقول لله : « لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

كانت أطراف الإمبراطورية الإسلامية قد ترامت إلى أقصى أقطار العالم المعمور . فلم تك إمبراطورية القياصرة ولا إمبراطورية الأكاسرة إلا بعض أجزائها . لقد غربت الفيالق الإسلامية إلى البرزخ الذى يحمل مفاتح البحر الأبيض لدى المحيط ، وشرقت كالسهم تخترق آسيا إلى أقطار الصين ، وتضاعفت المسائل والمشاكل والأشخاص والأشياء ، فكيف تغنى نصوص بلغت من الندرة ما أحصينا ، وتحرج من الإفتاء بلغ من الضيق ما بينا ، وسيادة لنظرية « اللا أدرى » توحى بتعطيل الفتيا . . !

لم تكن الحضارة التى يجنها ضمير الغيب للإسلام ، والفتوح السياسية والفكرية التى أزهرت فى عهد بنى العباس ، لتتم أو تزدهر فى أجواء هذا الحرج الفكرى الذى يضطرب فى قيوده الفقهاء .

كانت بالعراق قوى عارمة تستبق الزمان وتستبق حضارة بنى العباس قبل أن تقوم دولة بنى العباس ، فلم يك للأمة غنى عن رجال يهيئون بأفكارهم للمستقبل أصولا تشريعية صالحة لقيام نهضة علمية واجتماعية واقتصادية يرتبط المسلمون فيها بالفقه كما يرتبطون بالدين نفسه على أساس من فهمه والإيمان به ، والقدرة التى هى شرط التكليف .

فهل استجابت قوى الأمة إلى ماجاش فى صدرها من خلجات وحاجات ؟ هل فسحت المجال الحيوى لمواهب بنيها لتربى وتنتشر وتطير فى كل مكان وزمان على أحرف الهجاء ، كما يطير المصوت على ألف جناح وجناح من موجات الهواء ؟ وبعبارة أخرى هل قدمت هذه الأمة الدليل على قوتها وحيويتها وأصالة حضارتها ؟ فالدولة الحية كالجسم الحى إذا حزبتها الأمور نبض قلبها أقوى نبضاته وتجمعت قواها تجمع الأسد للوثوب فدفعت إلى الوجود من يملأون الفراغ كله ، ويحققون الرجاء كله ، فيدفعونها إلى الأمام دائماً وباستمرار .

بحسبنا أن نرجع البصر كرة واحدة لنرى مقدار ما استجابت المدنية الإسلامية إلى ذلك النداء الصامت عندما تجاوبت فى جنباتها أصداؤه ، ومدى رسوخ هذه الحنيفية السمحة ونفوذها إلى الأعماق ، ونرى إلى جوار ذلك فضل السبق الذى تفرد بقصبه الإمام المجلى فى حلبة الفقه والعلم ، والذى نادته الحضارة الإسلامية فى كل عصورها بأنه « الإمام الأعظم » .

فى سنة ٨٠ ولد أبو حنيفة ، وفى سنة ١٢٠ كان يلقى على الناس أصول مدرسة الكوفة ليدونها أبو يوسف وغيره من التلاميذ على ما أسلفنا من بيان ويسجلها من بعدهم رهط كبير من العلماء تلألأوا فى سماء الدولة العباسية التى لم تبدأ حياتها إلا فى سنة ١٣٢ وازدهرت فيها الحضارة العلمية فى أيام الرشيد فى أواخر القرن ، وفى أيام المأمون وما تلاها فى القرن الثالث للهجرة .

أما الأوزاعى إمام الشام فولد سنة ٨٨ ، ومالك بن أنس إمام المدينة ولد فى سنة ٩٣ ، وزفر بن الهذيل ولد فى سنة ١١٠ ، وأبو يوسف ولد فى سنة ١١٣ ، ومحمد ولد سنة ١٣٢ .

وفى سنة ١٥٠ و٧٦٧ م هوى نجم وبزغ نجم فمات أبو حنيفة وولد الشافعى ، وفى سنة ١٦٤ ولد رابع الأئمة الأربعة ابن حنبل ، وفى سنة ١٧٩ (٧٩٥ م) مات مالك ، وفى سنة ٢٠٢ ولد داود الظاهرى إمام أهل الظاهر ، وفى سنة ٢٠٤ (٨٢٠) مات الشافعى وفى سنة ٢٢٤ ولد الطبرى وفى سنة ٢٤١ (٨٥٥ م) مات ابن حنبل .

ظهر هؤلاء الأئمة جميعًا بعد أبى حنيفة بسنين وعشرات السنين ملبين لنداء الأمة ، مترسمين خطى الأستاذ الأول الذى استجابت على يديه العناية الإلهية لهتاف الإسلام .

* * *

سئل أبو حنيفة عن خطته فى الفقه فأجاب : « إنى آخذ بكتاب الله إن وجدته ، فما لم أجد فيه أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التى فشت فى أيدى الثقات ، فإذا لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت :

وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب – وعد عدة من مجتهدى التابعين وتابعيهم – فلى أن أجتهد كما اجتهدوا » .

والصحابة هم الذين كانت لهم صحبة بالرسول طالت أو قصرت على ما رأى المحدثون أو الذين رأوه على ما يرى البخارى . أما التابعى فهو من رأى صحابياً ولقيه ، روى عنه أو لم يرو عنه .

لى أن أجتهد كما اجتهدوا ... !

تلك هى المسألة الأولى لأبى حنيفة .

وإذا كان أبو حنيفة ينحنى أمام رأى الرسول ورأى الصحابة فيقول : « إن مقام أحدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة خير من عمل أحدنا جميع عمره وإن طال » . فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وكان أحدهم يرى الرأى فينزل القرآن بموافقته كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ونزل القرآن بموافقته ، ورأى أن تحجب نساء النبى ونزل القرآن بموافقته ورأى أن عبد الله بن أبىّ منافق ونزل القرآن بموافقته : وموافقات عمر للقرآن والوحى ، تبلغ بضعة عشر موضعاً .

وحقيق بمن كانوا كذلك أن تكون لآرائهم خير المنازل . قال أستاذ الكوفة ابن مسعود : « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ... »

لكن أبا حنيفة إذ ينحنى أمام أصحاب الرسول لا ينحنى لسواهم من التابعين ولا تابعى التابعين فأولئك لم يمسسهم من بركات الصحبة مثل ما قدر للأولين .

ولما سأل لاس كاناس نابليون فى سنت هيلين بعد ألف عام من وفاة أبى حنيفة : لماذا لم تأخذ سيف فردريك الكبير إذ كنت فى برلين ؟ أجاب : « لقد كان معى سيفى » .

كان فقه الكوفة مطبوعاً بطابع ابن مسعود ، وكان كعمر يجتهد فيرى الرأى حيث لا يوجد النص . وبلغ اجتهاده أن قال عنه إبراهيم النخعى : « إنه كان

لا يعدل بقول عمر وابن مسعود إذا اجتمعا فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه ألطف .

سئل أبو حنيفة : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالف قولك ؟ قال : أترك قولى لكتاب الله . قيل : فإذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولى بخبر رسول الله » . قيل فإذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولى بقول الصحابى » . قيل : فإذا كان قول التابعى يخالف قولك

قال « إذا كان التابعى رجلا فأنا رجل ... »

أجل : هو رجل : والرجال قليل .

إنه يجتهد رأيه ، فيحكم عقله ، كما كان بعض زعماء الفكر من الصحابة يحكمون عقولهم فيصدرون فتاواهم على قواعد الإسلام العامة كقوله عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله : « دع ما يريبك » أو قوله : « ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة » ، أو قوله : « إذا أمرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أو قوله تعالى : (لا إكراه فى الدين) . أو قوله سبحانه : (ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) ، وغير هذه القواعد الكليات .

تلك المسألة الأساسية فى فكر أبى حنيفة كانت نقطة التحول فى الاتجاه العلمى للمجتهدين .

فليقدح أبو حنيفة زناد الفكر الإنسانى وليسبر أغواره . وليقلب النصوص بين يديه فى جسارة لا تهاب الإفتاء ، فإذا أصاب فهو مأجور ومأجور ، وإذا لم يصب فالعصمة لله جميعًا .

قال صاحب الشريعة : إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر . وقال لصاحبيه الصديق والفاروق : « قولا فإنى فيما لم يوح إلى مثلكما » ، ولما أخذ رأى صاحبه يوم وقعة بدر فى المكان الذى يرابط فيه أخذ يقول له : « .. يا رسول الله إن هذا المكان الذى أنت فيه ليس بمنزل ، انطلق بنا

إلى أدنى ماء القوم فإنى عالم بها وبقلبها ، بها قليب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح. ثم نبنى عليه حوضاً فنشرب ونقاتل .. فنهض ففعل ذلك » .

إن لأبى حنيفة برسول الله أسوة حسنة ، فالمجتهد دائماً مثاب ، لأن الاجتهاد فى ذاته صواب، أو كما قال أبو حنيفة: « المجتهدان مصيبان والحق فى واحد » ، أو كما قال الشافعى : « المجتهدان مصيب ومخطئ معفو عنه »، وإذا تخاض المسلمون على الجهاد فى سبيل الدين ، فليتحاض العلماء على الاجتهاد فى سبيل العلم .

وليقع أجر أبى حنيفة على الله مصيباً ومخطئاً ، وليشتق للناس هذه الطرائق المعبدة التى يسيرون فيها بأمان واطمئنان ، يحسبونها خاقت موطأة الأكناف كما هى الآن ، وكانت من قبل أضيق من سم الخياط وأكثر ترويعاً من المسبعة .

إن الكشوف العظمى التى يتخذ منها العالم أبجديات حضارته اليوم كانت فى ظلمات الجهل الإنسانى أعداما ، وكان العالم حريًّا أن يظل سادراً فى جهالته بها أزماناً لو لم تكشف له .

فليس بهين عمل أبى حنيفة فى إعمال الرأى إذا كنا الآن نأتى بالرأى فى كل شأن، فإن هذه الحرية الفكرية لم تتقرر إلا بعد أن خط لناثاة من العباقرة مسالكنا فى الشعاب ، واقتفت آثارهم نخبة الطلائع ، وجاءت فى أعقابهم عصور الإحياء فى الغرب وثورات دينية وفكرية لولاها ما بلغ الناس ما بلغوه من حرية التفكير والتعبير .

أما أبو حنيفة ففض الحجب واستطاع من ألف ومائتى عام أن يقول : إنى أرى .

* * *

وفى السنن والاحتجاج بها كان لأبى حنيفة شئون أخرى .

السنة هى الطريقة .

وهى فى الفقه ما جاء عن رسول الله من أقوال أو أفعال أو إقرار لأقوال أو أفعال صدرت من سواه ، وتطلق على عمل الصحابة لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا ، أو اجتهاداً مجتمعاً عليه منهم أو من خلفائهم .

قال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتى وسنة خلفائى الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » .

والاحتجاج بالسنة يكون بالأحاديث التى تصدر بشأنها .

كانت الكثرة الغالبة من رواة الأحاديث بالمدينة كما أسلفنا . وكانت طريق الوثوق بالخبر فى أمور التشريع أن يعمل أئمة الصحابة أو فتاوهم بما يوافقه أو يجرى عليه عملهم لا يختلفون فيه ، لأنه عن مشاهدة جيل لمن قبله حتى عهد الرسول فهو من باب السنة العملية ، أما أفعال النبى الشخصية كالحرب أو معاملته لزوجاته . فتلك أمور خاصة به وبالدنيا . وهو يقول : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

لكن حالة الأمة والخلافات التى نشبت حرضت على اختراع الأحاديث أسلحة للحرب الداخلية ، وكان كل حزب يزكى رأيه بالحديث الصحيح والحديث المخترع ، وكثرت أسباب الاختلاق كما بينا من قبل . وأصبح الحديث الصحيح فى الحديث الكذب — كما قال الدارقطنى — كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، وفشت فى الكوفة القالات لكثرة الشقاق ، وقلة الرواة ، ولأن الثورات لم تكد يفرخ روعها بعد ، حتى كان مالك يسميها دار الضرب « ضرب العملة » ، إذ تسك الأحاديث كما تسك النقود .

وكان الثقاة من الرواة يختلفون فى النصوص عن الحديث الواحد . منهم من يختار كلمة تؤدى معنى بدلا من أخرى تخيرها غيره ، كحديث خطبة الوداع ولا خلاف فيه ، جاء فى نصه الخلاف بين الرواة . ولم تكن الأحاديث كلها نقلا عن النبى ، بل كان يشترك فى بعضها الصحابة . وكانت لغة الناقلين متغايرة ونطقهم مختلفاً . فنتج من ذلك اختلاف كبير بعضه بحسن نية الناقلين بإهمال ، وكثير منه خال من الإخلاص . ولم يك أحد ، حتى الصديق والفاروق ، يستطيع الإحاطة بجميع الأحاديث ، ثم إن من الأحاديث ما لم يثبت عند محدثه أو محدث محدثه ، ثم آفة النسيان . فالفاروق نفسه نسى فذكره عمار فلم يتذكر ... !

سئل عن الرجل يجنب فى السفر فلا يجد الماء فقال لا يصلى حتى يجد الماء فقال له عمار : يا أمير المؤمنين أما تذكر إذ كنت أنا وأنت فى الإبل فأجنبنا . أما أنا

فتمرغت كما تمرغ الدابة ، وأما أنت فلم تصل . فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بها وجهه وكفيه . فقال عمر: اتق الله يا عمار . فقال عمار : إن شئت لم أحدث به . قال عمر: بل نوليك من ذلك ما توليت .

من أجل ذلك كان عمر لا يقبل الحديث إذا رواه واحد إلا إذا استشهد على روايته شاهدين . وكان على يستحلف الراوى ، أما ابن مسعود فكان إذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلته الرعدة وقال هكذا .. أو نحو ذا .. أو قريب من ذا .. وكان إبراهيم النخعى لا يقول قال النبي ، وإنما يقول قال ابن مسعود أو قال علقمة .. وكان الشعبي يقول : « كره الأولون الصالحون الإكثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث » .

وإذا كان ذلك شأن الخلفاء قبل أن يستفحل الشر ، فهل يخضع له أبو حنيفة بعد أن بلغ السيل الزبى ، وهو الذى لا حجة عنده إلا للثابت الصحيح .

أفينحنى معصوب العينين أمام هذه الأحاديث التى بلغت مئات الألوف ، دون أن يعمل فيها قواعده! أفيقبل قول أهل المدينة إن الوسيلة لتحقيق صحة الحديث هى أن يعملوا بها وأن يردوا الأحاديث التى لم يجر العمل عليها لديهم ، كما صنع مالك مع أبى يوسف وهو قاضى القضاة !

سأل أبو يوسف مالكاً عن الأذان ، فسأله بدوره عن الأذان لديهم . فذكر مذهبهم فيه فقال مالك : من أين لكم هذا ؟ فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سألوه أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر — فقال مالك : ما أدرى ما أذان يوم وما صلاة يوم . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤذنون فى حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين بعده ! يشير إلى أن ما جرى عليه العمل عند أهل المدينة أولى بالاتباع .

إن أبا حنيفة يوجب البحث عن طريق الثقة بالنسبة ، ويجب لذلك عنده أن تكون متواترة وإلا فمشهورة ، وإذا وجد النص فيجب أن يكون فهمه على وجه يتفق وعلل الشريعة وأحكامها .

وسبيل التواتر أن يروى الحديث جماعة عن جماعة حتى يؤمن التواطؤ : وأكثر السنة المتواترة فى الأفعال كالشعائر والعبادات ، تتناقلها الأجيال . وسبب ذلك

أن أعمال الرسول هى وسيلة تطبيق لأحكام وردت فى القرآن يحاكيها الناس ، فيتعلمونها ويتوارثونها كأسلوب الصلاة والوضوء وشعائر الحج .

وقل أن يوجد حديث قولى متواتر .

فإن لم يكن الحديث متواتراً فيجب أن يكون الراوى عدلا موثوقًا به ينقل عن عدل موثوق به ، وأن تكون الأمة والفقهاء وبعض الصحابة قد عملوا به دون أن يخالفهم أحد فيه ، لأن هذا يدل على إقرارهم لهم ، إذ لو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، ومن هذا النوع كانت الأحاديث التى آلت إلينا عن عمر وابن مسعود ، روتها جماعة بعد جماعة ومنها حديث . . « لا ضرر ولا ضرار » وحديث : « إنما الأعمال بالنيات » .

أما ما يخالف القرآن من السنة فليس منها !

وأما أحاديث الآحاد التى يرويها واحد عن الرسول أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر عن واحد عن الرسول — وما أكثرها — فلا يطمئن إليها أبو حنيفة وإن كان الكثير منها فى نواح أخرى من المسلمات .

وهو يعرض الحديث على عمومات الكتاب وظواهره ، والسنة ، فإن خالفت ظاهر القرآن استبعدها وأخذ بالقرآن ، وإن خالفت السنة المشهورة استبعدها ، لأن القوى لا ينسخه الضعيف . وإن طعن فيها السلف رفضها . وكذلك يرفضها إذا خالفت العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين ، وإذا جاءت أخبار الآحاد مخالفة لقاعدة من قواعد الشرع فلا يعمل بها ، ولا يقبلها فى الحدود لأنها تدرأ بالشبهات ، ولا فى الكفارات ، ولا يقبل حديثًا عمل راويه بعد روايته بخلافه ، ولا يقبله فيما تعم به البلوى ، أو إذا عارضه آخر مثله ، وتأيد المعارض بالقياس .

كان الصحابة الذين أقاموا بالعراقين قلائل أمرهم عمر ألا يحدثوا الناس . وإليك مثلا : كان حذيفة بالمدائن وكان واليها سلمان ، وكان حذيفة يذكر أشياء قالها الرسول لأناس من أصحابه فى الغضب ، فينطلق أناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان فيذكرون ذلك فيقول سلمان : حذيفة أعلم بما يقول. وعاتب حذيفة سلمان على هذا التعبير فتهدده سلمان بقوله : فوالله لتنتهين أو لأكتبن لعمر !

لقد كانوا يهابون الدرة فى يده ! ويعلمون أنه حبس ثلاثة من الصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن الرسول .

سئل أبو هريرة يوماً أكنت تحدث الناس فى زمان عمر هكذا ؟ قال : لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقته .

فلا عجب إذا كانت ظروف العراق توجب الاحتياط فى تلقى الأحاديث ولا عجب إذن فى أن يقول أبو حنيفة : « عندى صناديق من الحديث ما أخرجت منها إلا اليسير الذى ينتفع به . . » ولا عجب أن كان يروى أربعة آلاف حديث . ألفين عن حماد ، وألفين عن غيره ، وأنه كان إذا هبط الكوفة محدث بعث أصحابه على أثره ينظرون هل عنده شىء من الحديث ، ولا عجب مع هذا كله إذا انحصر المتفق عليه عند الحنفية فى قليل جداً من الأحاديث .

كان مالك بن أنس يتخير أحاديثه فى الموطأ ينقصها عاماً بعد عام ، وكان ينهى ابن وهب تلميذه عن الإكثار من السماع الذى لا يحدث به ، بل إنه يندم على ألا يكون طرح من الأحاديث أكثر مما طرح ، ولما مات وجد فى تركته حديث كثير لم يحدث به .

وهذا وأمثاله رد الفعل لحالة طال عليها العمر بعد أبى حنيفة حتى ليقال إن البخارى اختار أحاديثه سبعة الآلاف ، ومنها نحو ثلاثة آلاف مكررة ، من ستمائة ألف حديث كانت متداولة عندما وضع صحيح البخارى !!!

بل قال حنبل بن إسحق عن ابن عمه الإمام أحمد بن حنبل : « جمعنا . . : وقرأ علينا المسند . . وقال لنا إن هذا الكتاب جمعته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفا . . » .

بل يقول أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل : « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث » فيسأله الرجل وما يدريك ؟ فيجيب : ذاكرته . فأخذت عليه الأبواب ! ! !

ولم يكن مسند ابن حنبل يزيد على أربعين ألفاً من الأحاديث !

فكيف بدولة المحدثين وقد جاء أبو حنيفة ينقصها من أطرافها ويغربلها وينخلها

حتى ليروى بعض المؤرخين أن ما صح عنده سبعة أحاديث متواترة . . ! أو كما قال ابن خلدون : «إن أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها » ! ! !

والصحيح أن أبا حنيفة انفرد بمائتى حديث وخمسة عشر حديثاً غير ما اشترك فى إخراجه مع سائر الأئمة . وله مسند روى فى الصلاة وحدها ٢١٨ حديثاً ولما جمع أبو المؤيد الخوارزمى مسنداً له وقع فى ٨٠٠ صفحة .

من أجل ذلك — وتلقاء ما لم يثبت عنده من العدد الضخم من الأحاديث — كانت قواعد أبى حنيفة قنبلة لا يحس أثرها القارئ بقدر ما أحسه الشهود ، أى المعاصرون . وقدر ما نزل بالمصابين وهم الرواة . لقد زلزلت دولة المحدثين زلزالها أمام تلك الغزاة الفكرية ، المقبلة من المشرق مع الدولة المقبلة من العراق ، حتى جاء الشافعى يرد إليها مكانتها بجداله العبقرى فى بغداد والحجاز وفى الفسطاط . وهيأ الثلاث الصاحبان نفسهما بعد إذ مات الشيخ فى بغداد وتبعهما الشافعى بأسلوبه القوى فاعتزت به دولة المحدثين أيما اعتزاز .

حمى أبو حنيفة الإسلام من أن يقصر الفقه دون مطالبه ، فأدخل فيه الاجتهاد . وحمى الفقه نفسه من أن يبيد ، بالمبادرة إلى تدوينه ، فنقل إلى الأجيال اللاحقة فقهه وفقه السابقين .

وقف أبو بكر عندما ارتد العرب وقفته المشهودة فجرد لقتال المرتدين من استطاع تجريدهم من المسلمين الأولين وسقط فى هذا القتال كثيرون من الحفاظ ، فراح عمر يقول له فى إثر واقعة اليمامة : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه : وإنى لأرى أن تجمع القرآن .

ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك ، ورأى رأى عمر ، فجمعت الصحف ثم صارت « المصحف الإمام » فى خلافة عثمان بن عفان . أبقيت منها نسخة واحدة لديه ، ووزعت خمسة فى الأقطار فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام .

أما السنة فلم تجمع ، وإن كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجاز جمعها .

روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه . . فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الغضب والرضا . فأمسكت عن الكتاب : فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب فو الذى نفسى بيده ما خرج منى إلا حق » . وصحيفة عبد الله هذه هى المسماة « بالصادقة » .

ولما خيف تحريف الأحاديث بعد وفاة الرسول جمع أبو بكر الناس وقال : « إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » .

حتى إذا ولى عمر هم بجمع الأحاديث ، ثم أصبح يوماً فقال للناس : إنى كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء .

وأبى ابن الخطاب أن يجمع الأحاديث مع أنه صاحب الرأى فى جمع الكتاب العزيز .

كان الصحابة لا يذكرون أحاديث الرسول إلا مقابين على ما أسلفنا من بيان . ولما بعث عمر بعثه الأول إلى الكوفة قال للمبعوثين : « إن أهل العراق لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم برواية الأحاديث وأنا شريككم » .

وقديماً كان من شرائع إسبرطة ألا تدون القوانين إلا فى القلوب وأن يتمرس بها الناس فى حياتهم وتدرب الناشئة عليها فى أيامها الأولى ، لتكون الأفئدة وعاءها لا النصوص . فمنع «ليكرج» تدوين الشرائع ، وكانت فلسفة التدوين عنده تتحصل فيما عبر به من فلسفته فى القيود والحدود حيث قال : «ليست بغير سور هذه المدينة التى لا سور لها إذا كانت تحميها قلوب الشجعان » . وما تزال أمم كإنجلترا دستورها

غير مكتوب ، تقوم على حياطته مهج ليس أرخص عندها من أن تسيل فى سبيله : وكانت حضارة الصدر الأول من الإسلام روحية خالصة ، وبهذا نستطيع أن نفهم تردد الناس فى التدوين وقلة حاجتهم إليه ، قال قائل : إن إثبات السنن بعد جمعها ليس أصلح منه قبل ذلك .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز هم بجمع السنة وتدوينها على يد ابن شهاب الزهرى وأبى بكر محمد بن عمرو بن حزم .

كانت كل الأشياء تلح على الأمة للتدوين سواء فى الحديث أو الفقه أو التاريخ أو الشعر أو العلوم ، وكانت أشد حاجة الأمة إلحاحًا حاجة فقهها إلى التسجيل حتى لا ينهار بين أيدى الشيع المتخاذلة، وحتى يتمكن الناس كافة منها بتلك الوسيلة التى لا رسول مثلها بين الأجيال نعنى بها الكتابة: والغذاء الفكرى لا يقدم للعقل البشرى — بحق — إلا فى وعاء من الورق : فى كتاب .

لم تكن الوراقة تكاد تعرف بعد ، وكان الورق بعيد المنال : حتى إن الدولة فى عهد المنصور (سنة ١٣٦ — ١٥٨) كانت تكنز القراطيس مخافة نفادها : وفى ذات يوم وقف المنصور على كثرة القراطيس بخزائنه فأمر ببيعها وإن لم يعط عن كل طومار إلا دانقًا ($\frac{١}{٦}$ درهم) وكان الطومار فى ذاك الوقت بدرهم ، وفى الغداة عدل عن رأيه واستبقى القراطيس مخافة أن يقع بمصر حادث تنقطع القراطيس بسببه ، ولهذه العلة كان الفرس يكتبون فى الجلود والرق تخلصًا من الحاجة إلى ورق لا يصنعونه فى بلادهم .

وكان أبو جعفر يأمر كتابه بجمع الخط حتى لا يسرف كاتب فى القرطاس .

وأول من كتب فى الطوامير الخليفة الوليد بن عبد الملك . وفى خاتمة القرن الأول كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل بعث إليه يطلب قراطيس : « دقق القلم وأقلل كلامك تكتف بما عندك من القراطيس » .

وكان ما يكتب فى الدواوين يثبت فى صحف ، فلما جاء خالد بن برمك وزير السفاح (١٣٢ — ١٣٦) أمر بإثباته فى دفاتر .

لكن الكتابة كانت شغل مدرسة أبي حنيفة فى عهد المنصور: وقبل ختام ذلك العهد بسنين وعشرات السنين ، كانت المسائل تدون فى الحلقة على ما أسلفنا منذ رأسها ، وكان هو يدون لنفسه المسائل وهو تلميذ فى حاقة حماد ، كما كان الأئمة والمجتهدون ينظرون فى كتبه فى حياته . ولم يتأكد لنا التدوين الفقهى عند غيره من فقهاء الجمهور الإسلامى إلا بعد أن كان أبو حنيفة قد أبلغ رسالته فى الكوفة وفى مكة والمدينة وفى كل مكان ، وسجلها تلاميذه فى كتبهم ، ثم تحرك دولاب العلم .

واستخدمت أداة التدوين ، فساعد التدوين على الوراقة ، وساعدت الوراقة على التدوين،وأخذنا نسمع أن العلماء « أصحاب المحابر » — وبدأ التاريخ بتسجيل فضل أبي حنيفة، إذا صح ما قيل، فربط اسمه بالقلم والدواة .

فمن أين هذه الكنية للنعمان بن ثابت « أبي حنيفة » ؟

المعول عليه أن التاريخ لا يعرف له من البنين إلا حماداً،وإن التاريخ ليذكر نحو الثلاثين من العلماء كنوا بهذه الكنية بعده كالإتقانى والدينورى صاحب كتاب النبات ، والبخارى ، والفارسى الملجمى (من فقهاء الشافعية) والمغربى (النعمان من فقهاء المالكية) ، ثم إن حنيفة إحدى القبائل التى عرض الرسول نفسه عليها . فأبو حنيفة ليست من جراء أبوة لفتاة، ولذلك قال البعض إن سبب هذه الكنية هو أن حنيفة مؤنث حنيف ، والحنيف هو المائل إلى الدين قال تعالى : (قُلْ صَدَقَ اللهُ فاتَّبِعوا مِلَّةَ إبْراهيمَ حَنِيفًا)، وقال جل شأنه : (فأقِم وجْهَكَ للدِّين حنيفًا) ، ولذلك تسمى الشريعه بالحنيفية السمحة كما قال عليه الصلاة والسلام : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

ولكن المرء يتساءل لماذا لم تكن أبا حنيف بدلا من أبي حنيفة،وإذا أنث الحنيف فى شأن من كنوا بكنيته تشبهاً به فلماذا أنثت كنيته هو ؟

ولهذا ننتقل إلى قول آخر قاله (الكافيجى) ، وأورده ابن حجر ورده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة ، لأن الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق . . .

وسواء أصح القول أم لم يصح فإنه يصل بيننا وبين عقيدة ثبتت فى التاريخ عن ارتباطه بالدواة أو ارتباط اسمه بها وارتباط مذهبه بالتدوين والتحرير.

وهذه هى اليد الكبرى لأبى حنيفة على الإسلام : فإذا كان لأبى بكر وعمر الفضل فى تدوين الكتاب العزيز ، أو كان لعمر بن عبد العزيز فضل التفكير فى تدوين السنن دون أن يتم له ما أراد ، فإن لأبى حنيفة فضل تدوين الفقه الإسلامى ، وتدريسه باباً باباً ، وترتيب دراساته والأمر بتدوينها ساعة تدريسها ، فدونت فى حياته وتضخمت بعد وفاته ، فخلفت البحوث الضافية التى شغلت بها المدرسة ثلاثين عاماً أو تزيد ، وتلقاها الصاحبان وتلاميذهما وخلفاؤهم ، ثم تسلمها الشافعى وتلاميذه ، ومالك وتلاميذه ، وابن حنبل وتلاميذه وغيرهم من المجتهدين والمقلدين ، فبنوا لنا ذلك الصرح الممرد الذى يقف الرائى إزاءه مشدوهاً ، تروعه ضخامته قدر ما تبهره متانته .

ولئن كان قد دون تفسير بعض الآيات لابن عباس من قبل ، أو جمعت بعض السنن ، إن ذلك كان خاصًّا بالتفسير والسنة ، وكان فيما يتعلق بالأحاديث شخصيًّا لا يقصد به نفع الجمهور ، كصحيفة ابن عمرو المسماة بالصادقة أو صحف الزهرى.

ولئن قال بعض الفقهاء إن تدوين السنن كان فى سنة بضع وأربعين ومائة ، أو حددها البعض بسنة ثلاثة وأربعين ومائة ! إنها جميعًا تواريخ لاحقة لرياسة أبى حنيفة لحلقة الكوفة ببضعة وعشرين عامًا .

ولقد يكون حقًّا ما قيل من أن على بن أبى طالب كان يجمع فى قرابة سيفه بعض أحكام الفقه ، وأن بعض الشيعة دونت لهم كتب ، لكن التدوين والتأليف للجمهور الإسلامى على نطاق شامل . لم يبدأ إلا على يد أبى حنيفة .

قيل إن مالكًا جمع الموطأ فى ذلك العصر ، لكن الموطأ كان كتاب سنة قبل أن يكون كتاب فقه يحتوى عرضاً وشرحاً ، وفروضاً وحلولا وأصولا وتفاريع وأسئلة وإجابات . ثم إن مالكًا لم يكن قد تخطى السابعة والعشرين عندما كان أبو حنيفة فى رياسة الحلقة الكبرى بمسجد الكوفة بعد نحو عشرين عامًا من النجابة والصدارة

فى حلقة حماد ، وبعد أن كان يكتب المسائل قبل وفاة أستاذه بعشر سنين ، وكان أبوحنيفة فى حلقة حماد تلازمه كنيته التى تحدثنا عنها .

قالوا إنه لما استقامت الأمور لأبى جعفر خرج حاجًا إلى مكة سنة ١٤٨ فكان فيمن دخل عليه مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله إنى رأيت أنى أجلسك فى هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على علمك ، وأعهد إلى أهل الأمصار يوفدون إليك وفدهم ، لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق . فقال مالك : « يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قد قالوا قولا تعدوا فيه طورهم . . . فإن رأى أمير المؤمنين إقرارهم على حالهم فليفعل . . فأعفنى . . . فأعفاه » .

وذكروا أن مالكًا حج فى سنة لاحقة فقال له أبو جعفر : « يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودون منه كتبًا . . . واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة لتحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك . . . فقال مالك : أصلح الله الأمير : إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون فى علمهم رأينا. فقال أبو جعفر : يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف .. فتعجل بذلك وضعها فسيأتيك ابنى المهدى العام القابل إن شاء الله إلى المدينة يسمعها منك » ، وذكروا أن مالكاً لما أخذ فى تدوين كتبه قدم عليه المهدى فأتاه بكتب الموطأ فأمر المهدى بانتساخها وأمر له بأربعة آلاف دينار . . . ولابنه بألف .

ولم يكن مالك يحب الكتابة فقيل له : ماذا نصنع ؟ قال : تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاجون إلى الكتابة !

وكان ابن حنبل مثله يكره أن يكتب كلامه . وهى ظاهرة نعرف أسبابها من جواب جابر بن يزيد إذ قيل له إنهم يكتبون ما يسمعونه منك فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . يكتبونه وأنا أرجع عنه غداً ! »

والذى روى عن أبى جعفر فى تكليف مالك ، روى مثله عن الرشيد مع مالك ، وسواء أصبح تكليف هذا له أو ذاك ، فإنما كان بعد سنة ١٥٠ أو سنة ١٤٩ أو سنة ١٤٨ أى بعد أن استأثر ثرى الكوفة بعظام أبى حنيفة ، أو بعد أن كان قد أدى رسالته وأمر بالتدوين تلامذته على النحو الذى شرحنا .

إنما تنتسب النهضة الرائعة فى التدوين إلى أبى حنيفة وتلاميذه وتلاميذهم ،

الذين أقبلوا على التدوين مدفوعين بغريزة الأمة المشغوفة بالتأليف والتصنيف ، بالإملاء أو بالكتابة ، فى السن الإفتاء أو فى مقاعد الدرس ، حتى لتجد فى خاتمة القرن الرابع أو فاتحة القرن الخامس مجلساً للطيب الصعلوكى يضع فيه الشيخ فى وقت إملائه أكثر من خمسمائة محبرة . . . !

لم يضع الصحابة والتابعون فى علم الشريعة أبواباً مبوبة ولا كتباً مرتبة ، وإنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ويجعلون قلوبهم صناديق علمهم : وجاء أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشراً فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ، فدونه ورتبه مبتدئاً بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات ، ثم ختم بكتب المواريث لأنها آخر أحوال الناس : وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط .

رووا عن مالك أنه قال : وضع أبو حنيفة ستين ألف مسألة فى الإسلام . وقيل ثلاثة وثمانين ألفاً منها ثمانية وثلاثون ألف أصل فى العبادات وخمسة وأربعون ألف أصل فى المعاملات وقيل بل . . . خمسمائة ألف . .

ورووا أن مالكاً كتب إلى خالد بن مخلد القطرانى يسأله أن يحمل إليه كتب أبى حنيفة ففعل .

وصنع ذلك الأوزاعى مع عبد الله بن المبارك بصدد كتب أبى حنيفة كما سنرى بعد . وصنعه الشافعى عن طريق محمد بن الحسن .

وصنعه سفيان الثورى : فرأى الرائى تحت رأسه كتاباً استأذنه فى قراءته فإذا هو كتاب أبى حنيفة فى الرهن فسأله : أتنظر فى كتبه ؟ قال : وددت أنها كلها مجتمعة عندى .

صنع هؤلاء الأئمة ذلك وصنعه الفقهاء والمجتهدون والمقلدون والناس جميعاً .

الباب التاسع

إمام أهل الرأى

« علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه »

« أبو حنيفة »



كان أبو حنيفة قياساً « يقيس المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد ويدور حول الاتباع » كما قال .

أو كما قال فى وصيته لنوح بن مريم عندما ولى نوح القضاء بمرو : « إن أبواب القضاء لا يدركها إلا العالم النحرير . فإذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، فإن لم تجده ظاهراً فرده إلى النظائر واستشهد عليه الأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذى سال منه فقه أبى حنيفة فبلغ هذا الشأن البعيد من التفصيل والشمول والانتشار ، وأضحى فى متناول الكافة حلول لكل ما يعرض لهم من شئون المعاش والعبادات .

ولم يكن من ذلك بد ، فالناس فى بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون إلى معالم تعين حدوده وأدوات تتيح لراكبيه أن يسبحوا فيه . ولا غنى فى تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذى له نهاية لا يضبط شيئاً بلا نهاية .

فإما أن يترك الناس مع أهوائهم فى المتاهات ، وإما أن يقفوا تلقاءها ، جامدين ، فلا يكون بد من التوقف المؤدى إلى تعطيل التكاليف أو إلى مالا يطاق ، وإما أن يؤذن الناس بالاجتهاد ، لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفى بلد متحضر كالعراق ، حيث تجمعت قوى الإسلام لتنطلق فى مضمار الحضارة ، كانت تقع أمور ذات بال تدفع الفقيه إلى الابتكار : فلا معدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضى والكافة باستنباط القواعد العامة من الشريعة لتقاس عليها المسائل التى تحدث للناس .

والقياس فى كتاب الله كثير ، من ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوه إلى

الرَّسُولِ وإلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ، وأول أبواب الاستنباط وأعلاها هوالقياس :

وفى السنة اجتهادات وقياسات كثيرة : قصد إلى الرسول رجل ينكر ولداً له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام : « هل لك إبل؟ » قال : نعم . قال : « ما ألوانها ؟ » قال : حمر . قال : « هل فيها من أورق ؟ » قال : نعم . قال : « فمن أين ؟ » قال الرجل : لعله نزعة عرق « قال : « وهذا لعله نزعة عرق . » .

قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر قرناً ويقوله العلم الآن .

واجتهد النبي اجتهادات صححها القرآن : وفى بعض ذلك قوله سبحانه : (يا أَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ) ، ولما أذن للمنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك نزل قوله تعالى : (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) .

بل إن من اجتهاداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم ، كيوم نزوله فى بدر دون الماء فقيل له بوحى أم برأى؟ .

أما اجتهادات الصحابة ، فكانت كالعلامات التى تشير إلى ما تحت الثرى من كنوز : أمر النبي صحبه يوم الأحزاب بأن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، فاجتهد بعضهم فصلاها فى الطريق ، قائلين إن النبي أراد السرعة ، وأبى آخرون إلا أن يصلوها فى بنى قريظة فصلوا هنالك ليلا — وهؤلاء هم سلف أهل الظاهر — الذين يتمسكون بظاهر النصوص : أما الأولون فهم الآباء الفكريون لأصحاب القياس والاجتهاد .

ولما كان على بن أبي طالب باليمن اختصم إليه ثلاثة نفر فى غلام وقعوا على أمه فى طهر واحد فقال لاثنين منهم : طيبا بالولد لهذا . قالا : لا . قال لاثنين فيهما الثالث : طيبا بالولد لهذا قالا : لا . قال : أنتم شركاء متشاكسون : إنى مقرع بينكم . فقرع بينهم وجعل الولد للقارع ، وجعل عليه للرجلين ثلثى الدية .

فبلغ ذلك الحكم النبي فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء على .

واجتهد صحابيان خرجا فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما النبى وقال للذى لم يعد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين .

ولما قتل خالد بن الوليد قوماً قالوا : صبأنا . قال النبى : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد» ووداهم من مال المسلمين لا من مال خالد وعذره لاجتهاده .

لكن الصحابة لم يكونوا كلهم عليا ولا عمر وأمثالهما فكانوا يتحرجون دون القياس أو الاجتهاد ، وكان التابعون كمثلهم بل أشد حرجاً . . . كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى ليسمى سعيد بن المسيب الجرىء ، فكان الرجل يدخل فيسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال : «إنما يفتى الناس أحد ثلاثة : رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه وأمير لا يجد بداًّ أو أحمق متكاف » ، فقال ابن سيرين : فأنا لست أحد هذين فأرجوألا أكون أحمق متكلفاً .

حتى إذا جاء أبو حنيفة وضع يده على تلك الأداة بشتى أسمائها (القياس . أو الاستنتاج . أو الاجتهاد . أو الرأى) وقلبها فى كفه كعصا موسى ، فجاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على غراره وجرى المجتهدون فى غباره ، اللهم إلا أشياع داود الأصفهانى (الظاهرى) الذين يقولون بأن العمدة على ظاهر النص ، وإن فى عمومات النصوص كفاية للأمة ، وقد درس مذهبهم .

وإذا بتلك الثروة الضخمة من التشريع الإسلامى تربووتنمو حتى ترفع الفقه الإسلامى إلى مستواه الرفيع العالى بين مستويات الشرائع المقارنة تطاع إليه فى قممه الشوامخ .ذلك الفضل من الله أتاه أبا حنيفة . وهو الذى جعل الشافعى يهتف بذكراه قائلا : «من أراد أن يعرف الفقه فليلازم أبا حنيفة وأصحابه فإن الناس كلهم عيال عليه فى الفقه » .

وانتقلت هذه العصا السحرية إلى اللغة والنحو كما يذيع الخبر ، ويشيع النور ، وتنتقل الصحة — والصحة تعدى كما يعدى المرض — فإذا بالقياس

فى البصرة والكوفة بيهب اللغة العربية طرازات كأنها الاختراعات . فلو كنت من أهل البوادى فى ذلك الزمان ممن يعولون فى اللغة على السماع وحده كهؤلاء الذين كانوا يعولون فى الفقة على النصوص وحدها ، ثم جئت إلى مصر أو إلى الشام بله العراق — بعد أن أعمل علماء الكوفة والبصرة فى اللغة آلة القياس — لظننت أن العربية التى تسمعها ليست هى العربية التى تعهدها .

كان أبو حنيفة منطقيًّا ، والمنطق جوهره القياس ، فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته .

وإذا كانت الشريعة معقولة المعنى ، فلماذا لا يتعرف المجتهد ، باستقراء الأحكام الشرعية ، وجوه المصلحة فى النصوص ليستخرج منها القواعد العامة التى يقوم الشرع عليها ، ويلحق مالا نص فيه بما فه نص لا تحاد علة الحكم فى الأمرين ؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلابد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالقياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجوداً وعدماً ، كما أن المعقول دائر مع أخبارها وجوداً وعدماً ، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل : وعلى ذلك فنى كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للإسلام سواء بنص أو باجتهاد حيث لا نص .

وإذن فليعمل المفكرون فكرهم فى تعرف العلل وإضافة الأحكام إليها وضبط النتائج ، وتفريع الفروع ، فى فهم وإحاطة لخاق الأحكام وابتكار الآراء ، وفى ذلك تتفاوت الملكات ، وتتميز الكفايات من الكفايات ، كتميز الزجاج من البلّور وتميز البلّور من الماس ، ذلك يخترقه الشعاع بلا حائل وذلك يعكس الأضواء بعض الانعكاس ، أما الماس فهو الماس ، يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فيوضًا من النور والبهجة والائتلاق .

لقد طالما نزل أبو حنيفة إلى معارك المتكلمين فى صدر شبابه فخلف هذا النزال أثره فى ملكة الجدال ، وربط حاضره بماضيه فى حياة عملية ذات ألوان وأحداث .

والجدال هو العدة الأولى للعقل الفقهى سواء فى الفقه أو القضاء أو الدفاع لأنها جميعًا تقوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أى على القياس .

لم يك أبو حنيفة إلا غلامًا طرى الإهاب عندما صحب الشعبى فى سفينة فسمع الشعبى يقول : « لا نذر فى معصية ولا كفارة فيه » ، فاستوى الفتى الرشيق الفهم ، مناضلا راشق السهم ، يقول : « بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل فى الظهار الكفارة بعد أن جعله معصية فقال : (وإنَّهم لَيَقولُون مُنْكراً مِنَ القَوْلِ وزُوراً) وقد أوجب فيه الكفارة ..) فلم يحر زعيم المحدثين جوابًا سوى أن قال : أقياس أنت ؟ .

والظهار لغة هو أن يظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها ، أنت علىّ كظهر أمى ، وشرعًا هـو تشبيه المسلم زوجتـه أو جزءاً منهـا بمحرم عليـه ، مؤبداً .

ولو امتد الأجل بالشعبى أعوامًا لجاءته الأيام بالجواب عن أبى حنيفة .

إنه لفى المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه فى مسألة يديرونها بينهم ، إذ صاح من ناحية المسجد فتى أزله الخلق الشكس فقال : ما هذه المقايسات ؟ دعوها فأول من قاس إبليس ، فلم يغضب أبو حنيفة لأن الغضب خلة لسليب الحجة ، بل أقبل على الفتى يكبته بآى الكتاب ، فذلك أدنى ألا يرتاب . قال : يا هذا وضعت الكلام فى غير موضعه ، إبليس رد على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى : (وإذ قُلْنا للمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّه) .وقال تبارك وتعالى (فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُم أجْمَعُون إلاَّ إبْلِيسَ أبَىَ أنْ يَكونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) . وهذا القياس الذى نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأنا نرده إلى أصله ، أمر الله تعالى فى كتابه ، أو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فاتبعنا أيضًا فى ردنا كتاب الله وسنة رسوله والإجماع . فنحن ندور حول الاتباع فنعمل بأمر الله تعالى ، وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى ورده فكيف يستويان ؟

أتت الفتى هذه الحجج بغتة فبهتته ، وكأنما أحاطت به خطيئاته ، فرأى العذاب وتقطعت به الأسباب وراح يقول : غلطت يا أبا حنيفة وتبت ، نور الله قلبك كما نورت قلبي . . .

كان من رأيه أن قراءة المصلين خلف الإمام فى الصلاة تكفى عنها قراءة الإمام ، فقصد إليه رهط من أهل المدينة يحاجونه ، قال : لا يمكننى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم ، فاختاروا لجداله أعلمهم ، قال : وهل إذا ناظرته أكون قد ناظرتكم ؟ قالوا : بلى : قال : إن ناظرته لزمتكم الحجة لأنكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم . وهكذا نحن اخترنا الإمام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا : فأقروا بالإلزام .

كان يبحث عن علل النصوص فيجرى الحكم الشرعى على مقتضاها لا على ظاهر الألفاظ ، فإذا سمع حديث النبى عن الزكاة أن فى كل أربعين شاة شاة ، رأى أن مراد الحديث أن يتصدق صاحب الأربعين بشاة من الأربعين أو بما يعادل ثمن شاة . وإذا طبق حديث صدقة الفطر صاع من تمر أو شعير . قال : إنما يراد به أن يتصدق المرء بصاع أو ثمن صاع أو بدقيق الصاع .

وإذا فسر رواية أبى هريرة لحديث الرسول عن رد الشاة المصراة بعد احتلابها ورد صاع من تمر « وهى الشاة التى يُربط ضرعها قبل البيع حتى يظن المشترى بها غزارة اللبن » فالمقصود عنده هو الصاع أو ثمن الصاع .

ذلك بأن أبا حنيفة يرى أن ضمان التلف فى الشريعة هو أن يرد المثل إن كان التالف من ذوات الأمثال أو القيمة إن كان من ذوات القيمة .

أما المدرسة الأخرى فترى أنــه لا يجزئ عن شىء من ذلك ثمنــه أو مثلــه .

* * *

قالوا إنه يترك النصوص والأحاديث لأقيسته ! والحق غير ذلك : فأبو حنيفة هو القائل : « وكل شىء تكلم به عليه السلام فعلى الرأس والعين قد آمنا به

وشهدنا بأنه كذلك ، ونشهد بأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بشيء يخالف أمر الله ، ولم يقل غير ما قاله الله تعالى وما كان من المتكلفين . قال تعالى : (من يُطعُ الرسول فقد أطاع الله) . . . وإن كتب أبي حنيفة لملأى بترك القياس إلى الحديث .

قال زفر : لا تلتفتوا إلى كلام المخالفين فإن أبا حنيفة وأصحابنا لم يقولوا فى مسألة إلا من الكتاب والسنة والأقاويل الصحيحة ، ثم قاسوا بعد عليها .

والشافعى نفسه يقول : « أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به . . . »

إنما كان الأمر عند أبي حنيفة وصحبه أمر ثبوت للسنة أو عدم ثبوت .

قال ابن خلدون : « واعلم أيضًا أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا فى الإكثار من هذه الصناعة . وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة فى الحديث ، فلهذا قلت روايته : ولا سبيل إلى هذا المعتقد فى كبار الأئمة . . وإنما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التى تعترضه فيها . . . »

وقديمًا قدم على بن أبي طالب القياس على خبر الواحد

قال أبو يوسف : « ما خالفت أبا حنيفة فى شيء فتدبرته إلا رأيت مذهبه الذى ذهب إليه أنجى فى الآخرة وكنت ربما ملت إلى الحديث وكان هو أبصر بالحديث منى . . .»

وفى سبيل الاستيثاق من الروايات اعتزت مدرسة الكوفة وأستاذها بسلسلة الكوفة ورواتها .

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى بدار الحناطين بمكة ، فسأله الأوزاعى عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع فى الصلاة وعند الرفع منه ، فأجابه : لأنه لم يصح عن النبي شيء فيه . قال الأوزاعى : كيف وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة

والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شيء من ذلك .

قال الأوزاعي : أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن إبراهيم

فأجاب أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهري .

وكان إبراهيم أفقه من سالم .

وإن كان لا بن عمر صحبة أو له فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله :

أما عن سلسلة الأوزاعي : فالزهري هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان عبد الله كثير الاتباع للآثار ينزل منازل الرسول حيث كان يصلي، ويتعهد الشجرة التي جلس تحتها الرسول حتى لا تتيبس، لكنه كما قال عنه الشعبي وهو أحد خصوم الرأي : كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه .

أما سلسلة أبي حنيفة فهي سلسلة الكوفة : حماد هو أستاذه حماد، وإبراهيم هو إبراهيم النخعي ، وعلقمة هو علقمة النخعي الذي قال عنه ابن مسعود إنه ما قرأ شيئًا أو علمه إلا قرأه علقمة أو علمه ، والأسود هو الأسود بن يزيد بن أخي علقمة وتلميذ معاذ وابن مسعود : وأما عبد الله فهو عبد الله بن مسعود العظيم.

ولقد كان الأوزاعي يجادل في أبي حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة .

قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت فقال لي : ياخراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئت يوم الثالثة ، وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم ، والكتاب في يدي فقال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فناولته فنظر في مسألة منها ... فما زال قائماً بعدما أذن حتى قرأ قدراً من الكتاب ثم وضع الكتاب في كمه ثم قام وصلى ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها ، ثم قال لي : ياخراساني من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت : شيخ لقيته بالعراق .فقال : هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه . قلت : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه .. »

فلما اجتمعا بمكة جاراه فى تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك . ولما افترقا قال الأوزاعى لا بن المبارك : « غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت فى غلط ظاهر . الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغنى عنه . »

وكما كشف الأمور للإمام « الأوزاعى » كان يكشفها للإمام « الثورى » : جاءه رجل يقيمه الهم ويقعده قال : حلفت بالطلاق لا أكلم أمرأتى قبل أن تكلمنى . قالت : والعتاق لازم لا أكلمك قبل أن تكلمنى — فكيف أصنع ؟ قال : اذهب فكلمها ولا حنث عليكما ، فذهب الرجل إلى « سفيان الثورى » فهرول سفيان إلى أبى حنيفة يقول : « أتبيح الفروج » قال أبو حنيفة : « هو كذا : إنها لما قالت له وعلى العتاق إلخ .. شافهته بالكلام فانحلت يمينه، فإذا كلمها لم يقع الطلاق » .

قال الثورى : إنك لتكشف ما كنا عنه غافلين .

حقًا : كم كان صحيحًا قول الشافعى : « قول أبى حنيفة أعظم من أن يدفع بالهوينا» . وقول عبد الله بن المبارك : « رأيت الأكابر فى مجلس أبى حنيفة صغاراً وما رأيت أحداً حاور أبا حنيفة إلا رحمته » .

بل قوله : هاتوا لى مثله و إلا فدعونا ولا تعذبونا .

* * *

ويتصل بمذهب أبى حنيفة فى القياس مذهبه فى الاستحسان وهو الأخذ بمصلحة جزئية فى مقابل دليل كلى: يلجأ إليه إذا كانت نتائج القياس لا تستساغ بأن كان طرد القياس يؤدى إلى غلو فى الحكم ومبالغة فية فيعدل عنه فى بعض المواضع ، ويمتى المجتهد بما يحسن وقعه فى النفس فى تلك الحالة بذاتها ، فيفرد للوصف الذى تحس به نفسه حكماً غير ما ينتجة القياس .

قال عليه الصلاة والسلام : « استفت قلبك و إن أفتاك المفتون ... »

ولقد نعوا على أبى حنيفة تركه القياس إلى الاستحسان ، قولا بأنه خروج منه

عن قاعدته الكبرى وهى القياس ، لكن الذين آخذوه على الاستحسان طالما كانوا يستحسنون .

رووا عن مالك أنه قال : « تسعة أعشار العلم الاستحسان » .

إن القياس أداة تحركها عين باصرة ويدكلها إحساس ، والمفكر الذى كانه أبو حنيفة ليس هو الذى تستعبده أدواته ، ومن يصنع شيئاً لا يسجد له ، والرجل الذى يطبعه الحسن فى ذاته ، وفى كل أسباب حياته ، لم يكن ليتجنبه فى مقولاته .

قال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يناظر أصحابه فى المقاييس فينصفون منه ويعارضونه حتى إذا قال استحسن لم يلحقه واحد منهم لكثرة ما يورد فى الاستحسان فيدعونه جميعاً ويسلمون له . بل قال ابن شبرمة : إن كان يجوز لأحد أن يتكلم فى دين الله برأيه فأبو حنيفة إذا قال استحسنت .

حضر مع العلماء وليمة رجل زوج ابنتيه من أخوين فخرج الولى وهو يقول : أصبنا مصيبه عظيمة ، غلطنا فزفت إلى كل واحد غير امرأتة وأصابها . قال سفيان : لا بأس بذلك كما حكم به على كرم الله وجهه ... فقال : أرى أن على كل المهر بما أصاب من المرأة وترجع كل إلى زوجها . فاستحسن الناس منه ذلك وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر : قل فيها . قال سفيان : وما عسى أن يقول خلاف هذا ... قال أبو حنيفة : على بالغلامين . فأحضرا ، فقال لكل واحد منهما : أتحب أن تكون عندك التى زفت إليك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم امرأتك التى عند أخيك؟ قال : هى فلانة، قال قل هى طالق منى . ثم زوج كلاً المرأة التى مسها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر . فعجب الناس من فتياه بذلك، حتى قام مسعر فقبله وقال ، تلوموننى على حبه ... وسفيان ساكت لا يقول شيئاً .

وكلا الحكمين حق: فحكم على حكم الوطء بشبهة وهو يجب فيه المهر ولا يرفع النكاح ...

وحكم أبى حنيفة حكم يدرء ما يترتب من القسوة بعد إذا أفضت كل امرأة إلى رجل بما أفضت من اسنها مما تعلق به الأنفس . ولو صارت تحت غيره .

فكان حكم أبي حنيفة إلهاماً موفقاً ، لأن لصاحب عدة الوطء بشبهة أن يعقد بالموطوءة فيها ، وفى ذلك من المصلحة ما أسكت سفيان وجعل مسعراً يقبله .

* * *

قال أبو حنيفة يوماً لتلميذه داود الطائى عن العلم : أما الآلة فقد أحكمناها .
قال داود : وهل بقى شىء ؟ قال الإمام : العمل .

فانتقل عنه هذا التصوير للعلم إلى الآلة التى صيرت علمه مذهباً فى العالمين وهى أداة الاجتهاد أو أداة القياس .

وضع أبو حنيفة يده على تينك الآلتين فاختلطتا فى يده وصارتا كالمولد العظيم للقوى،وجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما (الرأى) :: أو كما قال الشافعى أصبحا اسمين لمعنى واحد . ذلك بأن الاجتهاد لا يكون إلا بدلائل والدلائل هى القياس ، وإذا بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب فى كل الآلات والمحركات،وإذا بحلقات الفقه تضحى كمعامل الإنتاج الكبير ، حتى تكاد الآذان تسمع وقع العجلات ودق الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثنى عشر ، وإذا بهذا الروح الخالق يهيب الحياة للإنتاج الهائل الذى خلفه لنا القرنان الثانى والثالث ومازال يهيب الفقه حياته كلها إلى الآن .

حقا إن هاتين الآلتين لم تكونا من مخترعاته لأن النبى والصحابه قد اجتهدوا وقاسوا ، لكن الرسول إذ يشرع هو صاحب الشريعة ، واجتهادات ابن الخطاب عمريات ليس يقدر عليها سوى الفاروق ، كذلك كانت اجتهادات أبى بكر وعلى وما عداها من اجتهادات الصحابه والخلفاء ، لم تك إلا ومضات خاطفة لمعت فى المناسبات ، أما الفتى الخزاز كما يسميه ابن أبى ليلى ، فلم يكن أميراً للمؤمنين ولا والياً ولا قاضياً ، لكنه جعل هذه الومضات العابرة شمساً تغمر الأكوان كلها بالنور،واتخذ منها تمثالا شامخاً يربط كل ما فى الوجود إلى قاعدته بخيوط من الشعاع الذهبى المسمى بالفكر ، فيتحكم فيما حدث وفيما سيحدث ، وفيما قد لا يحدث من الأمور .

وأيه جسارة كانت هذه الجسارة

لقد كان أبو بكر يقول : « أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى

القرآن مالا أعلم » وهو مقال ينم عن خطورة التعرض لتطبيق أحكام الكتاب ، وتفسير آياته .

سئل أبي بن كعب وهو من فقهاء الصحابه المقدمين عن شيء فقال : أكان هذا ؟ قال السائل: لا . قال : فأجّمنا حتى يكون فإذا كان «اجتهدنا» لك رأيًا .

وروى عن زميله زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فإن قيل له وقعت أفتى فيها . وإن قيل له لم تقع قال دعها حتى تكون .

وكان عبد الله بن عمر لا يكثر من الفتوى تورعًا منه ، برغم أنه تصدى لإفتاء الناس ستين عامًا ، وأن أهل الشام مالوا إلى توليته الخلافة فزهد فيها .

وكان التابعون يرفضون الجواب عما لم يقع كأن فى الافتراض مجامة أو رجمًا بالغيبُ أو تحديًا للمستقبل ، مخافة أن يحللوا حرامًا أو يحرموا حلالا دون إلمام تام بالظروف .

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال : لم أسمع فى هذا شيئًا . قال السائل : فأخبرنى أصلحك الله برأيك : قال : لا . ثم أعاد عليه فقال : أرضى برأيك . فقال سالم : إنى لعلى إن أخبرتك برأى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيًا فلا أجدك .

قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس . وما عبدوا الشمس والقمر إلا بالمقاييس . وروى الليث بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهرى بشئ من الرأى فقبض وجهه كالكاره ، ثم جاءه بأحاديث من السنن فتهلل وجهه وقال : إذا جئتنى فأتنى بهذا .

وكان الشعبي يقول : « ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن والروح والرأى » .

ويقول : احفظ عنى ثلاثًا لها بيان : إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك أرأيت (أى لا تفترض) فإن الله تعالى قال فى كتابهْ : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ . . .) وإذا اسئلت عن مسألة فلا تقس

شيئاً بشئ فربما حرمت حالا أو حللت حراماً ، وإذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم : وأنا شريكك .

كان ذلك قبل أن يظهر علم أبى حنيفة ، وكان كذلك من بعد ظهوره : روى أسد بن الفرات بعد إذ قدم إلى المدينة على مالك « وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلوننى أسأله فإذا أجاب يقولون قل له : فإذا كان كذا ؟ فضاق على يوماً فقال لى : « هذه سليسلة بنت سليسلة ، إن أردت هذا فعليك بالعراق » .

وفى كلمة مختصرة كان أهل الأثر لا يأخذون بالرأى إلا اضطراراً ، مكرهين عليه إكراهاً ، ولا يستخرجون أحكاماً لمسائل لم تقع بل لا يفتون إلا فيما يقع .

لكن أبا حنيفة إذ يقدم للناس أداة الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم يقع ، لا يفرق مما قدمت يداه : بل يفرضها على الفقهاء فرضاً ، ويهيب بالعلماء أن ينهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها ، ثم يقف إلى جانبها جباراً يملأ العين والسمع ويزحم حواس الناس أجمعين ، عقوداً ثلاثة أو أربعة من القرن الثانى للهجرة : معلناً للملأ أنها أداته التى يخلق بها مالا يعلمون ، وأن العقل والنقل : أو الفكر والنص ، هما الأساس الذى تبنى عليه أصول الفقه الإسلامى وفروعه ، حتى إذا سجلوا عليه وزر هذه الأداة باهى بما سجلوا عليه وكافح فى سبيله :

ذلك الرجل إذا لم يك مخترع هذه الأداة فإنه كاشفها الذى جمع القطر فصيره من فيض عقله بحاراً . والكشوف العلمية لم تخترع المكتشفات اختراعاً ، وإنما بصرت بها بين المجاهيل : والرسالات الفكرية كالكشوف تهدى إلى الحق الكائن بعد أن يسبقها التمهيد والإعداد والارتياد :

لم تكن الكهرباء ابتداعاً ، ولا الراديوم ، ولا البسترة (التعقيم على طريقة پاستور) ولا أمثالها ، وإنما هى كشوف هدت إليها الصدفة حيناً والكدح والضنى أحياناً ::: وكذلك كان كشف المولد الذى قدمته مدرسة الكوفة إلى العالم الفقهى ، أثراً لجهد ناصب دام أربعين عاماً فى عهد أبى حنيفة ، بعد أن ظل قرناً كاملا من الزمان جنيناً يضطرب فى بطون التاريخ الإسلامى ، حتى قدمته يد أبى حنيفة إلى الوجود :

ترى ماذا كان مصير الشريعة الإسلامية إذ هى وقفت فى حدود ظاهر النصوص أو اكتف بمدلولاتها المباشرة : سواء فى المائتى آية أو العدد القايل المسلم به من الأحاديث أو غير المسلم به منها، أو بذلك الاجتهاد الفردى أو القياس العرضى ! ترى ماذا كان مصير هذه الحضارة الإسلامية إذا لم تستند إلى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفية السمحة التى يهدف إلى نشرها هذا الدين ؟ ؟ ماذا كانت صانعة هذه الآلاف من الملايين وهذه الهزات الفكرية وهذه الحياة الدائمة المتجددة ، وهذا العالم المتباين المتغاير ، وهذه القرون التى يحمل كل منها طوابعه ، وهذه البقاع والأجناس والحضارات ، من آسيوية إلى أندلسية ومغربية وهندية وصينية وأوربية ومصرية وغيرها ! ومن حضارة القرون الأولى إلى حضارة القرون الوسطى إلى حضارة الآلات !

إنما يرجع الفضل فى سداد الشريعة الإسلامية لمطالب الحضارة الإسلامية إلى هذا المولد ، الدائم التوليد ، مثله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة يتضاعف نباتها دواليك حتى يكسف القمران ، أو كالمتواليات الهندسية التى تجعل العدد البسيط (١٠ مثلا) مائة مليون فى ثلاث عمليات فحسب ، أو كالجواهر الأصلية التى تخرج منها كل المركبات وتستجيب لجميع الحاجات :

لكأنما كان أبو حنيفة يعنى نفسه حيث يقول : « من يطلب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلانى يجمع الأدوية ولا يدرى لأى داء هى ، كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجئ الفقيه » .

والذى يقوله عن طالب الحديث هو القول الصحيح فيمن لا يتصرفون فى النصوص ، فأولاء يلتزمون النصوص كأولئك يختزنون الدواء ، لا ينفعون به ولا ينتفعون : عجزوا عن أن يجعلوا من العقارات الناجعة ، مركبات نافعة ، تتلاءم فى كمياتها وعناصرها مع أشخاص المرضى وأصناف الداء . أما الطبيب الحق فيأخذ من كل عقار ما يشفى الداء كما يشاء خالصاً أو ممزوجاً أو متفاعلا :

بهذا المولد الدائم ، وبالفكر النافذ ، لم يتردد أبو حنيفة عن أن يقول « أرى » و « رأيت » ويحكم على المستقبل ويرفع سماء الفقه على عمد الحرية ، فلم يبق فى

الأمة مشاكل بلا حلول ، ولم يعد الفقه الإسلامى محجوراً عليه أن يملأ كل فراغ فى مستقبل الزمان ، لأن العلماء كما قال أبو حنيفة « يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله ليعرفوا طريق الدخول فيه والخروج منه » :

فيا للفكاهة التى زعموا عن الشافعى تعريضاً بكتب أبى حنيفة وتلاميذه عندما سيق الشافعى ليحاكم فى بلاط الرشيد حيث قال : « .. قدمنا على هارون ... ومعى خمسون ديناراً ... ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقة فأنفقت الخمسين ديناراً على كتبهم ، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم ، مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ وكان يحمل الدهن فى زق له ، فكان إذا قيل له : عندك فرشنان ! قال : نعم : فإن قيل له : عندك زئبق ! قال : نعم ، فإن قيل له : عندك خيزى ! قال : نعم ، فإذا قيل له أرنى ؟ وللزق رءوس كثيرة ، فيخرج له من تلك الرءوس ! وإنما هى دهن واحد ! كذلك وجدت كتاب أبى حنيفة إنما يقولون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإنما هم مخالفون له ... »

بلى هو دهن واحد حقاً كما نسبوا القول إلى فتى قريش العظيم ، لكنه أصول الشرع الإسلامى وقواعد الفكر السليم ، وهو دهن يخرج الزئبق والخيزى والفرشنان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل الألوان ، كما أخرج هو منه كل شىء بعد قليل من الزمن ، وإذا كان كتاب أبى حنيفة قد خالفوا الشافعى فى فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المثابين أجمعين .

سمع ابن سريج رجلا يتكلم عن أبى حنيفة فقال : يا هذا مه : فإن ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالإجماع والربع الرابع لا يسلمه لهم . قال : وكيف؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم. ثم أجاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ : فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقى ، والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمه لهم :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن السؤال نصف العلم » ، وعلى هذا الحديث فرع الملك عيسى الأيوبى فقال مقالة ابن سريج :

وفى الحق إن الأسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظرى للمشاكل التى

تحتاج إلى حلول : ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف الاستعراض ، وهو ما يسمى بضعف السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن البعض قوة السؤال وضعف الجواب : ومن أجل هذا كان للأسئلة رجال وللأجوبة رجال :

قيل عن الحسن بن زياد إنه أحسن الناس سؤالا ولم يكن جوابه على قدر سؤاله :

أما أبو يوسف فقد قيل إنه أحسن الناس سؤالا وجواباً :

ولما مدح الشافعى محمد بن الحسن أثنى عليه« لبيانه وتثبته فى السؤال والجواب والاستماع . »

أما الشافعى فقال فيه محمد: «إن كان أحد يخالفنا ونثبت له فالشافعى رضى الله عنه » قيل : ولم ؟ قال : « لتأنيه وتثبته فى السؤال والاستماع » :

ولكل من الضعف فى السؤال أو فى الجواب أسباب لسنا بسبيل شرحها ، فبحسبنا التنبيه على أن هذه المدرسة أول من استعرض مسائل الفقه استعراضها الشامل وأجاب على فروضها الإجابات الضافية ، فكان لها فيما أصابت فضل السؤال وفضل الجواب ، وفيما أخطأت فضل السؤال وفضل الاجتهاد : وكان لها فوق هذه الأفضال جميعاً فضل السبق فى التدوين والترتيب والتبويب :

أنجب الفقه الإسلامى هذا الإنجاب ، وتبارت فى مضماره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحمى نحو قرنين من الزمان ، وقف بعدهما التيار إذ أوفى على التمام ، حتى إذ مات الطبرى سنة ٣١٠ ذهب بموته آخر الأولين ، وأصبح الناس ، من بعد ، وقد تهيأت أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجش البغيض : أن قد أقفل باب الاجتهاد ! وانفتح باب التقليد ، وسرت عدواه كالوباء بتخطى القرون والقارات ، وانطبع العلم بطابع الجمود ، ومسخت روحه وأصبحت قضاياه كالألغاز :

* * *

ستذكر الإنسانية هذه اليد لأبى حنيفة عليها وعلى الإسلام فتسلكه فى سلك المناضلين المتلألئين فى ظلمات الاضطهاد ، كلما صب فوق رءوسهم من عذاب الجحيم برزت كالعسجد الحر مزاياهم : وتميزوا من الناس كما يتميز الماس من الفحم — وهما من أصل واحد — لأن الماس يتحمل الضغط العالى ولا يفنيه الحريق وكلما

صبت عليه النار ردها أنواراً ، أما الفحم فهو الفحم ، ظلمات بعضها فوق بعض . لا يصبر على الضغط وصلاحيته الأولى للوقود .

سيذكر المؤرخون ذلك الاضطهاد على أنه مجد الإمام الأعظم ، فلو لم ينغض إليه الحمق رءوسهم لدلوا على أنه لا وزن لعلمه ولا لعمله . فبقدر ما يوزن للرجل فى ميزان الرجال يوزن له من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع ! ولا عجب إذا كان الرجل صاحب الرأى هو الرجل صاحب الخصوم .

والعمريات الهائلة التى خلد بها مجد الإسلام لم تمنع أن يكون للفاروق خصماء رأوا فى وجهاته التشريعية واجتهاداته بعداً عما ذهبوا إليه من التمسك بظاهر الكتاب والسنة ، وهو هو عمر الذى كان فى يده من كنوز الإمبراطورية الإسلامية ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة : ولكنه لم يك يملك إلا قميصه ودموعه وتقواه . . .

ولم تمنع منه المطاعن شهادة الرسول له أنه لم ير عبقرياً يفرى فريّه ، أى يصنع صنيعه ، وأن « عمر معى : والحق مع عمر حيثما كان » و « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » :

وقف عليه أعرابى فقال : ياعمر الخير جزيت الجنة : اكس بناتى وأمهنه :

قال عمر : فإن لم أفعل ماذا يكون ؟

قال الأعرابى : والله عنهن لتسألنه : إما إلى نار وإما إلى جنة .

فبكى حتى أخضبت لحيته ، وقال لغلامه يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم « يوم السؤال والحساب » لا لشعره .

ثم قال : والله ما أملك غيره .

ولم يك أبو حنيفة عاطلا من الفضل العمرى وأشباهه بل هو كان قطب الزمان ، زهادة وعبادة ، وقوة إيمان وسداد رأى ، وزعامة فكر ، وهى جميعاً أسباب خصومة لأنها أسباب كرامة !

وسينسى الناس ما سال فى هذه الحرب من جراحات اللسان والقلم : فأبو حنيفة الإمام الأعظم لأهل السنة فى علوم القرآن والحديث والتفسير لا يعرف اللغة العربية..!

فلا يجر المجرور ، وإن كانت تجره حروف الجر الغلاظ ... !

قال الليث بن سعد : « بلغني أن أبا حنيفة يريد الحج فخرجت إليه قاصداً ، فلقيته بمكة ، فسألته عن مسائل كثيرة في أبواب متفرقة وسألته عن مسائل الجنايات وعن قتل الخطأ وشبه العمد فقال لى في بعض ما أجابني ، (وإن ضربه بأبو قبيس) — جبل أبي قبيس — وفي رواية أخرى بأبا قبيس ، فقضينا المناسك ورجعنا ، ثم بلغني بعد ذلك أنه يريد الحج فخرجت إليه قاصداً فأردت أن آخذ عليه حرفاً واحداً ما قدرت عليه ، فما أدرى أندرت منه تلك الكلمة أو تكلم بحجة . »

فيا لأدب الليث ويا لحماقة الخصوم! إنها لم تندر من أبي حنيفة وإنما تكلم بحجة . فقد يكون تكلم عن أبي قبيس باعتباره علماً والعلم لا يغير . وإبدال الواو في « أبو قبيس » ياء عند الجر أو ألفاً عند النصب واجب يعرفه الأحداث فلا يجادل فيه إمام الأمة الأعظم ، المفسر ، الكاتب ، المتكلم ، الأستاذ ، الفقيه .

تلك واحدة في اللغة ، وهذه أمثالها في العقيدة .

فأبو حنيفة مرجئ إذ يقول إن العمل ليس ركناً للإيمان .

وأبو حنيفة زنديق ، تاب ، ثم فسق عن أمر ربه فتزندق مرة أخرى ، ثم تاب . وإنه كافر تاب من الكفر مرات !

بل هذا رجل يقول : أراه كان يهودياً !

وهؤلاء آخرون يقولون : كان جهمياً !

فلندع قولهم إنه كان زنديقاً أو كافراً أو يهودياً .

أما أنه كان من أشياع جهم بن صفوان الذى كان يقول إن الإنسان مسير لا مخير وينفى صفات الذات الإلهية ، ولا يشترط للإيمان النطق به ، فحسبه تكذيباً أن جهماً قصد إليه يجادله فأجابه بقوله : «الكلام معك عار والخوض فيما أنت فيه نار : » ثم طفق يقرع حججه واحدة إثر واحدة حتى فصل عنه جهم وهو يقول : « لقد أوقعت في الخلد شيئاً فسأرجع إليك » .

وكيف يكون جهمياً من كان مذهبه أن الصلاة خلف الجهمى لا تجوز ؟!

أما أن أبا حنيفة مرجئ ، فلعلها من تهم الخوارج أو المعتزلة الذين لا يقولون بالإرجاء . فليس ثمة ريب فى أن عامة المسلمين مرجئون على المعنى الذى شرحناه من قبل ،لا يكفرون مرتكب المعصية كالخوارج ولا يجعلونه فى منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة ، وإنما يرون له التوبة والمغفرة ، ويتركون حسابه إلى الله :

قال عُمر بن حماد بن أبى حنيفة : « أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت لعل الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهبه فإن كان فيه رضاك فذاك وإلا فعظنى : إن الإمام كان لايخرج أحداً من الإيمان بذنب . قال أصاب : قلت : وكان لايكفر قاتل النفس قال : أصاب فمن قال غير هذا فقد كذب وأخطأ : قال : بلغنى أنه كان يقول : إيمانى كإيمان جبريل : قلت : بلغك الباطل كان يقول إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى النبى صلى عليه وسلم كما بعثه إلى من قبله فأمره أن يدعو الناس إلى الإيمان : فالإيمان إيمان واحد لاإيمانان أو ثلاثة ،ولا إيمان هذا وإقراره غير إيمان ذا وإقرار ذا . فتبسم كالراضى به ولم يقل شيئًا . قلت : وكان ينكر الشك فى الإيمان . قال : وما الشك فيه ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون إننا مؤمنون حتى يستثنوا أو يقول أحدهم لا أدرى أنا مؤمن أم لا . فأنكر وقال : من يقول هذا . »

ذلك قول مالك فى قول أبى حنيفة :

والناس يرون أبا حنيفة بأعينهم رجلا هو المثل العالى همة فى الدين ، يحيا حياة طويلة ليست فى عداد الزمان إلا سجدة مخلصة لله ، ولا يبقى من ماله الضخم إلا النفقة ، ويسمعونه بآذانهم فى المسجد ، وفى كل مكان ، يجاهد بقلبه وبلسانه وبيده حتى تكون كلمة الله هى العليا . وهم يقرءون ويستمعون إلى كتبه « العالم والمتعلم » و« الفقه الأكبر » وكتابه فى الأرجاء إلى عالم البصرة عثمان البتى ، وإلى القواعد الواردة فى الوصية المعزوة إليه ،وفيها جميعاً الحجج الباهرة على أهل الإلحاد والبدع : وهم يعرفون إفحامه لأهل الإلحاد ويتناقلون تمثيله للعالم بالسفينة ، ولخالقه بالسفان ، حيث يسائل المشككين : « ... ما تقولون فى رجل يقول لكم إن سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة بالأمتعة والأثقال قد احتوتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها. هل

يجوز ذلك فى العقل ؟ فقالوا : لا ، قال : فيا سبحان الله إذا لم يجز فى العقل وجود سفينة تجرى مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها .: ؟) :

فلم يبق إلا التهمة التقليدية التى وجهت من قبل إلى السيد المسيح وهى أن أبا حنيفة يحرض على عدم التعاون مع السلطان. لكن السلطان ليس أذناً لهم فلا يأفف لفهم ولا تقع الواقعة . فلم يبق فى جعبة السهام إلا أخيها . سهام القذف والكلم القوارص :

فأبو حنيفة من أبناء السبايا . . . ومن الدجاجلة ، . . بل إنه ليروى عن شريك أنه قال :

« لأن يكون فى حى من الأحياء خمار خير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبى حنيفة » وإنه لم يولد فى الإسلام من هو أشأم منه على الإسلام . . .: وهو كان جرباً . يراه الرجل مقبلا نحوه فى المسجد فيقوم قائلا لأصحابه ، قوموا لا يعرنا بجربه . . . فيقومون . . .

وهو لا يثق بنفسه فيحض تلميذه أبا يوسف على الشك فى مقولاته بقوله : لا ترو عنى فإنى والله لا أدرى أمخطئ أنا أم مصيب !

ثم إنه أجرأ الرجال على الرجال . قالوا ... إن رجلا جاءه من خراسان يقول : عندى مائة ألف مسألة أريد أن أسالك عنها : قال أبو حنيفة : هاتها . وتساءلوا فيا بينهم أسمعتم أجرأ من هذا ؟

والجواب أن الجرئ على الحق ليس هذا المجيب وإنما ذلك السائل الوافد من خراسان لا يُعرف عنه إلا أنه إمعة من الإمعات ،ومع ذلك يزعم أنه يعى مائة ألف مسألة ! فمن أين له المائة ألف ؟ ومن أين له عقل يحفظها أو لسان يبسطها ! ! ولماذا لا يجئ ذلك اللوذعى بمسألة أو بضع مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات إعجازه الكبرى ؟

لقد كان جواب أبى حنيفة له جواب أستاذ عذب الروح يسمو على الأغلوطات .

ومن قبل أبى حنيفة كان ابن سيرين إذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل : أمسكها حتى تسأل عنها أخاك إبليس !

والأغلوطات — كما فسر الأوزاعى نهى النبى عن الأغلوطات — هى صعاب المسائل .

سأل عمر بن قيس مالك بن أنس عن محرم نزع نابى ثعلب فلم يرد عليه شيئاً .

أما أبو حنيفة فلم يسفه السائل بالكلام كابن سيرين ولا بالامتناع عن الكلام كابن أنس . لكنه أطاش حلم السائل بأن جعل نفسه رهن أمره فسفه الرجل نفسه وأخزاه الله .

وأما عن الرد على مائة ألف من المسائل فإن قواعد أبى حنيفة وفروعها تحوى أكثر من ذلك وأمثاله لمن يشاء .

* * *

يا لله أصحيح أنه لم يولد فى الإسلام من هو أشأم من أبى حنيفة على الإسلام ! أصحيح أن وجود أبى يوسف أو محمد أو داود الطائى أو زفر وأمثالهم فى حى من الأحياء شر عليه من وجود خمار يبيع فيه بنت الحان !

أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام : « ويل لعالم أمره من جاهله » .

أم أنه المجد وارتفاع المقام يعنيه محمد بن الحسن إذ يسمع قدح الخصوم فى أستاذه فيقول :

محسدون وشر الناس منزلة　　من كان فى الناس يوماً غير محسود

أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك :

حسدوا أنْ رأوك فضلك الله　　بما فضلت به النجباء

أو كما قال هو ذات يوم إذ أقبل عليه رجل ، فسأله : من أين أقبلت ؟ قال من عند شريك — وكانت بينهما وحشة كما رأيت — فرفع رأسه وقال :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم　　غيرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهمو　　ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

لقد كانت قاعدة « أن السلف لا يخالفون » فى قدسيتها عندما أعمل فيها معاوله ، ولم يك شاع فى الوسط العلمى أن أحكام المعاملات ليست تعبدية ، وعزيز على أنفس المتعنتين أن يقبلوا الاتجاه القاضى على ما ألفوه دون أن يتجمعوا ضده ، أو يصبروا على الجهر والإلحاح والتحدى بأن رأى إنسان من الأناسى يعتبر مصدراً

للحكم على حاضرهم وماضيهم ومستقبلهم !

أم أنه ليس الحسد ، وليس الجهل ، ولا التعصب هى التى جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإنما هى الخصومة القديمة الضاربة بجرانها بين القديم والجديد .

لم تك هذه التهم إلا تهماً تقليدية يلقاها الباحثون على صفحات التاريخ فى كل زمان ومكان ! شنشنة عرفها رجال الفكر من أعدائه ومن أدعيائه ، تدعى أيًّا ما تدعى ، بأسماء مختلفة أو متشاكلة ، لكنها لمسمى واحد قد يسمى فى المشرق بالزندقة . تحويراً لتعبير فارسى يراد به الإلحاد ، ويسمى فى الغرب بالمرطقة يراد به – فى الواقع – أعداء الكنيسة فى الاعتقاد .

لكأنما تضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء النابغين وإن كانت الدنيا لا تضيق بأجسادهم ! وإلا ففيم لا يطيق الناس قيام المجد إلا بعد أن يزايل صاحبه دنياهم ، فيصبح معنى من المعانى وذكراً فى الزمن !

كأنما ترسل النفس القوية على الأرض شعاعاً تعشى من ضيائه الأبصار ، فإذا صعدت إلى بارئها تنفس الصعداء هؤلاء الملتصقون بالثرى . وفتحوا أعينهم فى أفق أوسع وألمع !

هنالك يبايع الأحياء موتاهم ويقيمون التماثيل لمن أخلى مكانه فى الوجود . . فإذا بايعوا الأحياء بايعوهم مجبرين غير مختارين ، ورضوا بهم كما يرضون بقضاء الله الذى لا يرد ، وبظواهر الطبيعة التى لا تقاوم .

لا جديد تحت الشمس ، ولا جديد فيما قارفه خصوم أبى حنيفة فى عهده ، ولا فيما صنعه خصوم الفكر من قبله ومن بعده : لقد فقد (ليكرج) من ألفى عام قبل ذلك إحدى عينيه من جراء إحدى شرائعه !

إنما الجديد فى صدد أبى حنيفة أن الولاة لم يسمعوا ولم يخدعوا ، على فرط ما استمعوا وما انخدعوا فى حوادث الإيقاع بسواه . فلعلها بركة السنة على إمام أهل السنة الأعظم ، فلم تسمل له عين ولم تقطع له ذراع ، ولم تصبه محاكم التفتيش

ولا مذابح العقائد ، وحمى التاريخ مدرسة الكوفة وإمامها . فلم يقع ما وقع فى أثينا وروما وبيزنطة ومدريد وباريس وبغداد وغيرها فى الشرق والغرب ، فى عهد الحضارة الأولى أو فى القرون الوسطى أو الحديثة .

هنا لك ترى فى العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالإعدام خمسمائة قاض من الجماهير . لأنه يفسد عقائد الأثينيين ! وأرسطو يهرب خوفاً من تهديد مواطنيه ويموت فى مهربه ! !

وترى فى مطلع العصر الحديث ، بين مصدق ومكذب ، (كلفن) زعيم الإصلاح الدينى بعد مارتن لوثر ، فارس الحلبة لاتهام برونو بحجة الهرطقة !

وهناك حوكمت «القديسة» جان دارك وسرفانتس وكثيرون جد كثيرين من رواد العقل البشرى !

وهنا تجد المعتصم — بطل عمورية — وأخا المأمون — يجلد ابن حنبل بالسياط والجالد والمجلود صائمان ...! وابن عبد القدوس ، والبويطى ، وأحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح ، وابن تيمية وأمثالهم .

هنا وهنالك لقى الفكر الإنسانى من العذاب ما تندى له الجباه . . .

لقد صعد هذا الفكر الإنسانى درجات المشنقة ، وهوت عليه المقصلة، وشرد، وجرد ، وحرم الألقاب ، وذاق عذاب الحريق ، لكنه كان يبعث شعاعه على عمد المقصلة ويملأ الأرجاء بالإشراق .

وكانت غيابة السجن له أولى درجات الخلود .



الباب العاشر

فى القضاء

« كن من السلطان كما أنت من النار ، تنتفع
منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحترق »
أبو حنيفة

أبو حنيفة



كانت وظيفة الحكم فى الكوفة عملا لا يغبط عليه من وسد الأمر إليه وكان هم الولاة المقيم المقعد أن يستقضوا عليها أفقه الفقهاء .

فإذا قلبت الصفحات الماضية من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز العالى . .

ولى « شريح » القضاء فيها لعمر بن الخطاب ، فلعثمان بن عفان ، فلعلى ابن أبى طالب ، ليظفر منه بقوله : «أنت أقضى العرب» . وتولاه لمن جاء بعده فظل نحو ثلثى قرن فى عمله ، لم ينقطع إلا ثلاثة أعوام فى فتنة ابن الزبير حين استقال الحجاج فأقاله ، ومات فى العشرين بعد المائة من العمر وفى الثمانين من الهجرة .

وتلاه « الشعبى » . وما أدراك من الشعبى ! بعثه عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم . فلما قفل راجعـًا سلمه الملك خطابـًا إلى أمير المؤمنين . وقرأ عبد الملك الخطاب فإذا فيه : « عجبـًا من أهل ديارك ! كيف لم يستخلفوا رسولك ! ! » قال الشعبى : « يا أمير المؤمنين أراد أن يغريك بقتلى حسداً . . . »

وبلغ ذلك ملك الروم فقال : لله در أبيه ، ما أردت إلا هذا .

جلس الشعبى للقضاء نحواً من ربع قرن حتى مات سنة ١٠٤ فخلف من بعده الأستاذ الأول لأبى يوسف ، محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حتى سنة ١٤٧ .

وكان طبيعيـًّا أن تشرئب الأعناق إلى أبى حنيفة ليتولى منصب القضاء ، بعد أن جلس مجلس ابن مسعود فى الإفتاء ، فاتجه إليه يزيد بن هبيرة عامل مروان على العراق (١٢٧ — ١٣٢) حين قامت الفتن بالعراق فى أخريات أيام بنى أمية .

جمع يزيد ببابه ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، وداود بن هند ، وولى كل واحد منهم صدراً من عمله ، وتنازل لأبى حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون فى يده خاتم الدولة يختم به كل أمر ، وجعل له حق إنفاذ الأحكام التى يصدرها القضاة ، والخراج أيضـًا ، وختم أوامر الوالى ، فرفض أبو حنيفة ، وألح يزيد وأشار أصحاب أبى حنيفة عليه بالقبول فقال : «لو أراد أن أعدله أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب ، فو الله لا أدخل فى ذلك أبداً . . »

قال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فإنه هو المصيب .

وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط . قيل : ضربوه مائة سوط وعشرة ، كل يوم عشرة أسواط ، فلم يزده العذاب إلا ثباتاً .

لكن للدولة مآرب أخرى فى رضى الأستاذ ، فإن لم تفلح فى أن تضمه إلى رجال الحكم فلتمدد إليه بسبب من الأسباب : عرض عليه يزيد أن يسلكه فى الطراز — (بيت المال) — لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء ، وأغنى عن الخلفاء ، فأبى .

وقيل إنه ترك الكوفة إلى مكة سنة ١٣٠ وبقى إلى جوار بيت الله بضع سنين حتى تولى الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق إقليماً ثائراً على ما وصفنا ، وكانت الكوفة عنوانه ، لا يقتصر شغبها على الخلفاء والأمراء بل يتعداهم إلى الولاة والقضاة .

روى الشعبي عن شريح أن قد جاءته امرأة تخاصم رجلا فأرسلت عينيها فقال له : يا أبا أمية ما أخال هذه البائسة إلا مظلومة ! قال يا شعبي إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون ! !

وكان ذلك أيام لم يألف الناس أن يتباكى الظالمون كما يتباكون فى القرن العشرين ، كضاحك المزن ، دمع ولا حزن .

ودخل على الشعبي فى مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجة بحجتها وكانت بارعة الجمال ، فلما فرغت من بيانها التفت القاضى إلى المدعى عليه يسأله وما دفاعك ؟

فرد الشيطان على غير استحياء بهذه الأبيات :

فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها
فتنته بدلال وبخطى حاجبيها
قال للجلواز قربها وأحضر شاهديها
فقضى جوراً على الخصم ولم يقض عليها

والجلواز فى الفارسية ، هو الحاجب فى العربية أو الشرطى .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فى دمشق . فلما دخل عليه الشعبى ذات يوم ضحك وقال : فتن الشعبى لما رفع الطرف إليها . . . » وسأل القاضى : ماذا فعلت بالرجل ؟ قال : أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتى فى مجلس الحكومة وما افترى به علىّ ، قال : أحسنت .

كان المنصور يقول لخاصته : ما أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، فإنى عن ظلمها غنى ، والرابع صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاة البريد فى الآفاق يكتبون إليه أيام خلافته بسعر القمح وكل مأكول وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وما يرد بيت المال ، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب . ويكتبون إليه بما كان فى كل ليلة إذا صلوا الغداة . فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك. وإن تغير شىء عن حاله كتب إلى الوالى والعامل . وإن شك فى شىء مما قضى به القاضى كتب إليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه .

لقد تغير العراق فى الدولة الجديدة فأضحى مركز الدائرة بعد إذ كان مجرد قطر من الأقطار . ولقد بويع السفاح فى سنة ١٣٢ هـ — ٧٤٩ م بالأنبار ، ثم انتقل إلى الهاشمية ، وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) فبدا له أن يبنى عاصمة للدولة غير الكوفة ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل إلى موضع بغداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصناع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة إيوان كسرى وينقض القصر الأبيض لبدخل الأنقاض فى بناء بغداد ، ثم كف لكثرة التكاليف : وتخير لها الأبواب من كل البلدان وبنى قصره (الخلد) فى وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشر مليون دينار ، ثم حشر إليها العلماء والشعراء وأصحاب الآراء وأتاها الناس

من كل فج حتى غدت بحق عاصمة الدنيا . وبلغ سكانها ، نحو المليونين فى عهد حفيده الرشيد (١٧٠ — ١٩٣) — (٧٨٦ — ٨٠٨) .

هذه المدينة الكاملة التى أنشأها، وهى بغداد، كان يعوزها ما كمل مجد إسبارطة : اسم كاسم « ليكرج » ، وما جمل مجد أثينا ، مشرع مثل « صولون » .

كان يعوز رجال بغداد الرجل الذى يضع تخوم الحضارة التشريعية عند أساطين مسجد الكوفة : فأشخصه أبو جعفر إلى بغداد فشخص إليها .

هنالك دعاه إلى ولاة القضاء فى بغداد ، وقيل فى الرصافة التى بناها لولده المهدى . وقيل دعاه ليوليه قضاء القضاة فيخرج القضاة من تحت يده إلى جميع كور الإسلام ، اى إلى الوظيفة التى أنشئت لأبى يوسف فى عهد الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبى صلى الله عليه وسلم : « القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار . قاض عمل بالحق فى قضائه فهو فى الجنة ، وقاض علم الحق فجار متعمداً فذلك فى النار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهذا فى النار» ، كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة والسلام : « يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شده الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى ثمرة قط» ويعلم حديثه الآخر : « ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للأمناء . ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا » .

وكان يعلم ما يتناقله الرواة عن عثمان بن عفان إذ نادى عبد الله بن عمر : « اذهب فاقض بين الناس » قال : أو تعافينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما تكره من ذلك ، وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : « إن أبى كان يقضى فإن أشكل عليه شيء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سأل جبريل ، وإنى لا أجد من أسأله . . »

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب بن ضنة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب ، وكان ابن ضنة حكمًا فى الجاهلية ، فلما عرف ما دعى

له قال : « والله لا ينجيني الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعد أن نجانى الله منها » .

ورفض حياة بن شريح القضاء بمصر فجيء بالسيف والنطع ، فلما برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح دارى وقد اشتقت إلى لقاء ربى . . . ولما رأى الأمير إقباله على ربه حرمه من لقياه وأعفاه . ودعا أبا خزيمة فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمير عليه بأن يتولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبى الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضى البصرة إياس قال إياس : مرحبًا وأهلا بأبى مطرف وأجلسه معه ثم قال له : ما جاء بك ؟ قال : لأشهد لفلان قال : ومالك والشهادة ، إنما يشهد الموالى والتجار والسوقة ! قال : صدقت ، وانصرف من مجلسه راضيًا فقالوا له : إنه خدعك . إنما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها ! !

قال : « لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب » .

وهكذا كان القاضى فى عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجة إلى ذكاء إياس — مضرب المثل فى الذكاء — ليحتفظ باستقلاله !

كان الشيخ يعلم ذلك . لكنه لا يتردد أمام تبعاته ، وإن ما فيه من زكانة وعلو همة ليمنعه من التردد وإن به لفطانة وسموا عن الهوى تحميان عقله أن يجور .

وما تبعات القضاء شيئًا مذكوراً إذا قيست إلى تبعات الفقهاء . .

لقد كان شريح يقول : « أنا أقضى ولا أفتى » فكان قاضياً ، لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتيًا .

ولكل مقام رجال ، فالقاضى يقضى فى قضية بذاتها ، أما الفقه فيشرع القواعد للقضاء وللمتقاضين أجمعين — ولهذا يربو خطأ الفقيه على خطأ القاضى مرات .

قال سحنون : « إنا لله . ما أشقى المفتى والحاكم » وقال : « هأنذا يتعلم منى ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق! أما كنت عن هذا غنياً ؟ »

ذلك بأن فتوى الفقيه — على حد تعبير ابن القيم — شريعة عامة تتعلق بالمستفتى

وغيره أما الحاكم (القاضى) فحكمه فردى لا يتعدى إلى غير المحكوم له .

إنما يقوم المفتى فى الأمة مقام النبى ، وكما قال عليه الصلاة والسلام : « إن العلماء ورثة الأنبياء . والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم » .

فليؤد العلماء إذن أماناتهم، وليوزعوا فى الناس ماورثوا من الأنبياء : وإنها لأمانة تنقض الظهور وتؤود أقوى الأقوياء على القضاء :

وإذا صح قول الشافعى : « من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق » فإن أبا حنيفة فقير مع كثرة ماله وغنى بالله عن العالمين .

وإنما هى الوظيفة فى خدمة السلطان يقف أمامها متسائلا .

ماذا عن الغد ؟

إنما هى عظات الماضى ينشرها بين يديه . والماضى مرآة المستقبل .

فى مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) قذف جندى بمصر رجلا من الأهالى فسجنه القاضى وأخرج الوالى الجندى السجين من سجنه فلم يك من القاضى إلا أن ترك وظيفته . . . ومن قبل ذلك فى مصر أيضاً (سنة ٨٩) أقام القاضى ابن شرحبيل الحسنى الحد على كاتب الوالى لشربه الخمر فعطل الوالى قضاءه فاستقال ؟

وكانت تسيل بالأنبياء أعناق المطى فى الصحراء ، مثلما تسيل الآن بالأنباء موجات الهواء واهتزازات الكهرباء ، كما كان يتناقلها أعضاء المؤتمر العام ، الذى ينعقد كل عام ، إذ يلتقى الحجيج فى جوار البيت الحرام :

استعرض الإمام الأعظم حوادث بضعة عشر ربيعاً خلت من عمر الدولة العباسية لا يأذنون فيها بمخالفة من أمير أو وزير ويأبون إلا أن تكون كلمتهم هى العليا . . . وهو أدرى الناس بما يجب للقضاء من استعلاء ، وما يلقاه رجله من ابتلاء . وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم إمام مرو عندما أعلمه أنه ابتلى بالقضاء « ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار من الناس. وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجاً . . . » .

وعقب على ما فات بتلك الآيات التى يبعث بها القرن الثانى إلى القضاة فى كل

العصور « فإذا جلس الخصمان فسو بين الضعيف والقوى والشريف والوضيع فى المجلس والإقبال والكلام . . ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدون إلا أن يأخذا فى فضل فتمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك . ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات ورددهم مجالس لعلهم يصلحون » .

استعرض أبوحنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله : « من جعل قاضياً فهو كالغريق ، إلى متى يسبح وإن كان سابحاً » .

وراجع نفسه كرة أخرى إذ يقول لتلاميذه فى داره : « أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى قد أسرجت لكم الفقه وألجمته ... فسألتكم بالله، بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم ، لما صنتموه عن ذل الاستئجار » .

وإن منهم من سيرفض القضاء غداً لأبى جعفر كزفر ، وإن منهم من سيرفضه بعد غد للرشيد كوكيع .

فلما دعا الرشيد تلميذى أبى حنيفة وكيعاً وحفص بن غياث ليليا القضاء أبى وكيع وقبل حفص . فخاصم وكيع حفصاً حتى مات .

استعرض الشيخ ذلك وأمثاله مجهراً مكبراً وفى سرعة « الأفلام ». وراح يستنبط على طريقته ويقيس ويستحسن ، واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبوجعفر إلى القضاة يلومهم إذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره ، واستوقفه أن يكتب عنهم ولاة البريد كما يكتبون عن العمال ، واسترجع قوله عليه الصلاة والسلام : « إن قليل العمل مع العلم كثير . كما أن كثيره مع الجهل قليل » . وقوله : « تعلموا ما شئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا .. » .

فليبتغ الأجر من الله بالعمل فى سبيل الله لا فى سبيل الخليفة . وإذا كان أبو جعفر يجاهر بإعجابه بالحجاج قائلا « ليت لى مثله » ! ، وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوثت به من قتل العلماء والتمثيل بهم حتى ليحرف عن القبلة سعيد بن جبير كى يصلى وتضرب عنقه .

إذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الخطر ، فإن أبا حنيفة يتحدى بنفسه

الخطر ، فحزم أمره واستخار ربه فخار له . ورفض ماطلبه إليه أمير المؤمنين .

وأصر إمام المسلمين وأصر أمير المؤمنين .

وحلف أبو جعفر ليفعلن . فحلف أبو حنيفة ألا يفعل . وقال : إنى لا أصلح للقضاء .

قال الربيع بن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ .

قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه منى .

فأمر به أبو جعفر إلى الحبس فى الوقت ثم دعا به . قال : أترغب عما نحن فيه ؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء .

قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول : قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً فلا أصلح ، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح . . .

وطفق أمير المؤمنين ينازله فى الأمر وهو يقول : اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك . . . وكيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب !

قيل : وداروا به فى الأسواق أياماً كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه إلى السجن . وقيل : إن الوزراء نصحوا أبا جعفر بإخراجه من السجن وجعله فى منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل ، فكانت تلك حالته إلى أن مات بعد قليل من الزمان ، وقيل بعد أيام معدودات .

وقالوا : إنه ضرب مائة سوط أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطاً . حتى سال الدم على عقبيه . فقال عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفة للخليفة : سللت على نفسك مائة ألف سيف . هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم . مكان كل سوط ألف درهم . فلما وضعت بين يديه رفضها

فقيل له : لو تصدقت بها . قال أيوجد عندهم الحلال . . . ؟

هكذا حبس الرجل الذى ظلت الحرية نصف قرن اسماً هو مسماه ، والذى عاش سبعين عاماً يصنع الحرية بيده صنعاً ويخلقها فى تلاميذه وفى تعاليمه . حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحبس نوره أحد ولن يحبسه قيد أو صفد .

إن مقاييس هذا العالم وقيوده للناس وللولاة ولكنها ليست للعباقرة :

* * *

تلك كانت القضية الأخيرة التى سمع فيها قول أبى حنيفة نقل التاريخ إلينا منها جملة الواقعة ولم ينقل التفاصيل . وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا .

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلا كذاباً إن صح قول الخليفة ، فإذا لم يصح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى :

كيف يتولى القضاء رجل يقذفه أمير المؤمنين .

وكيف تسخر الدولة العلماء : وكيف يخدم الأئمة الخلفاء .

كانت قد أثقلته مفاخر السنين الطويلة التى حمل فيها كرامة العلماء فى عصره وكرامة الرأى الإنسانى فى الأعصر كافة ، وكان أخوف ما يخافه على القضاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية . وما أفتك الطعنة إذا أصابت الرأس ، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء . . ؟

ولئن كان فى كنف السلطان رغبة تسيل اللعاب ، إنها ليسيطر عليها القلق والعذاب والاسترهاب .

قالوا : دخل شريك يوماً على المهدى فقال له المهدى : لابد أن تجيبنى إلى خصلة من ثلاث : أن تلى القضاء أو تحدث ولدى وتعلمهم أو تأكل عندى أكلة . ففكر ساعة ثم قال : الأكلة أخفها على نفسى . قال الفضل بن الربيع : « فحدثهم والله . وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .

لله در أبى حنيفة فيما قال لأبى يوسف عن السلطان إذ تفرس فيه أنه سيلى القضاء . . . « فكن منه كما أنت من النار ، تنتفع منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحترق وتتأذى منها ، فإن السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه . . . » .

وما رمى أبى جعفر لأبى حنيفة بالكذب إلا الخطوة الأولى : وقد خطاها ، فماذا كان يخفى له الغد من نزوات ، وأى نذر كانت تلك النذر . . . !

لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر . وإن التاريخ ليعرف أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة ، ويشهد أن الذى صدق هو الإمام وأن الذى كذب هو الخليفة . . !

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عاليًا ،ورفع صوته جهوريًا مدويًا — فلن يلقى أعلام الحرية تحت أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر الناس بأن يقول للمنصور ، ما قاله الزهرى من قبل لهشام بن عبد الملك : والله لو نادانى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يجر فى بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبى جعفر من النجاح ، ما قدر مع الرشيد لأبى يوسف : ولئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين الدين والدنيا وتعظيم السلطان ، لقد كلفه ذلك كثيراً من عبقرياته !

وكم كان من الفروق بين العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد ربع قرن :

لكن لأبى جعفر من الحق على التاريخ أن يزن رأيه التاريخ . فلقد أهمته وظيفة القضاء ،على ما أسلفنا من المقال . وما كان أعظم حاجة البلدة التى تحمل اسمه (بغداد — مدينة المنصور) إلى أبى حنيفة ، فى حين لم يكن بأبى حنيفة حاجة إلى تلك البلدة أو إلى الرجل الذى تحمل اسمه ، وفى عصر قال فيه ابن المقفع : « الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك » وفى عهد كان يستباح فيه من أجل الدولة مالا يباح :

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البسالة الزائل بمجد العدالة الذى لا يزول : وفى سيرته من التدلى والسمو مالا مشابه له إلا فى سير أفذاذ الساسة والمؤسسين : كأنما تأبى السماء على الأرض أن تستوى أشياؤها وتنبسط ، أو تأبى الطبيعة على النفس أن تستمر فى تحليقها السماوى ، فتربطها بطبائع الغاب . والظفر والناب .

فى هذا الرجل عدالة عمرية وفية خيانات دونها الكثير من الخيانات . ! اختلف

مع زوجته (أروى) أم المهدى ، فجعل لها أن تختار قاضياً فى خصومتها واختارت قاضى مصر غوث بن سليمان . فحمل القاضى إلى العراق ووكلت خادماً لها ليخاصم الخليفة فى مجلس القضاء . فقال غوث لأبى جعفر : «إن رأى أمير المؤمنين أن يساوى الخصم فى مجلسه» ؟ فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها فى كتاب الصداق ، وقضى القاضى ضده .

وكانت آية إعجابه بحكم غوث ابن سليمان أن أمر باحتباسه ليتولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعتذر غوث بغربته فرده إلى ضفاف النيل .

وكتب إلى سوار بن عبد الله قاضى البصرة أن ينظر فى أرض اختصم عليها أحد قواده مع رجل من تجار البصرة . وكانت الأرض فى يد التاجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها إلى القائد . فأبى القاضى ، فكتب إليه : « والله الذى لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد » ، فكتب إليه سوار : « والله الذى لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق » » واستقبل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بصياح الفرح فقال : « ملأتها عدلا . وصارت قضاتى تردنى إلى الحق » .

واستقضى الليث بن سعد إمام مصر بل قيل إنه عرض عليه ولايتها فأبى :

واستقضى يحيى بن سعيد الأنصارى إذ استقدمه من المدينة إلى الهاشمية .

واستقضى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتخذ منها مخبأ ! . . .

فهدم الوالى عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ فى صحن الدار فناجاه : « ألا تخرج إلى الناس فتقضى بكتاب الله وسنة رسوله ! » فرفع رأسه وقال : « إلى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين ؟ »

وسمع الناس ابن وهب يقول : يا رب يغدو عليك إخوانى غداً علماء حكماء فقهاء ، وأقدم عليك قاضياً ، لا يا رب ولو قرضت بالمقاريض . . . ! »

وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله (المعتزلة) ليحملوا معه تبعات الحكم فرفضوا .

كان أبو جعفر بناء مثالياً من بناة الدول وافداً من الميدان ــ والسنة فى

الميدان سنتان — فيه عزمات الفتوة والتفاتات المحنك . فأخذت يسراه تبطش بخصوم الدولة ، وانطلقت يمناه فى بسط وإيناس ، تحمل ميزان المعدلة فى الناس . . .

كان سخاؤه من أجل الدولة مضرب المثل ومن أجلها أيضاً كان شحه مضرب الأمثال ، حتى ليسمى بالدوانيقى أو (أبى الدوانيق) : والدانق $\frac{1}{6}$ درهم .

طلب إليه سوار (القاضى) أن يسوى أجر كاتبين لسوار — مرتب أحدهما أربعون درهماً ومرتب الآخر عشرون — فكتب أبو جعفر إليه أن ينقص ذا الأربعين عشرة ، وأن يزيد ذا العشرين عشرة ! وإنما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين !!

ولما علم أن ابنه المهدى وهب عشرين ألف درهم لشاعر ، استرجع من الشاعر ستة عشر ألفاً !!

وقال له : إن المهدى غر خدعته ولا يعرف قيمة المال !

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بنى العباس مليون درهم ليجعل له داراً ومكاناً . . .

وبينما يصيح بأنه ملأ الأرض عدالة ، ويجمع حوله التواقين إلى العلم وعشاق الحكمة ، إذا بنفسه تسول له أن ينقض العهد الذى عاهد عليه يزيد بن هبيرة بعد مفاوضات ظل الشهود يختلفون فيها أربعين يوماً ، فلما انصرف يزيد من مجلسه قال أبو جعفر : عجباً ممن يأمرنى بقتل مثل هذا . . . !

لكن القائل أبو جعفر . فلا عجب إذا كان القاتل أبا جعفر . . لقد قتله وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (فى العهود وفاء لا غدر) !

ودعا إلى قصره أبا مسلم الخراسانى الذى أخرجه وأخاه من مخبئهما فى الكوفة من بضع سنين ليمنحه ويمنح أخاه من قبله دولة تبقى إلى سنة ٦٥٦ھ فى بغداد ، وخلافة تبقى إلى سنة ٩٢٣ بمصر ، دعاه إلى قصره مبيتاً له بليل ، حتى إذا كان بين يديه وثب به عبيده فقتلوه .

ولما هزم عمه عبد الله بن على قائد الجيوش العباسية المظفرة احتمى عبد الله

بأخيه سليمان بن على بالبصرة فأعطاه المنصور أمانًا حتى سلم الأخ أخاه . لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره .

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع مخازى أماناته فكتب إليه : « أما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو ؟ أأمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ والسلام . . . »

قيل له : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . قال : لأن بنى مروان لم تبل رممهم بعد ، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا فى نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة .

فهى السياسة إذن تدفعه إلى البطش وتعميه عن المغفرة ، والغدر عنده مصلحة عليا ، والبطش عنده حكمة بالغة .

لكنه لم يك يختان ويغدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بعهده .

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى ، ولما هم بالزواج من سواها حجته بعهده ، فكان يكتب للفقيه تلو الفقيه ، بالحجاز والعراق يطلب فى كتاب الشرط رخصة فلا يجد . حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ؟! فهو فيما بينه وبين الله صاحب عهد ! أما فى السياسة فعهده للدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان ، فإذا أمن الأذى عليها تراءى لك البشر الذى يستقبل به القضاء ضده ، والنصح العنيف له . . .

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة بالترحاب وينشد فيه :

« كلكم يمشى رويد .

كلكم طالب صيد .

غير عمرو بن عبيد » .

وكان عمرو شيخاً جريئاً يطلق لسانه فى الملوك وفى الصحابة ! قال لأبى جعفر يوماً : « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده . . . » فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للخليفة :

« إن هذا وأشار إلى الربيع — صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً وما عمل وارء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر : فما أصنع ؟قلت لك خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفنى . قال عمرو : لا . أدعنا بعد لك تسخ أنفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق . . .

ودخل عليه سفيان الثورى فأغلظ له القول . فسأله أبو جعفر فأجاب : : ثم قال : فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغير إذنهم . وقد قال عمر فى حجة حجها وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه : «ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال» وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه فى المجلس عن إبراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال : «رب متخوض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ، له النار غدا . » فقال له أبو عبيد الكاتب : أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟ فقال له سفيان : « سكت فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون » . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد : ألا تأمرنى بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه . قال أبو جعفر : « اسكت يا أنوك (أحمق) فو الله ما بقى على الأرض أحد اليوم يستحى منه غير هذا ومالك بن أنس » .

كانت حالة أحكام عرفية فى دولة لم تكد تستقر بعد ، يحشد لها القوى من كل حدب وصوب ! ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع ، فهى عنده الثورة ، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان . بل إنه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الحنيفة : فهى عنده ثورات .

لقد كان يخطب فى نفس العام الذى دعى فيه أبو حنيفة للقضاء فيقول : إنما أنا سلطان الله فى الأرض ! لقد كان السلطان الذى فى يده أضعاف ما كان بيد الملك الذى قال بعد قرون ـ « أنا الدولة » ونعنى به لويس الرابع عشر . وكانت خطبه ملأى بدعوى الحق الإلهى فى الخلافة . كان يطربه ويطرب بنى العباس أن يقال للرجل منهم : ابن عمك رسول الله !! حريصين على أن يكون

ملكهم قائماً على رضا الشعب لكنهم لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد، وأشدهم فى هذا أبو جعفر حتى حنى له بنو هاشم أنفسهم هامهم العوالى . .

قال مالك : « دخلت على أبى جعفر ورأيت غير واحد من بنى هاشم يقبل يده المرتين والثلاث ! ورزقنى الله العافية من ذلك فلم أقبل له يداً ! »

ومن أجل ذلك تراه إذ قيل إنه منح أبا حنيفة عشرة آلاف فرفضها، يرجو ألا يذيع فى الناس أنباء العطاء والإباء ، فنى الرفض ثورة أو استعلاء ، وهو لا يقبل الثورة ولا يطيق الاستعلاء . فكيف يعرض عليه القضاء فيقف فى وجهه مرة إثر مرة يقول : لا . . .

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقاً على أبى حنيفة أن يأبى وأن يصر على الإباء .

فالدولة التى لا تأذن بأن « يخضع السلاح للوشاح » كما يقول المثل اللاتينى ، ويضرب فيها القضاة ، هى أحرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . و« إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » . كما قال عليه الصلاة والسلام .

رفض أبو حنيفة القضاء بين يدى أبى جعفر وبين يدى ابن هبيرة وضرب بالسياط ، وكانت أمه إلى جواره تقول : يانعمان إن علماً ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فأجابها : « يا أمه لو أردت الدنيا لوصلت إليها إليها ولكنى أردت أن يعلم الله أنى صنت العلم ولم أعرض نفسى فيه للهلكة » .

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث إلى ولده حماد يقول : قد علمت أن قوتى فى الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) . وقد حبسته عنى فعجله .

ومكث فى السجن أياماً معدودات ثم صعدت روحه إلى بارئها .

هكذا تعدى أبو جعفر الإلحاح إلى الإكراه ، وتعدى الإكراه النفسانى باليمين ، إلى الإكراه الجثمانى بالسجن ، وتعدى ذلك كله إلى التعذيب والضرب . فأى جناية تلك يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ . . . ومهما قيل عن

نبالة الغاية فإنها لا ترحض عنه الوصمة والمذمة . فإذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسى أو الجثمانى قد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين فيا هول ما يلقى به ربه أبو جعفر . . . !

* * *

كان التجنيد للقضاء نهجاً نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده . وقديماً كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : « إن خروجه قد أخل بالمدينة وأهلها فى الفقه وماكان يفتيهم به » ولقد كلم أبا بكر فى أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى ذلك عليه . .

لكن عمر لم يفكر فى سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أبا حنيفة ، وإنما تداول الفاروق مع الصديق فى إبقائه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة فى الأمصار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينة « محتاجون إليه فيما يجدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند غيره » . والفرق بين الخليفتين كالفرق بين التوفيق والاندفاع ، بين رجل الله ورجل الملك ، وبين خليفة الصديق وخليفة السفاح .

عرض المأمون القضاء على تلميذ أبى يوسف ، معلى بن منصور غير مرة فأبى : وعرض قضاء بغداد على تلميذ محمد ، موسى بن سليمان الجوزجانى ، فامتنع فأجله سبعاً وهدده إن لم يقبل ليعذبنه وليحبسنه فقال له : « يا أمير المؤمنين : قد صح عندى أنك إذ عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مزاحم حيث كنت بمرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحداً على العمل بعد ذلك فرأيتك لا تكرهنى » . فجعل المأمون يقول : أخوين صالحين بمرو . فتفكر ساعة ثم قال للجوزجانى . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقضاء فامتنع ، فرجاه فى أن يولى أخاه بدلا منه كما يستعين هو بأخيه المعتصم ، فاستعفاه ابن معبد .

ولقد جرت ولاية القضاء فى الوسط العلمى على أنها ابتلاء يفزع منه العلماء ، فزع الأصحاء ، من الوباء ! كما جرت على الألسن العبارات التقليدية : « ابتلى بالقضاء . وامتحن بالقضاء » . حتى ليسترجع الناس ويترحمون على من اختاره الوالى لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولى عبد الرحمن بن حجيرة قضاء مصر وبلغ الخبر أباه فى فلسطين فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! هلك الرجل !

وهذان قاضيان ووال يتداولون فى شأن القضاء على أنه (شفير جهنم) !

كتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه ليجمع بين إياس بن معاوية والقاسم ابن ربيعة فيولى القضاء أنفذهما . فلما اجتمعا قال إياس للوالى : أيها الرجل سل عنى وعن القاسم فقيهى البصرة الحسن وابن سيرين — وكان لا يجلس إليهما ، وكان القاسم يفعل ذلك — فعلم القاسم أنهما إن سئلا أشارا إليه فقال : لا تسأل عنى ولا عنه . فو الله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أفقه منى وأعلم بالقضاء . فإن كنت كاذباً فما ينبغى أن توليني . وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى . قال إياس للوالى : إنك جئت برجلى فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف. فقال الوالى : « أما إذ فهمتها فأنت لها . . » واستقضاه . .

وهذان مذهبان يتلاومان : ولى القضاء ابن سريج فعتب عليه ابن خيزان بقوله : « هذا الأمر لم يكن فى أصحابنا . . وإنما كان بلية فى أصحاب أبى حنيفة » .

بل إنه ليس بلية فحسب . ولاشفير جهنم فحسب. ولكنه : « ذبح بغير سكين» .

ولى سحنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنته قال لها : « اليوم ذبح أبوك بغير سكين » فعلم الناس قبوله القضاء .

ولئن عجبت لاعتبار ولاية القضاء ذبحاً بغير سكين ، إن العجب ليوفى على الغاية من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير !

وهذا ابن مسكين ، من تلاميذ سحنون ، يتولى القضاء إذ تكاد السيوف تسلمه للحتوف .

جلس إبراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين فسأله :

ما تقول فى رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث

هذه الأمة ، فامتنع ؟ قال : يلزمه أن يلي . قال الأمير : تمنع : قال : تجبره على ذلك بجلد . قال الأمير الداهية : قم فأنت هو ! قال : ما أنا بالذى وصفت وتمنع ! ! فأخذ الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره ، فتقدم بعد أمر عظيم واجتماع الناس عليه على اختلاف مذاهبهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على المغيرة بن عبد الرحمن فقيه المدينة بعد مالك — وكانت جائزته أربعة آلاف دينار — قال : « والله يا أمير المؤمنين لأن يختنقني السلطان أحب إلى من القضاء » :. فقال الخليفة السمح : ما بعد هذا شيء وأجازه بألفي دينار .

وكذلك الذى يؤثر أن يختنقه السلطان ، هذا الذى قيل إنه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله إليه .

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلى القضاء فامتنع . فأراد أبوه أن يكرهه عليه فسأله أن يمهله ثلاثة أيام يستخير الله تعالى . فمات فى الأيام الثلاثة ! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه .

ودعى ابن خيزان للقضاء فامتنع فختم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج إلى الماء فلم يقدر عليه إلا بمناولة الجيران من الكوة ! فقال الوزير الذى حبسه : « ما أردنا بالشيخ أبى على إلا خيراً . أردنا أن يعلم الناس أن فى مملكتنا رجلا يعرض عليه القضاء شرقاً وغرباً وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل » .

وعرضت الجوائز على الإمام الطبرى فرفض ، وعرض عليه القضاء وولاية المظالم فرفض ، وأشار عليه صحبه قائلين : لك فى هذا ثواب وتحيي سنة قد درست . فنهرهم قائلا : « كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك نهيتمونى عنه » :

ولما أبطأت عليه النفقة من مدينة آمل حيث كان أبوه ينفذ إليه الشيء بعد الشيء ، آثر أن يفتق كمى قميصه فيبيعهما .

وأكره القائم بأمر الله الفيروز أبادى على أن يتملد له النظر فى الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً فامتنع ، فوكل به ، فكتب إليه « ألم يكفك أن هلكت

حتى تهلكني معك » ؟ فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء إنما أردنا أن يقال إنه كان فى عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع: وقد أعفيناه :

صنع العلماء ذلك — وأمثاله كثيرة فى التاريخ الإسلامى — خشية أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطغى ، بل بلغ التحرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل إذا خرج لقدوم الأمير استمساكاً بحرمة القضاء كى لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء .

* * *

هؤلاء العلماء الأفذاذ قد نشأتهم آثار الفضل التى خلفها لهم سلف صالح فى قمة أسمائه أبو حنيفة النعمان ، يحملون آثاهم فى وجه التاريخ مفاخرين ، كما حملوا رءوسهم على أكفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حنيفة فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمستبد الذى لا يغفر أن تعصى رغبته ، ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمة ! : : :

فلم يكن عدلا لهذا الجبروت إلا ذلك الاستعلاء : ولا كفئاً لهذا الطاغية العظيم إلا ذلك الإمام الأعظم :

وبهذا كان الدرس رائعاً ونافعاً للعلماء ولأئمة العلماء كلما ذكره ابن حنبل بكى وترحم على أبى حنيفة بعد ما ذاق ابن حنبل من إرهاق فى محنة خلق القرآن .

هنالك وضع نفسه رابع الأئمة حيث وضع نفسه أول الأئمة :

لم يقبل ابن حنبل أن يقول إن القرآن مخلوق . : ودعا نائب المأمون إليه العلماء ، كما طلب المأمون ، يسألهم فوروا ولم يجيبوا ، أما ابن حنبل فقال : هو كلام الله لا أزيد على هذا . . فوجه به إلى المأمون بطرسوس ثم إلى الرقة ، وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى خليفته المعتصم بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، فرد ابن حنبل إلى بغداد مصفداً: ومكث فى حبسه ثمانية وعشرين

شهراً وفى رجليه أربعة أصفاد .. وأخيراً حمل إلى المعتصم وإلى جواره قاضيه ووزيره والمحرض الأكبر فى فتنة خلق القرآن أحمد بن أبى دؤاد وطائفة من العلماء، ليناظروه أياماً ثلاثة ، فلما كان اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه ، كل منهم سوطين والمعتصم يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعتصم إليه يقول : إنى والله عليك لشفيق . . ونخس ابن حنبل ناخس بالسيف وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم . .

وقال قائل يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى أقتله ؟ وجعل آخرون يقولون : يا أمير المؤمنين أنت صائم . وأنت فى الشمس قائم !

كانوا يخشون صيامه وقيامه ، ويخافون الشمس ، ولا يخافون جهنم التى يوعدون

ثم قال المعتصم : ويحك يا أحمد ما تقول ! وعاد يقول للجلاد : أوجع قطع الله يدك ! فجعلوا يوجعون . وعاد يقول : أجبنى . ويقول للجلادين : أوجعوا .. حتى فقد ابن حنبل وعيه ، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فكت ، وقال له أحد الحاضرين : إنا كببناك على وجهك . وطرحناك على ظهرك ودسناك . . وجىء به والدم ينزف منه ، وكان صائماً وأبى أن يشرب ، فقام وصلى حينما حضرت الصلاة فى الظهر والدم يسيل منه : قالوا : كيف تصلى كذلك . قال : « صلى عمر وجرحه يثغب دماً » .

تعلم ابن حنبل على أبى حنيفة ، وتعلم آخرون على ابن حنبل ، كزميله البويطى إذ حمل من مصر إلى بغداد ليقول مثل ما دعى لقوله ابن حنبل فأبى ومات فى أصفاده ، وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الإسلام فى كل مقام .

سمع عز الدين موسك من أمراء دولة بنى أيوب بمصر عن الإمام القاسم الشاطبى إمام القراءات فدعاه ليمثل أمامه . فبرم الشاطبى بالدعوة وبعث إليه برقعة فيها :

قــل للأمــــير نصــيحة   لا تركــــنن إلى فقيـــه
إن الفقــــــــيه إذا أتى   أبوابــكم لا خــير فيــه

ترى هل يذكر الذاكرون اسم الشاطبي وهم يسلكون (شارع الموسكى) إلى أقدم جامعة فى العالم ! نعنى الجامع الأزهر . ! لكأنما : خطت يد التاريخ من ذلك الشارع تمثالا لكرامة العالم ، وإن أطلقت عليه اسم الأمير .

* * *

وفى عهد الأيوبيين أيضًا ولى السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ الإسلام أبا محمد العز بن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتبارهم مماليك وتضاف أثمانهم إلى بيت المال ! فهاجوا وأرادوا قتله ، لولا أن حمته منهم رعاية السماء وحمتهم منه عناية السلطان ، فاشتراهم السلطان بماله ودفع إليه الثمن ليصرفه فى وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضى الحنفى فيجئ إلى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه إلا إذا جاء إلى جنبه ، فلما طالبه بلعن الموفق (ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

وقيل لابن طولون إنما قصدك بهذا القول . فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى أجازه بها فأخذها كما هى بخواتمها وسجنه فى دار اكتريت له . فكان يجلس فى طاق ويحدث الناس بإذن التمسوه من ابن طولون .

فلما عرضت لابن طولون علته التى مات فيها وجه إليه يستحله ، فقال للرسول : قل أنا شيخ كبير وأنت عليل والملتقى قريب والله الحاجز بيننا .

ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس .

وكما اجتمع الناس حول بكار فى سجنه اجتمع آخرون ليملى عليهم السرخسى من حبسه : فى جب السجن فى أوزجند : إذ نصح الخاقان فأسخطه فحبسه .

وتعالى العلم بالعلماء عن أن ينحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج شيخ الحنفية ببغداد عبد الله بن الحسين الكرخى ، كتب أصحابه إلى سيف الدولة فى حلب ليعينه . وبكى الشيخ إذ علم : ودعا الله قائلا : اللهم لا تجعل رزقى إلا من حيث عودتنى .

واستجاب إليه ربه فمات قبل أن تصل إليه عشرة آلاف درهم .

وسأل السلطان على بن الحسن النيسابورى : لم لا تجئ عندى ؟ فقال : « أردت أن تكون خير الملوك إذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الخيالى وأخبره الصدر الأعظم بتعيينه للدرس قال له شمس الدين «إن أعطيتنى وزارتك وأعطانى السلطان سلطنته لا أترك هذا السفر» !

الخاتمة

فى التاريخ

« سيذهب كل منا فى طريقه ، أنا فى طريق
لأموت ، وأنتم فى طريقكم لتعيشوا ،
والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا »
سقراط



لم تكن حياة أبى حنيفة وإن طالت إلا معركة واحدة سلخ فيها الفكر الإنسانى سبعين عاماً بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها غاية ولا وسيلة إلا الحرية والتسامح ، فى كل أطوارها .

والعالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة ، والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل إلى عمارة الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى .

وبعد أن ذاعت نظريات أبى حنيفة فى الإيمان وفى الحرية وفى الاجتهاد بالرأى، استقل بإمامة ثلثى الأمة عن سائر المذاهب والأفراق ، ورقى سلم المجد إلى أسمى ذرواته ، لينزل فى التاريخ منزلة الإمام الأعظم لأهل الإسلام .

ولما ختم حياته فى سبيل الحرية كان كالذى كشف الغيب فوضع نفسه حيث وضعته الأجيال ، وكان كالمؤلف يضع على مؤلفه بعد الفراغ منه عنوانه .

فهل صحيح ما قيل من أن حبسه كان لسبب سياسى هو تشيعه لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المسمى بالنفس الزكية أو لأخيه إبراهيم ؟ أو أنه لم يحبس إلا من أجل القضاء .. ؟

إن من المسلم أن محمداً وأخاه إبراهيم قتلا فى سنة ١٤٥ حين خرج محمد بالمدينة على أبى جعفر وبعد أن خرج عليه إبراهيم فى البصرة .

وإذا كان من المسلم أن الأجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠ فإنه يكون عجيباً أن يتشيع أبو حنيفة للموتى بعد إذ ماتوا بخمس سنين . وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد البأس ، قوى المراس ، كأبى جعفر ، من العطف على ذكريات الموتى ، لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاماً !

لقد كان أبو حنيفة إذا سئل عن على ومعاوية وقتلى صفين أو خلافات الشيعة والأمويين يقول : « أخاف الله أن أقدم على شىء يسألنى الله عنه . وإذا أقامنى

يوم القيامة بين يديه لا يسألني عن شيء من أمورهم : يسألني عما كلفني : والاشتغال بذلك أولى » .

وكان المنصور من الناحية الأخرى واسع الصدر بعيد النظر فى آراء خصومه ، وأشياع خصومه : سمع أن عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة كاتب محمد بن عبد الله فسأله فيما سمع . فقال له عمرو : إنه يعرف رأيه فى السيف — وهو أنه لا يرى الاستعانة بالقوة لتأييد أغراضه — فطلب إليه المنصور أن يحلف فقال : « لئن كذبتك تقية لأحلفن لك تقية » فارتضى منه ذلك .. وقنع من زعيم المعتزلة بما كان حريا أن يقنع به من زعيم الفقهاء لو ثبت شيء ضده . أو قامت الشبهة فيه عنده .

ولئن قال نابوليون فى أعقاب (مسكوفا) « لا عدو بعد النصر » أو أمر مملوكه « رستم » بسقيا الجريح الروسى من الزاد الإمبراطورى ، فإن المنصور كان يصنع صنيعه فى بعض من استيقن تشيعهم لمحمد وإبراهيم .

كان المفضل الضبى (صاحب المفضليات) من أنصار إبراهيم إذ خرج على المنصور . فلما أظفره الله بإبراهيم ، وأمكنه من المفضل ، عفا المنصور عما سلف واستخلصه لنفسه وقربه نجياً ، فصار نجماً فى البلاط ، وألقى إليه ولده المهدى يؤدبه ويرعاه .

وكان المنصور فتى جلداً لا تروعه مدلهمات الخطوب . يخرج عند الثورة على دابة يحارب الجموع وحده . فكيف ينقم على المقهورين أو على الموتى بعد إذ ماتوا وتصرمت على وفاتهم السنون ، وبعد أن مكن لدولته فبنى مدينته . وملأ خزائنه بالمال ودواوينه بالرجال .

ولم يتم بنيان بغداد إلا فى سنة ١٤٩ وإن كان المنصور قد انتقل إليها سنة ١٤٦ . بل قيل إنه كلف أبا حنيفة بعد مافى سورها من آجر : وضربوا مثلا على ذكاء أبى حنيفة ابتكاره طريقة الحساب بعدّ مافى الذراع من لبنات ومقاس ما فى السور من أذرع .

وقيل إن شقاقاً شجر بين المنصور وإحدى حليلاته فطلبت العدل بينها وبين سائرهن . فسألها المنصور عمن ترضى للحكومة فى هذه الخصومة . قالت بأبى

حنيفة : فأحضر . وجلست تلك من وراء الستر . قال أبو حنيفة : فليتكلم أمير المؤمنين . قال أبو جعفر : إنها تخاصمني ، كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء ليجمع بينهن ؟ قال أبو حنيفة : أربع . قال أبو جعفر : وكم يحل من الإماء ؟ قال : ما شاء ليس له من عدد . قال أبو جعفر : اسمعي يا هذه . قالت : قد سمعت . فانطلق إمام أهل الرأي يقول : « يا أمير المؤمنين . أحل الله ذلك لأهل العدل . فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل فينبغي ألا يجاوز الواحدة . قال الله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فينبغي أن نتأدب بأدب الله فنتعظ بمواعظه .. » وسكت أمير المؤمنين وطال سكوته ، وخرج أبو حنيفة . فلما بلغ منزله جاءه غلام بهدية من السيدة التي أدب من أجلها أمير المؤمنين ذلك الأدب : خمسين ألفاً ، وجارية ، ودابة .

فقال للغلام : « أقرئها سلامي وقل لها إنما ناضلت عن ديني » وما مد يده إلى شيء حتى حمل من بين يديه .

دخل على أبي جعفر يوماً وإلى جوار أبي جعفر الربيع بن يونس . وفي رواية أخرى محمد بن إسحق صاحب المغازي . وكان الربيع ينفس على أبي حنيفة مكانته ، فابتدره بقوله : يا أمير المؤمنين ، هذا أبو حنيفة يخالف جدك في الاستثناء المنفصل « فلقد كان جده عبد الله بن عباس يقول : إذا حلف الحالف ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين إلى سنة في قول ، وأبدا في قول آخر ، جاز الاستثناء من اليمين ، في حين يرى أبو حنيفة أن الاستثناء لا يجوز إلا متصلا باليمين ، والاستثناء عنده لا يصح إذا صدر القول باتا في المجلس) .

فلم يحزن أبا حنيفة قوله ، بل واجه العاصفة بالأعصار ، وقذف في وجه الربيع بآية من آياته . قال : يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة ! قال أبو جعفر : وكيف ؟ قال أبو حنيفة : « يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم ! ! » وبهت الذي أثار الثائرة لأن أبا جعفر كان يلتمس البيعة من كل الأقطار .

وضحك أبو جعفر وقال : يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة .

بلى . ولو أبيح الاستثناء المنفصل لم تكد تقع يمين . إذ كان الناس يستثنون بدلا من الكفارات ويستثنون حتى لا تطلق نساؤهم .

في تلك المقابلة أو في نظائرها دخل أبو حنيفة على أبي جعفر : فوجد أبا العباس

الطوسى — وكان سيئ الرأى فيه — فقال لمن حوله فى صوت خفيض : « اليوم أقتل أبا حنيفة » . وأقبل عليه يقول : يا أبا حنيفة ، إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل . لا يدرى ما هو . أيسعه أن يضرب عنقه ؟فأجابه الشيخ بإحدى روائع القياس . قال : « أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل » ؟ قال الطوسى : بالحق . قال : « أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه » والتفت إلى من قرب منه وقال : « أراد أن يوثقنى فربطته » .

وأى رباط ! لقد وضع له الجواب من سؤاله . والسؤال عن وجه الحق لا يصدر إلا من رجل لا يعرف أن الخليفة يأمر بالحق أم بالباطل . وبهذا سلم المسئول وانكشف السائل .

هذه الأنباء وأمثالها تدلنا على أن أبا حنيفة كان يدخل على المنصور بالهاشمية أو بمدينة السلام ، إماماً رفيع المقام ، مسموع الكلام . قبل أن يدخلها فى طريقه إلى السجن . وتدل على أن غضب الخليفة كان غضب الفجاءة لأسباب جاءت كذلك فجاءة .

* * *

وفى الحق إن مدينة المنصور كانت كل شيء للمنصور . وكان أبو حنيفة فى أخريات أيامه يحمل على مفرقه عدة من التيجان . فكيف تخلو المدينة الخالدة من الرجل الذى كتب له الخلود .

كيف لا تزدهى به مثلما تزدهى به الكوفة . وكيف تمتنع هذه التيجان التى تكلل هامة الإمام الأعظم عن أن تنتظم فى جواهر التاج الأكبر ! لقد كان عليه أن يقبل القضاء فى بغداد وأن يحنى رأسه للخليفة وإلا فإن الرفض ذنب عند أبى جعفر لا يغفر .

كان أبو جعفر يحس إحساس (تيزيه) إذ بنى أثينا ، وإحساس رومولوس إذ شاد روما . والذى يشيد مدينة يعشقها فيهواها كهوى الغانيات بل أشد . لأنه يخلد فيها نفسه وأولاده ومفاخره وآراءه وحضارة جيله . وفى سبيل هذا التخليد هانت على البنائين كل التضحيات. فهم لا ينشئون مدائن فحسب وإنما ينشئون مدنيات ودنى كاملة ، أين منها الصروح الممردة والآثار .

ولقد كلف أبو جعفر بالبناء حتى ليعتبر أبا المدائن بحق . بنى بغداد للدنيا وأحاطها بالقطائع ، وبنى الرصافة لولده المهدى ، وبنى الكرخ ، وكلف المهدى ببناء الرافقة بل إن أبا جعفر هو الذى بنى الدولة العباسية نفسها .

وانتقلت نزعة البناء إلى الوزراء . قال يحيي بن خالد لولديه الفضل وجعفر : « لا شىء أبقى ذكراً من البناء فاتخذوا منه مايبقى لكم ذكراً » فاتخذ كل منهما لنفسه قصراً ، وقيل إن جعفر — فى عهد الرشيد — أنفق على قصره عشرين مليون درهم غير الأثاث .. !

ومنذ ألفى عام قبل المنصور تنازل « تيزيه » عن ملكه لينشئ « أثينا » . ومنذ ثلاثة عشر قرناً قبله كان « رومولوس » لا يقتل الأعداء ولا يسبى النساء وإنما يأمرهم بهدم قراهم ودساكرهم وأن يقدموا لتعمير « روما » . وكان « تيزيه » أول من تنازل عن الملك لخير الشعب كما قال سقراط . وصار « رومولوس » فيما بعد إلهاً يخر له الرومان سجداً إلى الأذقان !

وكان سلطان أبى جعفر أعظم من سلطان تيزيه ورومولوس معاً . فيجب أن يعمر بغداد وفق ما يهوى : والويل لمن يقف فى الطريق .

فحبس أبى حنيفة إنما كان فى سبيل أن يتولى لأبى جعفر قضاء بغداد وأن يصدع بما يؤمر : ولا يرد على الذهن أن يكون ذلك السبب اختراعاً . لأن بغداد كانت قد تم بناؤها . ولأن من السائغ أن يرى أبو جعفر أن الولاية على قضائها لم تك تصلح إلا له . وليس تشييد مدينة السلام بحادث عادى : إنما هو الحادث الأعظم الجوبر بدعوة الإمام الأعظم : والخليق لدى المستبد المطلق السلطان بأن ينزل به ما أنزل من العقاب فى نفس الزمان ونفس المكان .

ولو كان الغضب من أجل محمد وإبراهيم لأحدث فى أبى حنيفة آثاره أيام أحدث فيهما آثاره . فلم يكن الإمام الأعظم نكرة فينسى خمس سنوات أو عشر سنوات بعد أن نكل المنصور بالأخوين الشهيدين وبأبيهما وبأهليهما :

لقد بدأ المنصور البحث عن محمد وإبراهيم من سنة ١٤٠ ولما لم يعثر عليهما حج سنة ١٤٠ وطالب بهما أباهما فأنكر معرفته لمقرهما فحبسه وصادر أمواله ،

فكيف ينام عن أبي حنيفة كل ذلك الزمان ، وليس من طبيعة أبي جعفر أن ينام .

كان مالك في أوج مجده العلمي والديني في جوار النبي ، إذ قيل إنه أفتى بأن بيعة الناس للمنصور كانت مكرهة أي غير ملزمة للناس ، ممالأة منه لمحمد بن عبد الله عند خروجه ، أو قيل إنه سئل عن البغاة ، أيجوز قتالهم ؟ فقال : « إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز » ، فقيل فإن لم يكن مثله ؟ فأجاب : « دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » ، فلم يحل ذلك المجد بين عامل أبي جعفر على المدينة وبين جلد مالك .

ولئن راجع أبو جعفر واليه فيما صنع لقد كان ذلك خوفاً من الله لا خوفاً من الناس . ذلك بأن أبا جعفر كان قد مكن للدولة فلم يكن يخاف ولم يكن يخفى . والذى يخفى هو الذى يخاف ، كالذى يخاف هو الذى يخفى .

فلو أخذ المنصور على أبي حنيفة مأخذاً لناقشه الحساب من فوره جهرة ، مثلما أخذ محمداً وإبراهيم جهرة ، وحبس أباهما في وضح النهار .

ولم يك أبو جعفر ليأمن جانب الكوفة ، فيذر الإمام الأعظم في مسجدها خمس سنوات طويلات يسكب في دروسه السخط المدمر — لو صح ما يقولون — وأبو جعفر أعلم الناس بمبلغ ما أحدثته الدعاية على يديه ويدى أخويه أبي العباس وإبراهيم الإمام وأشياعهم في الكوفة نفسها وفي خراسان وفي سائر البقاع .

وإذا روى عن تلميذ من تلاميذه أنه اعترض على أستاذه لخوضه في ذكر محمد أو إبراهيم فإن ذلك لم يتأيد من مصادر متعددة وهو لا يثبت على المقارنة التاريخية للملابسات التي ألممنا بها في إيجاز .

وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنة . أما الشيعة فذات فقه خاص وأحاديث ومعتقدات خاصة ، تضمنتها مؤلفات ضخمة دون منها الكثير زيد بن على وجعفر الصادق وغيرهما . ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه روج لفقه الشيعة ، بل لم ينعكس على مرآته الصافية آثار فكر شيعي .

ولئن كان يعطف على الضحايا من أهل بيت النبي ، إن أفئدة الأمة جمعاء تهوى إليهم . لقد كان « صاحب الأغاني » حفيداً لمروان آخر خلفاء بني أمية : ومع ذلك كان شيعياً .. !

وليس معقولا أن يكون أبو حنيفة شيعينا بفعله أو قوله أو بهواه ، دون أن ينكشف الخبيء من أمره ، أو ينعكس أثره على عمله ، فى معاركه الخالدة مع الخوارج ومع المحدثين ومع الولاة ومع الخليفة وسواهم .

ولما خاصم ابن هبيرة كان خصامهما حريًّا بأن يكشف أستار غيبه ، بل إن بنى العباس كانوا مع الشيعة حتى بويع لأبى العباس فى سنة ١٣٢ ، فهم العليمون حقاً بأشياع الخفاء .

فكيف يكون من هؤلاء ، ولا يأخذ السفاح أو المنصور عليه شيئًا مما أخذاه على زعماء أهل البيت فى بضعة عشر ربيعًا كانت كلها النكال للشيعة .

وإذا صح ما روى من صلاة المنصور على قبره بعد وفاته ، فإن المنصور لا يصلى على من أراد اقتلاع دولته من الأعماق .

لقد رفض أبو حنيفة القضاء لبنى أمية كما رفضه لبنى العباس . ولو كان يدفعه الهوى والغضب لكان هواه مع الدولة المقبلة من الشرق من بلاد أجداده ، وبخاصة وقد ناله من أذى العهد المصرم ما كان قمينًا بأن يصل أسبابه بالنظام الجديد ، لو كان أمر امتناعه راجعًا إلى الهوى ، أو إلى الأذى ، أو إلى النظام .

* * *

إنما عافت نفس أبى حنيفة القضاء لأبى جعفر لأنه ليس القاضى المحسوب على الحكام والحاشية . وليس هذا القاضى إلا ألعبانا يعرض على النظارة فنونًا من الظلم على أنها العدل ، وما هى فى الحق إلا نتاج العبودية والمهانة والابتذال .

والقضاء المسخر كالفكر المشترى والقلم الأجير أتعس ما فى الأسواق من سلع وعروض .

والرأى هو العرض : يبيع عرضه من يبيع رأيه . ذاك لشهوات الحس واللمس وهذا لشهوات الفكر والنفس ، بل إن من يبيع رأيه يبيع جسده ، فما الصمت أو البيان ، أو اللسان أو البنان ، إلا أجزاء من جسم الإنسان .

فى بيوع الفكر يغطى المتبايعان عقود الاسترقاق بشتى مظاهر الاستقلال والاحترام ، ويغلو الفقيه العبد كل الغلواء فى دعوى الإباء وحرية الآراء ، وبقدر ما يتطلب

من الغطاء يحدث من الضوضاء . وكلما ذلت النفس استحكم مركب النقص . فكبرت الدعوى وكثرت الأستار .

ما أتعس هذا الفقيه لو قدر لك أن تكشف الغطاء الجسدى عن تفكيره فى هواه أو هوى مولاه .

هنالك لا تجد الأشياء ولكن ظلال الأشياء ، ولا تسمع الأصوات ولكن تسمع الأصداء ، وتجد حساباً لما ليس فى الحساب . المعلوم يتحكم فيه المجهول ، والعلل ينتجها المعلول ! وأسماء تعود المظلومون أن يسمعوها . كالمصلحة العامة والنظام وما هى إلا نهمة الدنيا وهماهم العيش وفساد الضمير .

هنالك تشهد الفقيه العبد فى شوهته ودمامته وانحلال شخصيته كالممثل الهزيل فى أعقاب الرواية هدنه الذبذبة الدائمة وقبحه الاصطناع . فأمسى مسخاً شائهاً ترى دمامته كل الأنظار وهو لا يكاد يراها .

هنالك الأرضى يحارب السماوى وتسمى بغير أسمائها الأشياء .

هنالك تسيطر الأفكار التجارية ونزعات السوقة ، ويتحالف أهل الرذيلة على أهل الفضيلة ، ويأخذك العجب وتتساءل : لماذا يتواصل أهل الرذيلة فى حين أن ذوى الفضل ، فى أبراجهم ، لا يتواصلون .

هناك النفوس الرديئة تحاول أن تطرد النفوس الجيدة . ويتعامل رجال الحكم ورجال العلم بقانون العرض والطلب ، والفضة والذهب ، والمصلحة فى شتى صورها وعروضها ، كالوظيفة والرضاء ، والحياة الوادعة الساجية . وما هى إلا رشى مستورة من رغبة ورهبة أو منظورة ذات لمعان ورنين .

رووا أن قاضياً من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه ، فوقعت قضية تفرد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى ، فأرجأ القاضى القضاء فيها حياء من جماعتهم . وردفته قضية أخرى كتب بها إلى يحيى فصرف يحيى رسوله وقال له : لا أشير عليه بشىء . فلما انصرف إليه رسوله وعرفه بقوله ركب من فوره إلى يحيى وقال له : لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع وسوف أقضى له غدا إن شاء الله . فقال له يحيى : « وتفعل ذلك صدقاً ؟ » قال : نعم قال له : « فالآن هيجت غيظى . فإنى ظننت إذ خالفنى أصحابى أنك توقفت مستخيرا لله ، متخيراً فى الأقوال . فأما إذ صرت تتبع الهوى وتقضى برضى مخلوق

ضعيف فلا خير فيما تجئ به ولا فىّ إن رضيته منك ، فاستعف من ذلك، وإلا رفعت فى عزلك » .

فرفع يستعفى فعزل .

وهكذا طب الفقيه العظيم بدوائه قاضياً ممن عناهم« فولتير » بقوله عن قضاة «كالا »: لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة ،بل قاضياً ممن توعدهم عمر بقوله : « ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء، يوم يلقونه إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا على رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه » .

ليس أبو حنيفة هذا القاضى ولا ذلك الفقيه : لقد قال له الأمير يوماً لم لم تغشنا ؟ .

فقال : لأنه ليس عندى ما أخافك عليه . وإن قربتى فتنتنى وإن أقصيتنى أخزيتنى .

والذى يقول هذا للأمير هو الذى يقول للناس : « من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا وكل شدة فيها » .

لقد عاش حياته فى ذروة الفضل بين الناس وبين أقطاب الشرائع فلم يبق أمامه إلا أن يموت ميتة تليق بهذه الحياة . كان قد عمر سبعين عاماً ليست طويلة فى أقيسة الزمان ولكنها عريضة الذكر عميقة الأثر ، رفيعة المثل ، والحياة لا تقاس بالطول بقدر ما تقاس بالعرض والعمق وارتفاع المقام والفعال النابه .

ولقد قضى حياته يفرق فى الناس أرباح تجارته النافقه آلافاً وعشرات آلاف ، آخذاً نفسه بالتجرد اليومى من أعراض الدنيا فى زهادة ونسك وتعليم دونها الزهد كله والتعليم كله . والذى يسلط على نفسه هذا التجريد اليومى من من نعيم الحياة إنما يسلط عليها سياط عذاب مستمر ، لا بالكف عن اللذات ولكن بالاقتطاع من صميم الذات ، وبالحرمان الفعلى لا النظرى . حرماناً مما فى يده

فعلا وهوله . لا مما فى يد الناس ، ولا فضل عن الناس ، لمن تنازل عما فى يد الناس ، فإنما هو يكسب لشخصه إذ يبرئ نفسه من أذى نفسه ، أما من صبر على الامتحان اليومى ، وقدر على التطهر الكلى ، فقد سما بالوجود الإنسانى عن مستواه البشرى ، وأضحى ينظر إلى الدنيا من عل ، ويدق من قرب أبواب السماء ، ومن أجل ذلك يشعر الناس بقوى تلك النفس التى سمت على أنفس الناس جميعاً .

وكما جمع العبادة والزهادة والزهادة ، قرن العلم بالعمل . فإذا رأى المنكر غيره بيده . يرى الشرطى يسخر رجلا ويذهب ليخلصه ويمتنع الشرطى ، فيبطش به ويدفع الناس الشرطى حتى يطلق الرجل .

ويرى أمير الكوفة خالد بن عبد الله القسرى يتشاغل على المنبر يوم الجمعة بقراءة كتب حتى يخشى على الصلاة فيصيح : الصلاة الصلاة . خرج الوقت ودخل آخر .

ذلك شأنه مع الشرطى ومع الأمير القسرى . وهو شأنه مع ابن هبيرة أمير العراق . وهو هو شأنه مع المنصور أمير المؤمنين . لاينحنى أمام السلطان فى أى مكان ، ولايسمح بالعيب فى ذات العلم ولا يسهم فى الظلم ، كالشيطان الأخرس ، بالسكوت .

كان قد فرغ من شئون مدرسته وفتح الباب على مصراعيه لشتى المدارس التى أظهرت فقه الإسلام ، فسلط على الفكر الإسلامى شعاعاً من النور هو حسبه . وخلف فى دنيا الفقه أسماء راسيات كأنها الأعلام ، وقضاة كالملوك ، وعلماء أثبت مجداً من الملوك . فلم يك باقياً إلا أن يضرب الضربة الكبرى فيهوى بالمادة ، وأعراضها وأصحابها إلى الأعماق ، ويحلق بالعلم وبالفكر فى طباق السموات ، وتطير إلى الأجيال اللاحقة فكرته الخالدة على ألف جناح . ويعلم الناس بالقدوة والفداء مثل ما علمهم باللسان والقلم .

وفى كلمة واحدة يعلمهم بمماته ما علمهم بحياته .

لكنه لا يموت ميتة « ليكرج » إذ أتم رسالته فى شرائع إسبرطة ومجدها فختم حياته منتحراً بالكف عن الطعام اعتقاداً بأن الزعيم الذى لم يبق له عمل فى أمته جدير بالاختفاء .

ولقد كانت الأمة أحوج ما تكون إلى إمامها الأعظم ، ولم تشأ السماء أن تعطل خاتمة حياته من إكليلها . إذا لم يدخل الناس فى حسبانهم هذا العدوان عليه فقد سبق أن سطر عليه فى اللوح المحفوظ ذلك المصير . والأذى هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر ، والمعارضة هى فى الغالب رجع الصدى للرأى . فأى أذى واعتراض يجتمعان على الرجل إذا اجتمعت عنده الحرية والرأى ، وأى امتداد لذلك التناوش من بعيد ومن قريب يحالفه عند مماته بعد خمسين عاماً فى معركة الحق . . فى مواجهة الناس ومجابهة الخليفة : وكلما لقى من أمره عسراً تدفق من قلبه الإشراق لا الاحتراق ، كأن الشدائد مولد عظيم للقوى فى كيانه ، أو كأنها السلاح الذى يشق الأرض لتفجر الماء أو ليزداد الثرى بتقليبه ثراء ! !

إنما يعيش هؤلاء البشر فى مستوى أعلى من البشر . يتلاقى عنده الإنسانى المحلق والربانى الذى يوحى به ، وفى هذه القمم الشواهق يستقبل الملهمون آيات السماء أول من يستقبل ، كأطراف السحاب فى السماء وذرى الجبال فى الأرض أسبق ما يتلقى شعاع الشمس وأول ما يتوهج فى الظلام المحيط .

إنهم لا يحسون ما نحسه عذاباً ، بل تتوتر أحاسيسهم إلى أقصى حدود التوتر إذا عالجوا الصعاب ، وتتبلد إلى حد العدم فى محيط العذاب ، فإذا رأوا الأذى وردوه ، واستروحوه ، فمنهم من يقضى نحبه ومنهم من ينتظر ، فلا تطيب نفسه إلا إذا أترعته كؤوس التضحيات ، وعندئذ يدرك أنه قد ارتوى من نخب الخلود :

إنها لنعمة من السماء على الأرض أن يعذب أهل الأرض قوماً كأنهم من أهل السماء . فهؤلاء الشهداء يعلمون الناس بالأسوة الحسنة أن الحياة ليست البلهنية ولا الرفاهة : ولكنها كفاح دائم للخير تواق للكمال .

* * *

سجل علماء الإسلام هذه الحقائق بحروف من نور : فقضى عليهم بارئهم أن يشقوا لينعم البشر — فكان خلقاً إسلامياً خالصاً : وقضى على الأئمة الأربعة أن يردوا المحنة تلو المحنة فى سبيل آرائهم ويسبقوا بإمامتهم الناس ليصححوا خطاياهم : سيق الشافعى من أقصى الجزيرة إلى أقصاها ، عاشر عشرة متهمين بالتشيع لقوا مصارعهم على عينه ونجا وحده . وجلد مالك من أجل أيمان البيعة أو من أجل جوابه عن السؤال عن البغاة : وذاق ابن حنبل بعض الموت فى خلق القرآن : أما أستاذهم أبو حنيفة فقد مات فى قضية القضايا : قضية الحرية ! أو قضية القضاء ! أو قضية تسخير العلماء فى خدمة الخلفاء ! فأظهر أن الزهد أو العلم ليسا غاية الحياة وإنما « العمل » هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة . وكان المثل الحق لما يهدى إليه الوحى الذى أشاروا إليه من « أن الله سبحانه أوحى إلى نبى من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلىّ فقد اكتسبت به العز ، ولكن ماذا عملت فيما لى عليك ؟ فقال : يا رب وأى شىء لك على ؟ قال : هل واليت فىّ ولياً أو عاديت فىّ عدواً » :

إنما تكون العبادة الحق بالجهاد للحق فى الخطوط الأولى للنار لا فى الرهبنة ولا فى الاعتزال : رووا عن الإمام أحمد وغيره أثراً : « أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى ملك من الملائكة ، أن اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال يا رب كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال : به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه فىّ قط ! »

بلى . بلى . فالعمل الصالح أزكى من مطلق العبادة ! هذا يحيى بن عمر يرجع من القيروان فى تونس إلى قرطبة فى الأندلس ليرد دانقاً كان عليه وهو يقول : رد دانق على أهله أفضل من عبادة سبعين سنة !

إنها ضريبة الرضا النفسانى يؤديها الزاهد أو العابد أو العالم يكد ويكدح ليترك آثاره فيمن يحيط به من العالمين :

وإذا كان أبو حنيفة قد جانب السياسة فى حياته لأن رسالته كانت أكبر من السياسة ، فقد جانبها وهو يختتم هذه الحياة ، لأن العالم الحق لا يفتتن بما يفتتن به الناس ولا يلقى بذاته كرجال الدولة فيما هم فيه يعتركون : بل إن رجل الدولة ، ليقذف

بنفسه فى المهالك يهنيه أن يفور التنور وتغلى به القدور ، ليستخرج ما يشاء من معقبات ونتائج :

فإذا هاجم البطش المفكر فى عقر داره ، أو فدح الخطب وعمت البلوى أو هددت الحرية أو الفضيلة ، حق على رجل العلم أن يحمل تبعاته ويحمى حماه : إنه لم يعد العالم ولم يبق الفقيه وإنما غدا القدوة :

إن هؤلاء الفقهاء يحملون من التبعات ما لا يحمل الساسة ولا الزعماء ، لما يستيقنه الناس من أنهم ورثة الأنبياء ، فلا جرم إذا التمسوا النجاة عندهم والأمل فى روح الله لديهم :

لما والى الملك إسماعيل الإفرنج أيام الحرب الصليبية وسلم لهم صيداء وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب أنكر عليه عز الدين بن عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزله واعتقله: ثم بعث إليه يعده ويمنيه: فقال له الرسول : « تعاد إليك مناصبك وزيادة ، وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده » : فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : « والله ما أرضاه أن يقبل يدى ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد : : » :

سبق أبو حنيفة فضرب الأمثال للعلماء كما سبقهم فى ميدان الاجتهاد ، فواجه النوازل فى الفكر بالفكر ، والنوازل فى العمل بالعمل :

اختارت له السماء مجد الخلد على مجد الساعة ، ورضاء الله على رضاء السلطان وآثر الآخرة على الأولى وسعى لها وهو مؤمن : واتخذ مكانه فى هذا الثبت الفردوسى الحافل بأسماء الصالحين والشهداء :

هنالك تتراءى لك الأعماق التى ينبع منها فكر هذا المجاهد الحر ، خلابة للبصر ، وتتجلى لك القمم العالية التى ارتفعت إليها هذه الحياة عندما ختمتها يده القدرة خاتمة أروع من الخيال ، ويتراءى لك فيما بين البداية والنهاية حياة هى العمل ، ورسالة هى الخلق والابتداع ، ليست فى تطبيقات كل يوم ، تلك التطبيقات الدارجة ، والفتاوى المفردة ، أو فى خدمة السلطان :

إنما كانت وظيفة أبي حنيفة وظيفة الشارع نفسه ، لا وظيفة الذى ينفذ الشرائع . والقضاء تنفيذ والتشريع خلق . والمشرع يضع النظام . والقاضى من حرسته وسدنته .

كانت وظيفة الإمام الأعظم تتصل بالقرآن وبالحديث وبالعقل لاستنباط الأصول والحلول ودفعها فى الغداة إلى القضاء والعلماء والحكام والخلفاء والناس كافة ، يتناولون بها جميعاً شئون الدنيا والدين ، ويقضى بها القضاة فى كل قضية ، وكل دولة ، وكل جيل ، وكل مكان .

كانت رسالته إنشاء المذاهب وإنشاء الرجال ، والتوثيق بين العلم والحضارة .

كان هو نفسه الانبعاث التاريخى الذى خلد به الفقه الإسلامى نفسه . فأين منه ، بل أين من بعض منه ، كراسى القضاء . على ما فى وظيفة القضاء من إشراق وكرامة وعبادة .

لقد ساهم التاريخ فى توكيد تلك الحقائق . فلم يل وظيفة القضاء فى خدمة الخلفاء واحد من الأئمة الأربعة الذى تقاسم مذاهبهم جمهور المسلمين .

تلك مكانة حصل الحديث فيها ابن وهب حيث قال : « إن العلماء يحشرون مع الأنبياء وإن القضاة يحشرون مع السلاطين » .

أجل وكما قال أبو حنيفة : « إن لم يكن أولياء الله تعالى فى الدنيا والآخرة العلماء فليس لله ولى » .

وإذا كان ذلك شأن العلماء فكيف بأئمة العلماء ، بل كيف بأحق رجل فى الإسلام بما قيل عن أرسطو « معلم العلماء » .

فأين . أين . . أين الأمراء من الأنبياء . وأين رجال القضاء من الفقهاء !

أين أبو حنيفة قاضى القضاة . أو قاضى الكوفة ، أو بغداد أو الرصافة ، لو قدر وكان ، من الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ؟

لقد دالت دولة بنى العباس ، ولم يذهب مذهب أبى حنيفة : ونسى الناس أبا جعفر وأولاده وحفدته : لكن اسم أبى حنيفة ما يزال يذكر كلما صلى الناس أو صاموا بل كلما واجهوا أمراً من أمور الشرع فى شأن من شئون الدنيا أو الدين :

* * *

أحس أبو حنيفة بالموت فسجد فصعدت روحه وهو ساجد فى رجب سنة ١٥٠ : كأنما كان يسابق ملك الموت إلى لقاء الله فى الصلاة :

جاءته الدعوة إلى لقاء الله وهو بين يدى الله يصلى، وبين يدى التاريخ وهو سجين ، وبين يدى الفكر الإنسانى وهو يتلقى العذاب من جرائه !

وأخرج من مكان حبسه فحمله خمسة أنفس فأتوا به إلى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضى بغداد ، وكان من أصحاب الحديث وزهادهم : فلما فرغ من غسله قال : « رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة : كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقبرت إذ قبرت إلى خير وسنة وأتعبت من بعدك » :

وما فرغوا من غسله إلا وقد اجتمع من أهل بغداد خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، حتى خرج من باب خراسان ، كأنما نودى لهم بموته ، فاجتمعوا وحرز من صلى عليه فقيل بلغوا خمسين ألفاً ، وقيل أكثر ، وأعيدت الصلاة عليه ست مرات : وقيل إن المنصور جاء وصلى على قبره ، ولم يمكن دفنه إلا بعد العصر لكثرة الزحام :

ومكث الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوماً: ولما بلغت المنصور وصيته بأن يدفن بالخيزران لأنها أرض طيبة غير مغصوبة قال : « من يعذرنى فيك حيًّا وميتاً : : ! » :

وقال الحسن بن عمارة على القبر : « كنت لنا خلفاً ممن مضى : وما تركت بعدك خلفاً : إن خلفوك فى العلم الذى علمتهم لم يمكنهم أن يخلفوك فى الورع إلا بتوفيق » :

وأتى نبأ موته مكة ، فرثته البلدة المباركة على لسان فقيهها ابن جريح ، فاسترحم وتوجع ثم قال : « أى علم ذهب ! »

ولما وقف تلميذه عبد الله بن المبارك على قبره ، قال : « رحمك الله : مات إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وخلفا خلفاً ، ومت أنت ولم تترك على وجه الأرض خلفاً » وبكى بكاء شديداً .

وفى منتصف القرن الخامس للهجرة (سنة ٤٥٩) بنى شرف الملوك أبو سعد محمد بن المنصور الخوارزمى (مستوفى مملكة عضد الدولة البارسلان محمد وابنه السلطان عضد الدولة ملك شاه السلجوقى) على قبر الإمام مشهداً وقبة وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، وبقى قبره مزاراً للناس فى طريقهم للحج وعودهم منه ودفن إلى جواره جماعة من نخبة العلماء ، منهم الدامغانى شيخ العراقين وقاضى بغداد .

ولما دخل الشافعى بغداد قصد إلى مقابر الخيزران وصلى على قبر الإمام الأعظم ركعتين ولم يرفع يديه — فسئل لماذا خرج عن قواعده ؟ فقال رضى الله عنه : « أدباً من هذا الإمام أن أظهر خلافه بحضرته » .

وكان يجىء إلى قبره كل يوم ويقول : إنى لأتبرك بأبى حنيفة :

* * *

بلى ، وأية بركة أصابت الشافعى وأصابها الإسلام . أما الشافعى فقد تلقى فقه أبى حنيفة مبوباً مؤصلا مقعداً ، كما يتلقى الجوهرى الصناع كنزاً من اللآلئ والأعلاق . وأما الإسلام فهو يذكر لأبى حنيفة ما لا يذكره إلا لمن جاء بعد النبى عليه الصلاة والسلام من صفوة الطبقة الأولى من صحبة المخلصين .

فالفقه الإسلامى فى المعاملات أو العبادات أغلى كنوز الحضارة الإسلامية مكانة وأبعدها أثراً فى الأمة جيلا بعد جيل لاتصاله بالقرآن والحديث فى منابعه الأولى . ولئن كان للغة العربية وآدابها — وهى لغة القرآن — ذلك الشأن الجليل الذى تفاخر به كل اللغات ، فإن للفقه منها مكان الصدارة .

هو الذى مكن للحضارة الإسلامية فى بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوربا وآسيا . وحيث لم تصمد اللغة العربية صمد الفقه الإسلامى ، وسيطرت مبادئه فى نظام الأسرة والملكية والحرية فى الرأى والعقيدة والأصول العامة للشريعة .

ولئن غزا الإسلام هذه الأمم بالسلاح ، إنه استقر فيها بالشريعة :

لقد غلب السلاجقة المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى ولكنهم أسلموا : وغلب المغول المسلمين فى القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا أيضاً :

إن الإسلام ينتصر وإن هزم المسلمون !

وحيث وجد الإسلام وجد الفقه الإسلامى ووجد الفقهاء العالميون فى غير جزيرة العرب ممن سجلوه وخلدوه : يتسابقون فى حلباته ذلك السباق المترامى فى حدود الوجود الزمانى والمكانى ، حتى إذا أقفل باب الاجتهاد فى عصور التقليد لم يسكت لهم صوت ولم تهدأ لهم حركة ولم يبرح إنتاجهم يثير الإعجاب :

ولو عجز الفقه الإسلامى عن أن يستجيب لحاجات الأمة فى هذه الأقطار المترامية لخيف أن تعمد إلى اطراحه لتعيش : وإذن لبخعت الحضارة الإسلامية نفسها فى كل مكان :

فأى فضل على الأمة يلقى به ربه ويلقى به التاريخ رجل مكن للفقه الإسلامى أن يكون عصرياً فى كل عصر : وإقليمياً فى كل إقليم ، فمكن للدين نفسه ووطد أركانه :

لا عجب أن قال بعضهم : إن النبى قد بشر به : فهو إن صح أو لم يصح ضرب من ضروب التمجيد وهو جدير بالتمجيد ،جدير بتفسير المفسرين لحديث « لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » وغيره ، تفسيراً ينظمه فى سلك المأمولين للإصلاح : وجدير بما قال بعض أئمة الزهد : « يجب على أهل الإسلام أن يدعوا لأبى حنيفة فى صلاتهم لحفظه عليهم السنة والفقه » :

لقد كان صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ينظر بنور الله يوم قال

للمسلمين : « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد » وكان عمر مؤمناً ممن عناهم النبي بقوله : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

فلقد جعل النبي عماراً وابن أم عبد (ابن مسعود) ركنين من أركان الأمة كأبى بكر وعمر .

وإذا كان أبو بكر قضى على الردة ، وكان عمر أنشأ الإمبراطورية الإسلامية ، فإن رسوليه إلى العراق — عماراً وابن أم عبد — قد أديا رسالتهما نعم الأداء ، كأنما بصر الرسول والفاروق ورسولا الفاروق من خلال السنين بما سيؤديه هذا الإقليم العظيم للعالم الإسلامى فيحفظ له أمانة الفقه ويشيع فى أرجائه الأسلوب الجديد ويحمى الشريعة الإسلامية من أن تصيبها آفة القصور عن مطالب العصور .

ولئن كان خالد بن الوليد قد حمى الإسلام من الردة عند الصيحة الأولى على هدى من أبى بكر ، إن أبا حنيفة قد حمى الشريعة عند الصيحة الأولى إذ نادت بذلك الحوادث وهو على هدى من عمر وعهد من ابن مسعود .

ولقد نظر ابن مسعود بنور الله يوم ضرب الأمثال فى الاجتهاد عند أساطين مسجد الكوفة ليئول مجلسه بعد قرن كامل إلى أبى حنيفة الذى نهج نهجه وورث عهده ، ذلك العهد الذى أوصى به الرسول .

نفحات من السماء جاءت بأبى حنيفة فى أوانه ، كما جاءت بابن الوليد فى إبانه ، لتؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى صدق وعده ووفى عهده

فى سنة ١٥٠ مات أبو حنيفة وولد الشافعى ، كأن السماء لم تشأ أن تحرم الأرض ذلك الإمام إلا إذا حبتها هذا الإمام .

كان نابليون يقول عن نفسه : « كل شىء ينتهى على بعد ستة أقدام تحت الثرى». ولئن صدق هذا القول على رجال السياسة أو رجال الدنيا ، إنه لايصدق على المفكرين : فأولئك يبدأ كل شىء بالنسبة لهم عند ذلك . إنهم يذرون أجسادهم

تحت الثرى ويبعثون أفكارهم إلى الأفلاك ، وأسماءهم إلى الأزل ، لتصير حديثاً فى فم التاريخ وطنيناً فى سمع الزمن . أو كما قال هيجو : أيها العظماء : هل تريدون المجد ؟ . . موتوا !

استقبل أبو حنيفة وهو سجين فى السبعين من عمره ؛ حياة الخلود كما استقبلها سقراط من قبله بعشرة قرون ، فى السبعين من عمره ، محكوماً عليه بالإعدام ، فنظر إلى قضاته وقال : « . . سيذهب كل منا فى طريقه ، أنا فى طريقى لأموت ، وأنتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا » :



المراجع

١ – مناقب الإمام الأعظم : الموفق بن أحمد المكى

٢ – مناقب الإمام الأعظم : ابن البزاز الكردى

٣ – عقود الجمان فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان : الحافظ محمد بن يوسف بن على بن يوسف الدمشقى الصالحى

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت ن ١٠٧

٤ – الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان : ابن حجر

٥ – الانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء : للحافظ أبى عمر يوسف بن عبد البر

٦ – تاريخ بغداد : أبو بكر الخطيب

٧ – الرد على أبى بكر الخطيب : الملك أبى المظفر عيسى بن عبد الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب

٨ – تأنيب الخطيب على ما ساقه فى أبى حنيفة من الأكاذيب : محمد زاهد بن الحسن الكوثرى

٩ – إحقاق الحق بأبطال الباطل فى مغيث الخلق وأقوم المسالك فى بحث رواية مالك عن أبى حنيفة ورواية أبى حنيفة عن مالك : محمد زاهد بن الحسن الكوثرى

١٠ ــ حياة الإمام أبي حنيفة : الأستاذ سيد عفيفي
١١ ــ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : الحجوي
١٢ ــ وفيات الأعيان : ابن خلكان
١٣ ــ الفوائد البهية في تراجم الحنفية : اللكنوي
١٤ ــ طبقات الفقهاء : أبو إسحق الشيرازي
١٥ ــ طبقات الشافعية الكبرى : السبكي
١٦ ــ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب : ابن فرحون ــ المالكي
١٧ ــ نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة : أحمد تيمور باشا
١٨ ــ فجر الإسلام : أحمد أمين بك
١٩ ــ ضحى الإسلام : أحمد أمين بك
٢٠ ــ تاريخ التشريع الإسلامي : الخضري بك
٢١ ــ تاريخ التشريع الإسلامي : الأساتذة عبد اللطوف السبكي ومحمد على السايس ومحمد يوسف البربري
٢٢ ــ تاريخ الفقه الإسلامي : دكتور على حسن عبد القادر
٢٣ ــ الموافقات في أصول الشريعة : الشاطبي
٢٤ ــ أعلام الموقعين : ابن القيم

٢٥ — مجموعة رسائل « فقه حنفى »
مخطوط ن ٧٣٢ دار الكتب
المصرية : مفتى زاده

٢٦ — مجموعة رسائل « فقه حنفى »
مخطوط ن ٣٢٨ دار الكتب
المصرية : عبد الغنى النابلسى

٢٧ — رفع الملام عن الأئمة الثلاثة
الأعلام (دار الكتب المصرية) ابن تيمية

٢٨ — رسالة فى مدى استعمال
حقوق الزوجية : دكتور السعيد مصطفى السعيد

٢٩ — علم أصول الفقه : الأستاذ عبد الوهاب خلاف

٣٠ — الإسلام وأصول الحكم : الأستاذ على عبد الرازق

٣١ — السياسة الشرعية · الأستاذ عبد الوهاب خلاف

٣٢ — السياسة الشرعية : الأستاذ محمد البنا

٣٣ — الفقه على المذاهب الأربعة :
طبعة وزارة الأوقاف : الشيخ عبد الرحمن الجزيرى

٣٤ — رد المحتار على الدر المختار · ابن عابدين

٣٥ — المجموع شرح المهذب : محيى الدين بن شرف النووى

٣٦ — مجلة القانون والاقتصاد
السنة الأولى : الأستاذ أحمد بك إبراهيم

٣٧ — مجلة القانون والاقتصاد
السنة الثانية : دكتور محمد كامل الغمراوى

٣٨ — مجلة القانون والاقتصـــاد
السنة الخامسة : الأستاذ محمد أحمد أبو زهـــرة

٣٩ — مجلة القـــانون والاقتصـــاد
السنة السادسة : الأستاذ عبد الوهاب خلاف

٤٠ — مجلة القـــانون والاقتصـــاد
السنة السابعة : الأستاذ عبد الوهاب خـــلاف

٤١ — The moslem Creed. Wensinck. Cambridge 1932

٤٢ — Le Dogme de l'Islam. Goldziher — Paris 1920

٤٣ — شرح الأحـــكام الشرعية : محمد زيد الأبيانى بك

٤٤ — الخراج : أبو يوسف

٤٥ — الفهرست : ابن النديم

٤٦ — تاريخ الطبرى : الطبرى

٤٧ — تاريخ الدولة العباسية : محمد الخضرى بك

٤٨ — تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم حسن

٤٩ — الطبقات الكبرى : ابن سعد

٥٠ — فلاسفة الإسلام فى المشرق
والمغرب : محمد لطفى جمعة

٥١ — الإمامة والسياسة : ابن قتيبة

٥٢ — الكتاب والوزراء : الجهشيارى

٥٣ — العقد الفريد : لابن عبد ربه

٥٤ — دائرة المعارف الإسلامية

٥٥ — دائرة معارف البستانى

٥٦ — الأمالى : أبو على القالى

٥٧ — المقدمة : ابن خلدون

٥٨ — Islamic Civilisation Khuda bukch University of Calcutta 1929

٥٩ — الحيوان : الجاحظ

٦٠ — مناقب الإمام الشافعى : محمد بن عمر الرازى

٦١ — القضاء فى الإسلام : ابن عرنوس



فهرست

للمؤلف

الكتاب	الطبعة
١ – أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح	طبعة دار المعارف
٢ – الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول	طبعة دار المعارف
٣ – مالك بن أنس إمام دار الهجرة	طبعة دار المعارف
٤ – أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	طبعة دار المعارف
٥ – الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفى	طبعة دار المعارف
٦ – الإمام محمد عبده	طبعة دار المعارف
٧ – الإمام جعفر الصادق	طبعة دار المعارف
٨ – الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعارف
٩ – نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٠ – أئمة الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١١ – نجوم المحاماة فى مصر وأوربا	طبعة دار الاتحاد العربى
١٢ – مجموعة مذكرات قضائية (جزأين)	طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر
١٣ – توحيد الأمة العربية	طبعة وزارة الثقافة – مصر
١٤ – تطوير التشريعات	طبعة وزارة الثقافة – مصر
١٥ – من أجل مصر (البطل أحمد عصمت)	المطبعة التجارية – مصر
١٦ – القرآن والمنهج العلمى المعاصر	طبعة دار المعارف
١٧ – فى السيرة النبوية	طبعة دار المعارف
١٨ – نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقة الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أبحاث منشورة

البحث	الوصف
١٩ – الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع	بحث مقدم لمجلس الأمة المصرى عند إعداد الدستور سنة ١٩٧١.

٢٠ – الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة – فى العصر الحديث – بحث مقدم لمؤتمر الفقه الاسلامى بالرياض سنة ٧٦ — مجلة هيئة قضايا الدولة سنة ١٩٧٨

٢١ – نحو تقنين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامى — بحث مقدم للمؤتمر الثامن لمجمع البحوث بالأزهر

٢٢ – نحو قانون للمعاملات من الفقه الإسلامى

بحث بالانجليزية ألقى فى احتفالات مهرجان العالم الإسلامى لندن سنة ١٩٧٦

Towards a contemporary civil Iaw based on Islamic Legislation.

٢٣ – نحو مشروع للدستور الإسلامى

بحث ألقى فى المؤتمر العالمى للعيد الألفى للأزهر (مارس ١٩٨٣) مطبوعات المؤتمر

٢٤ – أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الدعوات الأخرى

بحث مقدم لمؤتمر محمد بن عبدالوهاب — جامعة محمد بن سعود الرياض ١٩٧٩

٢٥ – بطلان التفتيش بغير إذن — مجلة المحاماة ١٩٣٣

٢٦ – تصرفات السفهاء قبل الحجر — مجلة المحاماة ١٩٣٧

٢٧ – التشريع العربى — كتاب الوطن العربى دار المعارف

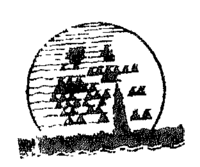
٢٨ – الملكية الفنية — مجلة مجمع الفقه الإسلامى بجدة

٢٩ – بيع المتجر — مجلة مجمع الفقه الإسلامى بجدة

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ١٠٥٣٠
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3927 - 5	ISBN

١ / ٩٢ / ٣٤٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)







هذا الكتاب

محاولة لرسم شخصية الإمام الأعظم لأهل السنة «الإمام أبو حنيفة» الذى يعتبر بذاته حدثًا ضخمًا فى تاريخ الإسلام. فإن آثاره التى تركها لتمثل فى ذاتها حضارة كاملة. وشجاعته النادرة فى الدفاع عن السنة لتتراءى لنا كنموذج يقتدى به.. وسوف يرى القارئ آيات من البطولة لا نظير لها إلا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.. فأينما تعارض الفقيه والخليفة، أو الفكر والسلطان. كان النصر فى النهاية للفكر، بفضل شجاعة وإخلاص ذلك الفقيه العظيم..

فإلى الجيل الذى يتلفت يمنة ويسرة بحثًا عن حرية الكلمة.. وشجاعة الرأى، والاستبسال دفاعًا عن السنَّة، نقدم هذا المثل الفريد.